

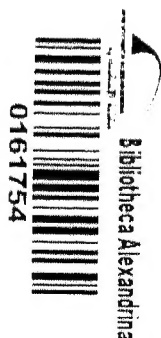
ستانسلاف ليم

سولاريس

رواية



رجمة : محمد بدرخان



- * سولاريس
- * ستانسلاف ليم
- * الطبعة الثانية 1999
- * حقوق الترجمة محفوظة
- * دار الحصاد للنشر والتوزيع
- سورية - دمشق - ص. ب : 4490
- هاتف ، فاكس : 2126326
- * دار الكلمة للنشر والتوزيع
- سورية - دمشق - ص. ب : 2229

ستانسلاف ليم

سولاريس

(رواية)

ترجمة: محمد بدر خان

الهبوط

أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة عشرة تماماً من توقيت المركبة الفضائية عندما نزلت الدرجات الحديدية إلى القمرة . وصلت رأس الخرطوم في مكانه الظاهر على الجدار فانتفخت البذرة الفضائية ولم أعد أستطع القيام بأية حركة على الإطلاق .

وقفت ، بالأحرى كنت معلقاً داخل المقصورة الفضائية مكوناً مع غطائها المعدني وحدة متكاملة . رفعت ناظري إلى الأعلى وشاهدت من خلال الزجاج المقعر جذران البشر ووجه (مودارد) منكباً عليه . بلحظة اختفى وجهه وحلّ الظلام بعدما أغلقوا مخروط الأمان الثقيل في الأعلى . تردد صغير المحركات الكهربائية ثماني مرات بعد أن وصلوها باللوالب ومن ثم سمعت صأصأة الهواء في المخمدات . بعد فترة قصيرة تأقلمت عيناى مع الظلام وأصبحت أميز الدارة الخضراء للمؤشر المتعدد الأغراض . فجأة سمعت صوت (مودارد) من خلال السماعات الرأسية يسألني :

— هل أنت جاهز ؟

— جاهز يامودارد .

— لا تقلق أبداً ستستقبلك المحطة . أتمنى لك رحلة موفقة .

لم تسنح لي الفرصة في الرد عليه ، إذ سمعت صرير شيء ما في الأعلى ،

وأهتزت القمره . تقلصت عضلاتي بشكل غريزي ، ولم يحدث أي شيء آخر .

— متى سيتم الأغلاق ؟

ملأت أذني ضجة شبيهة بانسياب حبات الرمل الصغيرة ، ومن خلالها جاءني صوت (مودارد) :

— إنك تطير ياكيلفن ! أتمنى لك الصحة !

وقبل أن استوعب ذلك كما يجب انفتح شق كبير أمام عيني ، رأيت من خلاله نجوم السماء . عبثاً حاولت إيجاد « إيلفا فودو لي » التي طار إليها « بروميثوس » . كنت لأعلم شيئاً عن هذه المنطقة من المجرة . لحت من خلال النافذة الضيقة غباراً مشعاً وأدركت من ذلك أنني أقع الآن في أعلى طبقات الجو . لم يكن بإمكانني النظر إلا إلى الأمام لأنني كنت مثبتاً ومحاطاً بالمخدرات الهوائية .

كانت الحرارة اللعينة البطيئة تلفحني بأواجها وأنا أحلق وأحلق بعيداً دون أن أحس بذلك . فجأة غطى لون أحمر نافذة الرؤية ، أحسست بنبضات قلبي تزداد قوة والتهب وجهي ثم دغدغ عنقي تيار هواء قادم من المكيف . أسفت جداً لأنني لم أستطع رؤية « بروميثوس » . ربما أصبح خارج نطاق الرؤية عندما انفتحت نافذة الرؤية آلياً . ارتجت قبة القمره مدة ، ثم أخرى وانتقل الارتجاج إلى كامل هيكلها . نفذ الارتجاج إلى عمق جسدي مخترقاً كافة الأغلفة العازلة والمخدرات الهوائية . واختلطت ألوان دائرة المؤشر المتعدد الأغراض . شعرت بالرعب فأنا لم أجتز هذه المسافات البعيدة لأموت . قرب الهدف الذي جئت من أجله ، وهتفت في السماعه :

— محطة سولاريس ! محطة سولاريس ! محطة سولاريس ! أفعلوا أي شيء ،

أني أفقد توازني .. أنا كيلفن . حوّل .

— لقد أضعت اللحظة الهامة لبداية ظهور الكوكب . بدالي الكوكب ضخماً منبسطاً مستوياً وعرفت أنني مازلت بعيداً عنه ، وذلك من تحديد حجم المنطقة على سطحه . أدركت أنني كنت على ارتفاع شاهق بعدما اجتزت تلك الحدود اللامرئية حيث يصبح الارتفاع هو المسافة التي تصل إلى كبد السماء . بدأت أهبط وشعرت بذلك وأغلقت عيني .

انتظرت بضع ثوان وكررت ندائي لكن لم أتلّق أي جواب . وترددت في أذني توترات الجو كرشقات يرافقها ضجيج خفيف وعميق . بدالي كأنه صوت الكوكب ذاته . رأيت من كوة المشاهدة أن السماء البرتقالية مغطاة بالغشاوة وأحاطت العتمة بالزجاج . تقلصت عفواً بقدر ما سمحت لي الأغلفة الهوائية وأدركت بعد ثانية أن هذه الغشاوة مجرد سحب عابرة . كانت الشمس تغمر عيني بأشعتها تارة وتارة تغمرني بظلالها إذ كانت القمر تدور حول محور شاقولي وشيء ضخّم منتفخ شبيه بقرص الشمس يقوم أمام وجهي يظهر من ناحية اليسار ويغيب في ناحية اليمين .

فجأة اقتحم أذني من خلال الضجيج والفرقة صوت يناديني :
— من محطة سولاريس إلى كيلفن ، من محطة سولاريس إلى كيلفن استعد للهبوط في اللحظة صفر . انتبه إنني أبدأ العد . مئتان وخمسون ، مئتان وتسع وأربعون ، مئتان وثمانية وأربعون

كان وقع الكلمات شبيهاً بتساقط حبات الحمص والفواصل بينها واضحة متميزة كأنها تتردد من جهاز آلي . أمر غريب . من العادة أن يهرع الجميع إلى مدرج الهبوط عندما تصل إليهم أية مركبة فضائية وخاصة إن كانت المركبة قادمة من الأرض .

لم يكن الوقت للتفكير بذلك طويلاً . وفجأة هب القرص الموسوم حولي بأشعة الشمس من السهل الطائر لاستقبالي . مالت القمرة جانباً وتأرجحت كحمل ثقيل على بندول وشاهدت وأنا أصارع الدوخة في رأسي على سطح الجدار القاتم للكوكب المتقطع بخطوط داكنة وأخرى ليلكية وسخة ، المربعات الشطرنجية البيضاء والخضراء . وهي العلامة المميزة للمحطة . في هذه اللحظة اندفع الطوق للمظلة الدائرية وسمعت صوت حفيفه القوي . وشعرت بنفحة هواء حقيقي . هذا شيء يصعب وصفه بعد مضي شهور عديدة في تحليق مستمر .

أما ماتبقى فقد جرى بسرعة . كنت طوال تلك المدة أعرف انني أهبط دون أن أشعر بذلك ، أما الآن فأرى بعيني . كانت المربعات الشطرنجية المرسومة على هيكل المحطة الفضلي البراق الشبيه بجسد الحوت تكبر أمام ناظري ، وبعد لحظة شاهدت مسلات الهوائيات الرادارية إضافة لكوى المحطة ، وعلمت أن هذا الهيكل المعدني الهائل لا يربض على سطح الكوكب بل هو معلق في الفضاء لأنني شاهدت ظلاله المخططة باللون الأسود على خلفيته ، تشكل نقطة اهليلجية أشد سواداً من سطح الكوكب . وفي نفس الوقت لاحظت أمواج المحيط المغطاة بطبقة بنفسجية دخانية تتحرك ببطء . ثم ارتفعت السحب عالياً ملونة بلون أرجواني يعمي الأبصار وظهرت السماء من بين الغيوم بعيدة ومنبسطة بلونها البرتقالي الداكن . ومن خلال نافذة الرؤية شاهدت بریق المحيط الأرجواني المتماوج حتى أفق السماء .

بعد لحظة انفصلت المظلة وحبالها وطارت فوق أمواج المحيط محمولة بالهواء . بدأت القمرة تتأرجح بخفة وبحركات متميزة حرة كما يحدث عادة في مجال القوة الاصطناعية ومن ثم هوت إلى الأسفل . كان آخر ما شاهدته

العدادات الضخمة المتشابكة ومرأتين دقيقتين للتلسكوبات اللاسلكية المرتفعة
بعلو عدد من الطوابق .

توقفت القمرة عن الارتجاج وسمعت صريراً حاداً للفلولاذ ، انفتحت
الكوة السفلية وانتهت المركبة رحلتها بأن نفثت هواء ملتبهاً أمتد على طول
عشرات الأمتار . ثم سمعت صوت الموجه الآلي الشبيه بصوت ميت يقول :
— محطة سولاريس . صفر . صفر تمت عملية الهبوط . انتهى .

أمسكت بيدي الاثنتين المقابض وأطفأت الموصلات (كنت أشعر بنوع
غريب من الضغط على صدري وبشيء ثقيل في داخلي) وظهرت على اللوح
كلمة « الأرض » وانفتحت جدران القمرة ودفعني المقصورة الهوائية بخفة
من الخلف . كان علي أن أتقدم خطوة كي لا أقع .

تخلصت من غلاف البذرة الفضائية التي أصدرت حفيفاً خفيفاً شبيهاً
بحركة يائسة . أصبحت حراً .

كنت أقف على قعر قمع فضي ضخم ، وحزم من الخراطيم المختلفة
الألوان تتدلى على الجدران مخفية رؤوسها في بؤر دائرية . كانت المكيفات
الهوائية تهدر طاردة بقايا جو الكوكب السام التي دخلت المحطة أثناء الهبوط .
وقفت سلة القمرة الفارغة كمجوزة مغلقة على قعر كأس مغروز في كتلة
فولاذية . لقد احترق غطاؤها الخارجي وأصبح لونه بنيّاً وسخاً . خطوط
عدة خطوات على منحدر قليل الميل . بعد ذلك غطى المعدن بطبقة من
البلاستيك الخشن . ثم اختفى البلاستيك عن امكنة ظهور حاملات ورافعات
الصواريخ وحل محله فولاذ عار . صممت ضاغطات الهواء وخيم السكون .
ألقيت نظرة يائسة حولي منتظراً ظهور أي إنسان في المحطة . لكن أحداً لم
يظهر . كل ما رأيته كان عبارة عن سهم فوسفوري يشير إلى منقلة شريطية

تتحرك بدون ضجة . وقفت عليها . انحدرت قبة القمر راسمة مسار قطع مكافئ لتنتقل إلى أنبوب الدهليز حيث تكدست في تجويفاته حاويات وصناديق وبالونات منتفخة بالغاز المضغوط كانت جميعها ملقاة مبعثرة دون أي ترتيب وهذا ما أدهشني . توقفت المنقلة عند البهو الواسع الدائري ، وهنا كانت الفوضى تعم بشكل أشد . كانت السوائل الزيتية تسيل من تحت علب الصفيح وقد شكلت بركة تفوح منها رائحة كريهة تملأ الهواء . وكانت آثار الأحذية ترسم دروباً في كافة الاتجاهات بعد أن زودت بصماتها بهذا السائل . أما أشرطة التيلغراف والقاذورات فكانت تملأ الفجوات بين الصفائح كأنها رميت من داخل الغرف . لمع المؤشر الأخضر من جديد ليوجهني نحو منتصف الباب . عبرت الباب إلى دهليز آخر كان الدهليز ضيقاً بحيث يصعب مرور شخصين في اتجاهين مختلفين .

كان الضوء يتسرب عبر زجاج النوافذ الشبيهة بحبات العدس والمطللة على السماء ثم وجدت باباً آخر ملوناً بمربعات خضراء وبيضاء مفتوحاً على مصراعيه ودخلت . في الغرفة كانت نافذة بانورامية ضخمة تطل على السماء الممتدة الملتهبة السديمية وفي الأسفل كانت تظهر أمواج المحيط الداكنة المتدحرجة . وعلى الجدران خزائن عديدة مفتوحة الأبواب تكدست فيها الكتب والمعدات والقوارير الزجاجية المليئة بالرواسب الجافة وعلى الأرض كانت خمسة أو ستة كراسي وعدد من الأرائك الهوائية المفلطحة التي نفثت هواءها إلا واحدة جلس عليها رجل صغير منهك القوى بوجه محروق من أشعة الشمس . كان جلد بشرته يزحف من أنفه ومن خديه بموجات صغيرة وأدركت من يكون هذا الانسان . إنه « سناوت » الاختصاصي من السيبرنيتيك . ومعاون « غيباريان » لقد نشر سابقاً عدداً من المقالات الأصلية عن تقويم سولاريس . لم نلتق من قبل أبداً . كان يرتدي قميصاً

مشبكاً نفذ من خلاياه شعره الأبيض النامي على صدره الأملس . وسروالاً
نيلياً وسخاً حتى ركبته له عدد كبير من الجيوب ومحروفاً من التفاعلات .

كان « سناوت » يمسك بإجاصة بلاستيكية من تلك التي يشربون منها
في مراكب الفضاء المكدومة من الجاذبية الاصطناعية . نظر إليّ كمشلول
معمي بالنور وسقطت الاجاصة من بين أصابعه الضعيفة وتدحرجت على
الأرض مثل كرة ، مفرغة بعض مافي داخلها من سائل شفاف . وغابت
الدماء عن وجهه تدريجياً . ذهلت من وضعه حتى أنني لم أفه بأية كلمة .
استمر هذا الموقف الصامت فترة لم أعرف كيف ولماذا لم تنتقل إليّ خللاها
حالة رعبه هذه . تقدمت خطوة . تلملم « سناوت » في مكانه فقلت له :
— سناوت ؟!

أرتعش وكأن أحداً صفعه على وجهه . ونظر إليّ بقرف لا يوصف
وتحشرج صوته في فمه وقال :
— لا أعرفك ، لا أعرفك ، ماذا تريد مني ؟

تبخر السائل الذي سال من الإجاصة بسرعة . شمت رائحة المشروبات
الكحولية . ترى هل كان يشرب ؟ هل هو سكران ؟ لكن لماذا يخاف مني
بهذا الشكل ؟

بقيت واقفاً في منتصف الحجرة . تراخت ساقي . أما أذنيّ فكانتا كأنهما
مسدودتان بالقطن . أحسست بعدم الثقة بالأرض التي أقف عليها . وخلف
الزجاج المحدث للنافذة البانورامية كان المحيط يتخطب بأمواجه .

لم يرفع « سناوت » عينيه المحمرتين ، لكن الرعب اختفى عن وجهه
وبقي القرف الذي يصعب وصفه وسألته بصوت خافت :
— مابك هل أنت مريض ؟

— وتهتم ... — أجاب بصوت منخفض أها نعم ، ستهم . لكن لماذا تهتم بي أنا ؟ فأنا لا أعرفك .

— أين « غياريان » ؟
ضاقَت أنفاسه لحظة وأصبحت عيناه زجاجيتين لمعت فيهما شرارة
أنطفأت حالاً وقال متلعثماً :
— غي ... غيا ... لا !!! وغاب في ضحكة بلهاء وصامتة وسكت
فجأة ...

— هل جئت من أجل « غياريان » ؟
كان صوته هادئاً تقريباً
— تطلب « غياريان » ؟ ماذا تريد أن تفعل به ؟
صار يتحدث وكأنني لم أعد أشكل خطراً عليه لكن كلماته ، بالأحرى
لهجة كلماته بقيت تحوي شيئاً يشبه الاحتقار الكريه .
— ماذا تقول ؟ سألته وجحظت عيناها — أينه ؟
تسمر في مكانه وسأل :
— ألا تعرف ؟

فكرت ا « لا بد أنه مخمور ، مخمور ، هذا أمر واضح وضوح الشمس »
وسيطر علي غضب متصاعد وتوجب علي أن أغادر الغرفة لكن صبري نفذ
وصرخت في وجهه :
— عد إلى رشدك . من أين لي أن أعرف ولم تطأ قدماي المحطة إلا في هذه
اللحظة ! ما بك يا « سنوات » ؟

تنفس « سنوات » الصعداء وارتنخى فكاه السفلي . وظهر بريق سريع في
عينيه واستند بيديه على ذراعي الأريكة ليقف بصعوبة ، حتى أنني سمعت

- صيرير مفاصله . ثم سألني وقد عاد شيء من الرشد إلى عينيه :
- ماذا تقول ؟ وطأت قدماك ؟ من أين جئت ؟
- ومن أين يمكنني المجيء إن لم آت من الأرض . أجبته بمقد ثم أضفت ساخراً :
- ربما سمعت بها ؟ تبدو وكأنك لم تسمع بالأرض من قبل !
- من الأر ... يا إلهي ! إذن أنت « كيلفن » ؟
- نعم ولم تنظر إلي بهذا الشكل ؟ ما الغريب في الأمر ؟
- لاشيء . أجاب وأهداب عينيه ترتعش بسرعة .. لاشيء ... ثم مسح جبينه ... أعذرني يا « كيلفن » لقد حدث ذلك من وقع المفاجأة ، فأنا لم أتوقع ...
- ماذا تقصد بقولك لم أتوقع ؟ لقد أخبروكم بقدومي منذ عدة أشهر وقام « مودارد » بإبلاغكم اليوم على متن مركبة « بروميثوس » .
- نعم . نعم ... طبعاً . لكنك تلاحظ في أية فوضى نعيش نحن
- أرى ذلك — أجبته بحفاء — من الصعب أن لا يلاحظ المرء ذلك .
- ودار « سنوات » حولي متفحصاً بذتي ، بذتي العادية بخراطيمها وأكبالها الصدرية وسعل عدة مرات ثم مسح أنفه الدقيق :
- ربما تريد أن تستحم ؟ هذا سينعشك . يقع الحمام في الجهة المعاكسة ذو الباب السماوي .
- شكراً لك . إنني أعرف مخطط المحطة .
- هل أنت جائع ؟
- كلا أين « غياريان » ؟

واتجه نحو النافذة وكأنه لم يسمع سؤالني . وبدا من الخلف أكبر سناً . كان شعره شائباً محلوفاً ، وعنقه محروقاً بأشعة الشمس وقد حفرت عليه

تجاعيد عميقة شبيهة بالجروح . ومن خلف النافذة كانت سلسلة الأمواج الضخمة تعلو وتنحدر ببطء وكأن المحيط قد برد .

وتشكل لدي انطباع وأنا أنظر إلى المحيط من خلال النافذة أن المحطة تسير مواربة وكأنها تنزلق من دون سبب ظاهر . ثم عادت إلى مسارها الطبيعي . ثم انحنت ببطء وسارت إلى الجهة التالية . ربما كان ذلك مجرد خدعة بصرية . وتجمعت الرغوة المخاطية الملونة بلون الدم في الفجوات بين الأمواج . وشعرت بعد لحظة بالغثيان . وفجأة بدأ « سناوت » الحديث : — اسمع ، بما أتي الوحيد . — والتفت نحوي وفرك يديه بعصبية — عليك أن تتمتع بصحبي . مؤقتاً سنتسامر . أنت لاتعرفني إلا من خلال الصورة وهذا غير مهم . أنا « هوريك » هكذا يدعوني الجميع .

أخاف من أنك لن تجد شيئاً تفعله هنا . وسألته من جديد بعناد : — أين « غياريان » ؟

غمز بعينه

— آسف لأنني استقبلك بهذه الطريقة ... لايقع الأمر على عاتقي وحدي ... نسيت تماماً . لقد حدثت هنا أشياء كثيرة ، أتعلم ... — هذا يكفي ، كل شيء على مايرام ، دعك من هذا ، لكن ما الذي حدث مع « غياريان » ؟

أليس موجوداً في المحطة ؟ هل طار إلى مكان آخر ! — كلا — أجاب « سناوت » وهو ينظر إلى الزاوية المليئة بملفات الأسلاك — لم يطر « غياريان » إلى أي مكان ، ولن يطير ، لأنه ... — ماذا ؟ ما الذي تقوله ؟ أين هو ؟

ومن جديد شعرت بأذنيّ قد أمتلأتا بالقطن ولم أعد أسمع .

- أنت تعرف الآن . أجاب « سنوات » بلهجة مغايرة كلياً
- نظر « سنوات » إلى عيني ببرود وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي .
- من الجائز أن يكون « سنوات » ثملاً لكنه يدرك ما يقوله .
- لكن لم يحدث ؟
- بل حدث
- حادث مشؤوم ؟
- أجاب بحركة من رأسه إيجاباً وراقب رد فعلي على ذلك في نفس الوقت .
- متى ؟
- اليوم صباحاً .
- الشيء الغريب أنني اعتبرت الأمر عادياً ولم أنفعل لأن الحوار وتبادل الأسئلة والأجوبة المعقدة مع « سنوات » قد هدأني وربما طبيعته العملية من فعلت ذلك واعتقدت أنني بدأت أفهم سلوكية « سنوات » .
- كيف حدث ذلك ؟
- عليك أن ترتب أمورك أولاً وتتفقد أمتعتك ثم عد إلي لتحدث ... لنقل بعد ساعة ...
- ترددت لحظة
- حسناً
- انتظر
- خاطبني « سنوات » عندما توجهت نحو الباب ورمقني بنظرة خاصة
- كان يبدو وكأنه لا يستطيع أن ييوح بما في قلبه :
- كنا ثلاثة وبقدومك أصبحنا ثلاثة من جديد . هل تعرف سارتوريوس ؟
- أعرفه كما أعرفك ، أقصد من خلال الصورة فقط

— هو في الخبر ، لا أظنه سيخرج الآن من مخبره ... لن يخرج إلا في الليل ...
لكن أنت تعرفه على كل حال وتستطيع تمييزه عن أي شخص آخر تصادفه
في طريقك ... شخص آخر غير « سارتوريوس وغيري هل تفهم ...
عندئذ عليك أن
— ماذا تقول ؟

تخيلت أن كل ما يحدث مجرد حلم . جلس « سناوت » على الأريكة
مسدل الرأس يحدق في اللقافة ، وخلفه كانت أمواج المحيط السوداء الدموية
اللامعة ببريق الشمس تتلاطم بشدة .
— عليك أن لاتفعل شيئاً .
— من سأرى غيركما ؟ رؤية ؟

— أفهمك جيداً . تعتقد أنني فقدت عقلي . كلا أنا لم أجن بعد بيد أي
لا أستطيع أن أشرح لك الأمر بشكل آخر . إلى اللقاء ... على كل حال
ربما لن يحدث أي شيء . وتذكر كلماتي . لقد حذرتك .

— من أي شيء تحذرنني ؟ عن أي شيء تتحدث ؟
— هدىء من روعك — كانت كلماته تؤكد رأيه السابق بشكل واضح —
تصرف وكأنك ... كن جاهزاً لكل احتمال . طبعاً هذا أمر مستحيل . إنني
أدرك ذلك . فقط حاول . هذا هو المخرج الوحيد . شخصياً أنا لا أعرف
مخرجاً آخر .

— لكن قل ما الذي سأراه ؟! ربما صرخت بهذه الكلمات إذ تملكنتني رغبة
شديدة أن أمسك سناوت من كتفيه وأن أهزه كما يجب ليعود إلى رشده وكي
لا يجلس هكذا محديقاً في الزاوية بوجهه المحروق بأشعة الشمس . ويتألم لدى
خروج كل كلمة من صدره . وتماكنت أعصابي بصعوبة .

- لا أعرف ربما الأمر يتعلق بك وحدك .
- هلوسة ؟
- لا . واقع . لا ... لا تهجم عليه . تذكر ما أقوله .
- ما الذي تقوله ؟ كان صوتي غريباً عني .
- نحن لسنا على الأرض يا « كيلفن » .
- بوليتيريا (حيوانات) . هذا يعني أنهم لا يشبهون الناس !
- ولم أعرف السبيل لتخليصه من حالة العزلة هذه ، إذ كان ينظر إلى الفراغ وكأنه يستقرىء فيه في حالة من الهذيان . وقرأ في الدم المتجلد .
- لهذا السبب يبدو الأمر مرعباً — قال « سنوات » بصوت هادئ لذلك تذكر وكن يقظاً .
- ما الذي حصل مع غياريان ؟
- لم يجب على سؤالي .
- ما الذي يفعله سارتوريوس ؟
- عد بعد ساعة .
- استدرت وتوجهت نحو الباب . ألقيت نظرة أخرى على « سنوات » وأنا أخرج من الباب . كان جالساً منحنيّاً محيطاً وجهه يديه . وفي هذه اللحظة لاحظت أن أصابعه مغطاة بدم مختثر .

السولاريسيون

كان الدهليز فارغاً . وقفت قرب الأبواب لحظات أسترق فيها السمع .
لعل الجدران كانت رقيقة . إذ كان نواح الريح يتناهى إلى أذني مخترقاً تلك
الجدران وشاهدت ورقة على شكل مثلث ملصقة على الباب دون اعتناء كتب
عليها بخط أسود كلمة « إنسان » .

رغبت بالعودة إلى « سنوات » حالما قرأت هذه الكلمة الغامضة المخربشة
لكنني أدركت أن ذلك مستحيل .

كان تحذيره السخيف مازال يضج في أذني . عدت إلى الحجرة الدائرية
ذات الرقم خمسة بهدوء وحذر إذ كنت بدون وعي أحاول أن أختفي عن
عيون مراقب لامرئي . كانت لوحات ثلاثة معلقة على ثلاث أبواب هي
« الدكتور غيباريان » ، « الدكتور سنوات » ، « الدكتور سارتوريوس » ولم
تعلق على الباب الرابع أية لوحة .

ترددت كثيراً قبل أن أضغط على ذراع الباب إذ انتابني شعور مغمم
بالثقة أن هناك أحد ينتظرني في الغرفة .

ودخلت الغرفة . لم أجد أحداً . كانت النافذة المقعرة تطل على المحيط
اللامع مثل الشحم تحت الشمس وكأن زيتاً أحمر يسيل مع الأمواج .

وغمر اللمعان الأرجواني الغرفة الشبيهة بقمرة السفينة التي احتلت رفوف
مليفة بالكتب أحد جوانبها إضافة لسرير ثبت على عمود شاقولي . وفي الطرف

المقابل عدد كبير من الخزائن فصلت بينها صور الكوكب المعلقة على الجدران ضمن إطارات مطلية بالنيكل . وكانت الدوارق وأنايب الاختبار المسدودة بالقطن تغطي المساند . بينما تكدست صناديق المعدات المطلية بالمينا تحت النافذة على صفين وأمتلأت الزوايا بالصنابير وخزائن السحب والمكيفات. أما الميكرو سكوب فلم يجد لنفسه مكاناً على الطاولة الكبيرة قرب النافذة فتمدد على الأرض .

استدرت وشاهدت قرب الباب خزانة شاهقة تصل حتى السقف مفتوحة الأبواب علقت فيها بذات عمل وصداري مختلفة ، منها المقاومة ومنها العادي . وعلى الرفوف كانت الأغذية البيضاء . ولعت كرات المنيونية كمعدات الأوكسجين المنقولة بين ساقى الحزمة . وهناك جهازان معلقان مع أقنعتهما يتأرجحان على درابزون السرير المرفوع . كانت الفوضى المنتظمة تسيطر على المكان برمته .

استنشقت الهواء وشعرت برائحة خفيفة للتفاعلات الكيميائية . بحثت بشكل لا شعوري عن شبكة مكيف الهواء وأشارت لي الوريقات المستوية الملتصقة والمهتزة عليه بخفة إلى أن شفاطات الهواء تعمل بشكل طبيعي على تبديل الهواء داخل الحجرة . رفعت الكتب والأجهزة والمعدات المختلفة عن الأريكتين ووضعتها في زوايا الحجرة كيما اتفق وتكون شبه فراغ بين الأرائك والرفوف ثم سحبت المشجب لأعلق البدة عليه . أمسكت بمفتاح السحاب وغيرت رأي في نفس اللحظة لأنني لم أتجرأ على خلع البدة إذ اتباني شعور بفقدان الحصانة بمجرد خلعها . مرة أخرى تأملت معالم الغرفة . لم يكن للباب قفل ومع ذلك كان محكم الأغلاق ، وبعد قليل من التردد سندت الباب بأثقل صندوقين . وشعرت بنوع من الطمأنينة بعد أن صنعت هذا المتراس وتخلصت من أغلفتى المضرورة . فجأة قفزت متأهباً عندما لحت

بطرف عيني حركة غريبة في المرأة المعلقة على سطح الخزانة الداخلي والتي كانت تعكس حيزاً من معالم الحجرة . لكنني سرعان ما أدركت أنني لم أشاهد سوى ذاتي معكوساً في المرأة .

خلعت ثوب العمل الداخلي الذي فاحت منه رائحة العرق ودفعت الخزانة بيدي جانبا فلمعت خلفها جدران البانيو في حجرة الحمام المنمنمة . ووجدت تحت الدوش صندوقاً كبيراً أملساً استطعت نقله بصعوبة إلى الحجرة وانفتح غطاؤه حالما وضعته على الأرض وكأنه معلق على نابض . كان الصندوق مقسماً إلى أقسام عدة تحوي أشياء غريبة . أدوات مشوهة مصنوعة من معدن داكن شبيهة بتلك المتناثرة في الخزائن لا يمكن الاستفادة منها ، كانت ملتوية ذائبة لاشكل لها ، وكأنها أخرجت من حريق . والغريب أن هذا التشوه قد أصاب الأشياء الفخارية والمقابض التي لا يمكن أن تدوب فعلاً إذ يستحيل الحصول على درجة حرارة في أي مخبر من المخابر يمكنها أن تذيب هذه الأشياء إلا درجة حرارة الفرن الذري .

أخرجت من جيب البدة المقياس الصغير لكنه فقد فاعليته حالما قربته من هذه الشظايا خلعت آخر ماتبقى على جسدي وهو مايوه السباحة والقميص الداخلي المشبك ووقفت تحت الدوش اغتسل . شعرت بالراحة تحت الماء وانثنت تحت أوتار المياه الحارة وفركت جسدي . وضحكت . كنت أقوم بذلك بكثير من المبالغة وكأنني أفعل ذلك لأخلص نفسي من حالة الرعب وعدم الاطمئنان والشك المسيطر على المحطة .

وجدت في الخزانة بدة تمارين خفيفة يمكن ارتداؤها تحت البدة الفضائية . ووضعت في الجيب كل ملكيتي المتواضعة . وفجأة أحسست بشيء صلب بين أوراق دفتر الملاحظات وتملكتني الدهشة لما رأيت مفتاح منزلي الأرضي

بين الأوراق . لابد أن معجزة حصلت حتى وقع هذا المفتاح بين هذين الأوراق . أمسكته بيدي ولم أعرف ماذا أفعل به ثم وضعته على الطاولة وشعرت بالحاجة لامتلاك نوع من أنواع السلاح . كانت المطواة المتعددة الأغراض عديمة الفائدة ولم يكن لدي شيء آخر، لكنني لم أصل إلى ضرورة للبحث عن جهاز إطلاق الأشعة النووية أو عن سلاح من هذا القبيل . جلست على كرسي حديدي قابع في منتصف الفراغ بعيداً عن كافة الأشياء وشعرت بحاجة البقاء وحيداً . وبارتياح لاحظت أن لدي نصف ساعة من الوقت . ومالت الشمس نحو الغروب وكانت عقارب الساعة المقسم ميناؤها إلى أربع وعشرين جزءاً قد أشارت إلى الساعة السابعة وهي تعني الساعة العشرون حسب توقيت « بروميثيوس » وهذا يعني أن كوكب سولاريس قد أصبح صغيراً جداً على شاشات « مودارد » ولم يعد مميزاً عن النجوم . وما علاقتي « بروميثيوس » ؟ وأغمضت عيني وخيمت السكينة التامة التي لم يعكر صفوها سوى قطرات الماء المتساقطة من دوش الحمام على البلاط . إذن لقد مات « غيباريان » وإن كنت قد فهمت كلمات « سنوات » جيداً ، فهذا يعني أن موته حدث قبل بضع ساعات ولاغير .

ترى ما الذي فعلوه بجثته ؟ هل دفنوه ؟ والحق يقال إن هذا شيء مستحيل ولايمكن فعله على كوكب سولاريس . أصبحت أفكر به وكأن لمصيره أهمية خاصة بالنسبة لي . ونهضت لآتمشي في الحجرة بعدما أدركت سخافة ما أفكر فيه ، ورحت أضرب بأصابع قدمي الكتب المتناثرة بفوضوية في كل مكان. ثم رفعت عن الأرض زمزمية من الزجاج الأسود كانت خفيفة الوزن كأنها صنعت من الورق . نظرت من خلالها إلى زجاج النافذة وشاهدت آخر أضواء الغروب السوداء الملتبئة المغطاة بضباب وسخ . ترى

ما الذي يحدث لي ؟ لماذا أشغل نفسي بهذه الأمور السخيفة التافهة العديمة لفائدة ؟

وارتعش جسدي عندما اشتعل الضوء آلياً . ربما لاحظت عناصر التصوير اقتراب موعد حلول الظلام . وامتلاً رأسي بالأفكار والتوقعات والهواجس وارتفع توترتي الداخلي لدرجة بدأت اشعر بالضيق من المكان الفارغ خلفي . تميت الخلاص من ذلك .

قربت الأريكة من الرفوف وأخذت الجزء الثاني من البحث العلمي القديم الذي كنت أعرفه جيداً « تاريخ سولاريس » لمؤلفيه « هيو جيس » و « إيفل » . وضعت الكتاب ذي الغلاف السميك الصلب على ركبتني لأتصفححه .

لقد تم اكتشاف كوكب « سولاريس » قبل مئة عام من مولدي وهو يدور حول شمسين حمراء وزرقاء وخلال أربعين عاماً لم تقترب منه أية مركبة فضائية ، إذ لم يكن آنذاك أحد يشك في صحة نظرية غاسوف — شيبلي القائلة باستحالة وجود الحياة على كوكب ثنائي النجوم لأن مدارات هذه الكواكب تتبدل بشكل دائم لعدم استقرار قوى الجاذبية الناتجة عن الدوران حول شمسيتين ، وتقلص التغيرات الحاصلة في ميدان تجاذب مدار الكوكب أو تمدده وإن ولدت الحياة عليه فستدمر بلهب الحرارة التي ستحول كل شيء إلى رماد أو ستتجمد من البرودة الفضائية . وتجري هذه التبدلات بشكل منتظم كل عدة ملايين من السنين لخلق مادة الحياة إن لم نقل مليارات .

وحسب الحسابات الأولية كان على سولاريس أن يقترب خلال خمسمائة عام مسافة نصف وحدة قياس فلكية من شمسهِ الحمراء وبعد مليون سنة سيسقط في لجتها المتوهجة . تبين فيما بعد أن مداره لا يتعرض لمثل هذه

التبدلات وظهر كأنه مستقر شبيه بمدار مجموعتنا الشمسية .

وأكدت المراقبة المستمرة بدقة متناهية بعد إعادة عمليات الحساب تكراراً أن لسولاريس مدار دائم وانتقل بذلك فوراً من مجرد كوكب من تلك المئات التي يتم اكتشافها سنوياً والتي لا يكتبون عنها في مجلدات الاحصاء سوى بضعة أسطر يصفون فيها عناصر حركتها ، انتقل إلى حلبة جسد السماء الذي يستحق أقصى درجات الاهتمام .

بعد عشر سنوات من هذا الاكتشاف حلت حول كوكب سولاريس الرحلة العلمية الأولى التي قام بها « أوتنشلد » والذي قام خلالها بدراسة سولاريس من على متن مركبة « لاكون » تساعده مركبتان إضافيتان . كانت مهمة البعثة مهمة استكشافية أولية خاصة وأنها لا تستطيع الهبوط على سطح الكوكب .

وأطلق العلماء عدداً كبيراً من أقمار المراقبة الأتوماتيكية الاستوائية منها والقطبية بهدف قياس قوة الجاذبية . إضافة لذلك تمت دراسة المحيط الذي يشكل سطح الكوكب ماعدا عدد من الجبال الملساء المرتفعة فوق سطحه ، كانت مساحتها مجتمعة لاتزيد عن مساحة أوروبا ، مع أن قطر سولاريس يزيد بنسبة ٢٠ ٪ عن قطر الأرض وقد تركزت هذه المناطق الجافة الملساء الصخرية والمنتشرة كيفما اتفق في الجزء الجنوبي للكوكب . وتم تحديد عناصر الجو الخالي من الأوكسجين وأجريت قياسات متناهية في الدقة لسطح الكوكب والمجال الضوئي وبقية المؤشرات الفلكية ، وكما هو متوقع لم يكتشفوا أية بوادر تشير إلى وجود الحياة لافي المحيط ولافي تلك النقاط اليابسة البائسة . وأصبح سولاريس خلال الأعوام العشرة التالية محط اهتمام كافة المراقبين . هذا الاهتمام الذي استمر حتى الآن . لقد عرض الكوكب منعاً مدهشاً في

قدرته على الحفاظ على مداره اللامستقر الجاذبية بدون أدنى شك . وفاحت رائحة الفضيحة لأنهم حاولوا إلقاء تبعة هذه النتائج على المراقبة (من أجل خير وصالح العلوم) . كانوا تارة يلومون أناساً محددين وأخرى يلومون العقول الألكترونية المستخدمة .

وتأخرت عملية إرسال البعثة العلمية الاستكشافية الخاصة لدراسة كوكب سولاريس مدة ثلاثة أعوام أخرى لعدم وجود الامكانيات المادية ، حتى استطاع « شينون » المسؤول عن القيادة استلام ثلاث مركبات فضائية حمولية من طراز C من الفئة الكونية من معهد دراسة الكواكب . وكان المعهد قد أرسل قبل هبوط البعثة العلمية بعام ونصف تابعاؤاوتوماتيكياً إلى مدار سولاريس من طراز لونا ٢٤٧ . استمر التابع في عمله حتى هذا اليوم بعد أن أجريت له ثلاث عمليات اصلاح متتالية بفارق زمني قدره عشرات السنين بين الواحدة والأخرى . أكدت المعلومات التي جمعها التابع بشكل قاطع صحة ما توصلت إليه بعثة « أوتنشلد » القائلة بوجود حركة طبيعية فعالة في محيط الكوكب .

بقيت إحدى مراكب شينون الثلاث في المدار البعيد بينما هبطت المركبتان الأخريتان على المنطقة اليابسة الصخرية في القسم الجنوبي من الكوكب والتي تشغل مساحة تقدر بألف كيلو متر مربع .

أنهى عمل البعثة بنجاح بعد ثمانية عشر شهراً ماعدا وقوع حادثة مؤسفة حصلت بسبب انعدام امكانية اصلاح العطب الذي حصل في الأجهزة الأتوماتيكية . وانقسم العلماء إلى معسكرين متخاصمين . كان المحيط سبباً للنزاع . لقد اعترفوا به وفقاً لمعطيات التحليل على إنه عبارة عن كائن عضوي (لم يتجرأ أحد آنذاك على اعتباره كائناً حياً) فلقد نظر إليه

البيولوجيون ككائن بدائي شبيه بخلية واحدة سائلة مفككة مريعة (وقد دعوها بمرحلة ما قبل البيولوجيا) تحيط الكوكب كله بغلاف هلامي يصل عمقه في بعض الأمكنة لعدة كيلومترات . أما علماء الفيزياء فقد أكدوا أن الكوكب سولاريس ماهو إلا بناء متناه في دقة تنظيمه وأن تعقيدات بنائه تفوق تعقيدات الكائنات الأرضية لأنه يتواجد في حالة تأثير فعال على مداره . لم يكتشفوا أي سبب آخر يفسر استقرار سولاريس . إضافة لذلك قام الفيزيائيون المختصون بدراسة كوكب سولاريس بتحديد العلاقة بين العمليات المحددة التي تحدث في بلازما المحيط وبين الترددات المحلية لقوة الجاذبية المرتبطة بعملية « تبادل المادة » المحيطية .

وهكذا قدم الفيزيائيون وليس البيولوجيون صيغة متناقضة « الآلة البلازمية » قاصدين بذلك أنه من الجائز أن يكون المحيط مخلوقاً لكن دون روح غير أنه قادر على إجراء العمليات الموجهة حسب المقاييس الفلكية . جذب هذا النقاش الذي استمر بضعة أسابيع الى مداره كبار العلماء من أمثال غاموف — شيبلي . استمرت هذه النظرية ثمانين عاماً لم يستطع أحد خلالها دحض صحتها . وحاولوا الدفاع عنها بعض الوقت مؤكدين أن المحيط لا يملك أية خاصية من خواص الحياة وأنه لا يملك اعتباره مجرد تكوين في مرحلة البخار أو ما قبل البيولوجي ، بل هو مجرد حقبة جيولوجية غير اعتيادية بمواصفاتها ، تتميز بقدرتها على المحافظة على استقرار مدار سولاريس بواسطة تبادل قوى الثقل معتمدين في تفسير ذلك على قانون (لي شاتليه) .

ظهرت عدة فرضيات تعارض هذه الآراء المحافظة ، منها على سبيل المثال فرضية (تشيفيتار فيتي) وهي أكثر النظريات رصانة . ووفقاً لهذه النظرية اعتبر المحيط نتيجة تطور جذلي من حالته البدائية (أي ما قبل حالته المحيطية)

كسائل مؤلف من مواد كيميائية متفاعلة بشكل ضعيف استطاعت تحت تأثير الظروف الخارجية (أي التبدلات المدارية التي تهدد وجوده) أن تتجاوز درجات التطور التي حصلت على الأرض وبذلك اجتاز الكوكب مرحلة عملية تشكل كائن أو كائنات منفردة مجتازاً بذلك عملية ارتقاء النباتات والحيوانات وذلك بأن قفز قفزة تطور جريئة ليظهر في مرحلة محيط متجانس .

بكلمات أخرى لم يتكيف خلال مئات ملايين السنين مع الظروف المحيطية مثل الكائنات الأرضية التي أعطت بداية العنصر العقلاني بعد تطور دام ملايين السنين بل قفز الكوكب قفزة واحدة ليصبح إثرها سيد وسطه .

كانت والحق يقال فرضية رائعة أصلية مع أن أحداً لم يعلم بعد كيف استطاع هذا السائل الهلامي أن يحافظ على استقرار مدار الكوكب وأصبحت قوى تجاذبه معلومة — بمعنى أصبحت معلومة الأوضاع المكونة لمجالات القوى المغناطيسية الاصطناعية — ولم يعلم أحد بعد كيف استطاع هذا الهلام اللامتبلور الوصول إلى هذه النتيجة التي تم الحصول عليها بمساعدة التفاعلات النووية المعقدة والحرارة الهائلة . لقد امتلأت الصحف بمقالات مختلفة عن « اسرار سولاريس » الممتعة للقراء والمليئة بالألغاز بالنسبة للعلماء وكتبت إحدى الصحف تقول : إن محيط الكوكب ماهو إلا قريب بعيد للبشر الأرضية الكهربائية .

وعندما تم حل هذا اللغز نسبياً ظهرت على كوكب سولاريس ألغاز عديدة أشد غموضاً على العلماء كما هي العادة .

لقد برهنت الأبحاث أن المحيط لا يتفاعل حسب المبدأ المستخدم في قوى التجاذب لدينا (مع أن ذلك غير ممكن) . كان بشكل غير مباشر يحدد من عروض الفراغ الزمني وهذا ما أدى في كل مرة إلى انحراف مؤشر قياس

الزمن عن خط الزوال على الكوكب . بناءً عليه يمكن القول إن المحيط لم يكن يتصور لنفسه بل كان بقدرته (وهذا مالا يمكن قوله عن أنفسنا) أن يستخدم النتائج التي توصل إليها اينشتاين — بوفي .

هبت إحدى أضخم عواصف قرننا مع ظهور هذه الأبحاث. وتحولت أكبر النظريات المحترمة والمعترف بها في كل مكان والتي يصعب دحضها حتى الآن إلى غبار متناثر وظهرت في الآداب العلمية مقالات ساخرة تذكّر العقول وخاصة تلك المقالات المعنونة « بالخيوط العنقري » أو الهلام التجاذبي .

لقد حدث كل ذلك قبل ولادتي . عندما كنت أذهب إلى المدرسة كان سولاريس قد أعترف به بعد كل هذه الحقائق والوقائع المؤكدة ككوكب تدب فيه الحياة لا يعيش فيه إلا قاطن واحد . لقد بدأ الجزء الثاني من كتاب « هيجوس و إيفل » الذي تصفحته آلياً بعلم التصنيفات التي كانت أصيلة بقدر ما كانت مضحكة . وقدم جدول التصنيف بالتسلسل نماذج حيوانات من فئة وحيدات الخلية وفصيلة كثرات الخلايا وكأننا نعلم ، والله يعلم ، كم هو عدد نسخ هذا النوع في الوقت الذي كان نوع واحد منها يصل ثقله إلى سبعة عشر مليون طن كما هو في حقيقة الأمر .

خشخت الأوراق الملونة للرسوم البيانية والمخططات والتحليلات وبيانات القياسات الطيفية بين يدي . وبقدر ما كنت أتعلم في المجلد الرث بقدر ما كانت المعادلات الرياضية تلمع على صفحات الكتاب الممتعة . ومن الممكن الاعتقاد أن كافة المعلومات المجموعة عن فئة المتحولات المخفية بظلام الليل والواقعة الآن على بعد عدة أمتار تحت القمر الفولاذي للمحطة ،

منتهية .

أعدت المجلد الثقيل إلى مكانه على الرف وأخذت الذي يليه ، وكان المجلد مقسوماً إلى قسمين . الأول يستعرض بروتوكولات التجارب العديدة الهادفة

إلى إقامة الاتصال مع المحيط ، تلك التجارب التي أصبحت مبعثاً لتأليف النكات العديدة والسخرية اللاذعة وللفكاهة في سنوات دراستي . وبدأت تعاليم القرون الوسطى شفاقة تذخر بالحقيقة مقارنة بذلك الغموض الذي ولدته هذه المسألة .

لقد تمت أولى هذه المحاولات لإقامة الاتصال مع المحيط بمساعدة أجهزة الكترونية خاصة محولة للنبضات المرسلة إلى الجهتين مع الإشارة إلى أن المحيط قد ساهم مساهمة فعالة في تصميم هذه الأجهزة لكن في سرية تامة . وماذا يعني بكلمة ساهم ؟ فلقد قام بتعديل عناصر القواعد المنغمة فيه مما أدى إلى تغيير الضغط المسجل وقد سجلت الأجهزة عدداً كبيراً من الاشارات الشبيهة بمقاطع لحسابات ضخمة لايمكن تحليلها . لكن ما الذي يعنيه كل هذا ؟ أیتمثل أنها كانت معلومات عن لحظة هيجان في محيط سولاريس ؟ أو تعبيراً عن حقائق الأبدية مكتوبة بلغة الكترونية غير معلومة لنا ؟ أیتمثل أن تكون عملاً فنياً ؟ أیتمثل أنها كانت عبارة عن ترددات تشير إلى مكان ظهور تكوينه الضخم الذي يبعد آلاف الأميال عن البعثة ؟

كيف يمكن معرفة ذلك ما لم يحصل الباحث على اشارات واحدة على رد فعل واحد ؟ كانت الاشارات مختلفة لانشبه بعضها ، فمرة نشبه انفجار نبض يكاد يحطم الأجهزة ومرة أخرى صماء بكماء . كيف يستطيع الباحث معرفة مايدور إن لم يكن باستطاعته إعادة تجربة واحدة .

كنا نعتقد أننا لانبعد سوى خطوة واحدة لنصل إلى حل رموز الشيفرات التي كانت تتسع وتكبر لتشکل بحراً من التسجيلات وقد صممت عقول الكترونية خاصة قادرة على تفسير أية إشارة ومهما كانت مبهمة . ولم تعترض طريق هذه العقول أية مشكلة حتى هذا الوقت . فعلاً تمّ الحصول على

معلومات محددة فلقد بدأ المحيط-الذي كان حتى هذا الوقت مصدراً لترددات الكترونية للتجاذب المغناطيسي - يتحدث بلغة رياضية وكان من الممكن تصنيف شحناته الكهربائية بواسطة أدق المناهج التجريبية على الأرض . كما تم وفقاً لنظرية التعدد ، تحديد التراكيب المتوازنة المعروفة في ذلك القسم من الفيزياء المختص في تفسير العلاقة المتبادلة بين المادة والطاقة ، بين الحجم المحددة واللامحددة بين الجزء والكل . كل هذا جر العلماء للوصول إلى محصلة مفادها أنهم يقفون أمام أعجوبة مفكرة . أمام شيء ضخم مفكر يغطي كوكباً هو عبارة عن محيط من البلازما الأولية الدماغية التي تقضي كامل وقتها في إجراء البحوث النظرية الهائلة بمقاييسها للوصول إلى جوهر الوجود . أما ما كانت تتصيد أجهزةنا فهو ليس إلا مقاطع مختلفة سجلتها لنا صدفة لذلك المونولوج الهائل والدائم ، الأبدى والمتناهي في أعماق المحيط والذي يفوق حدود خيالنا . واعتبر بعضهم هذه الفرضية بمثابة ازدياء للمؤهلات البشرية ، وكركوع أمام شيء لاندركه حتى الآن وما الذي يمكن أن ندركه ؟ واعتبروها أيضاً بمثابة بعث للمبدأ القديم القائل *ignoramus et ignorahimus* * ورأى بعضهم فيها مجرد خرعبلات سيئة عديمة الفائدة ، حيث تأخذ ميثولوجيا عصرنا حيزاً في فرضيات الرياضيين وترى في هذا الدماغ الهائل الهدف الأعلى للوجود ، أي نتيجة الكينونة ، بغض النظر إن كان الكترونيا أو من البلازما .

أما الطرف الثالث لكن الباحثون والنظريات بكثرت مثل الفياق . كانت هناك مسائل أخرى إضافة لمسألة إقامة « الاتصال » وكانت هناك معاهد مخصصة لدراسة سولاريس . وقد تطورت في هذه المعاهد الاختصاصات الضيقة وذهبت بعيداً ، خاصة في الربع الأخير من قرننا حتى

* عن لانعرف ولن نعرف

بات متعذراً على السيبرنيتيك — السولاريسي أن يفهم التماثل —
السولاريسي .

وقد تساءل فيبك الذي كان يترأس المعهد في سنوات دراستي ساخراً :
« كيف تأملون في فهم المحيط إن كنتم غير قادرين على فهم بعضكم » .
وكانت هذه السخرية مليئة بالحقيقة . لم يعتبر المحيط من فئة المتحولات
صدفة ، إذ كان سطحه يعطي مقدمات مختلفة لأشكال لامثيل لها على الأرض
وبقي هدف هذه الانفجارات العاصفة « لابداع البلازما » لغزاً محيراً بغض
النظر إن كان يهدف إلى التكيف أم إلى الادراك أم لشيء آخر .

وفكرت بعدما أعدت المجلد الثقيل إلى مكانه بأن كافة معلوماتنا عن
سولاريس والتي تملأ رفوف المكتبات ماهي إلا كومة من الورق لاتحمل أية
فائدة وهي مقبرة للوقائع وأنا ما زلنا نراوح في مكاننا الذي بدأنا منه بتكويم
هذه المعلومات منذ ثمانية وسبعون عاماً مضت . والأدق أن الوضع أكثر سوءاً
لأنه تبين أن جهودنا التي بذلناها خلال هذه السنوات ذهبت هدراً . ربما
كان كل مانعرفه متعلقاً بالجانب السلبي للمحيط فهو لم يستخدم الميكانيك
ولم يصفه مع أنه يبدو قادراً على فعل ذلك في بعض الحالات المحددة . فلقد
بدل بعض أجزاء الأجهزة المغروسة فيه بيد أنه لم يفعل ذلك إلا في العام
الأول والثاني من بدء عمليات البحث . وبعد ذلك تجاهل كل محاولتنا التي
واظبنا على تكرارها بعناد ، فعل ذلك وكأنه فقد متعة تأمل أجهزتنا
ومعداتنا . (وبناء عليه فقد متعته نحونا أيضاً) .

ولم يكن للمحيط جملة عصبية أو خلايا أو أي تركيب يملأ زلاله وذلك
حسب معلوماتنا الأولية التي كنت أتابع استعراضها . ولم يكن يستجيب
دائماً للاتارة حتى الضخمة منها فلقد تجاهل كلياً الكارثة التي حلت بالمركة

المساعدة للبعثة العلمية الثانية ، فقد سقط غيزيو من ارتفاع ثلاثمائة كيلومتر وهوى على سطح الكوكب مدمراً بانفجار محركاته النووية البلازما في دائرة نصف قطرها كيلومترين .

بدأت الدوائر العلمية تنظر إلى أي عملية من « عمليات سولاريس » كريدف «عملية خاسرة» وخاصة أوساط إدارة المعهد الذي ارتفعت فيه أصوات كثيرة تطالب بوقف المعونات المالية للأبحاث المتعلقة بسولاريس . ومع ذلك لم يتجرأ أحد وحتى هذا الوقت أن يطالب بتدمير المحطة تدميراً كاملاً لأن ذلك يعني اعترافاً واضحاً بالهزيمة ومع ذلك صرح بعضهم أثناء المناقشات الخاصة من أنهم يحتاجون صيغة « محترمة » تحفظ لهم ماء الوجه للابتعاد عن « اختلاسات سولاريس » وتحول هذا « الاختلاس » تدريجياً إلى شيء يشبه حجر التجريب لإثبات القيمة الفردية لكثير من العلماء وخاصة الشبان منهم الذين قالوا « إن الحديث يدور حول النفقات أكثر مما يدور حول دراسة حضارة سولاريس وبالتالي يدور حول أنفسنا وحول الامكانيات المحدودة للجنس البشري » .

وفي وقت من الأوقات ساد رأي ساعدت على نشره الصحف بشكل كبير يقول :

إن المحيط المنكر الذي يغمر كوكب سولاريس ماهو إلا دماغ ضخم سبق حضارتنا البشرية بملايين السنين وهو الآن بمثابة حكيم و « يوغني فضائي » تتجسد فيه كل معرفة ، وهو الذي أدرك منذ زمن بعيد عدم فائدة أي نشاط يقوم به ولهذا تراه يرفض رفضاً قاطعاً إقامة أية صلات معنا .

كان ذلك دجلاً كبيراً إذ كان الكوكب يتفاعل وبشكل مذهل لكن تفاعله لم يكن يتناسب وتصورات البشر فهو لم يبن مدناً أو جسوراً أو آلات

طائرة ولم يحاول الانتصار على الفراغ أو تجاوزه — (لقد رأى أنصار نظرية تفوق الإنسان في ذلك ورقة راجحة لهم) — لكنه كان يمارس آلافاً من عمليات إعادة التكوين — « التحولات الآلية للكائنات » ، هذا بينما علمائنا يملؤون صفحاتهم بمصطلحات عن سولاريس .

من جهة أخرى رأى بعض العلماء الذين استطلعوا بروية كافة امكانيات سولاريس أن مايقف أمامهم ماهو إلا حطام لتصاميم ذهبية ربما كانت عبقرية ملتحمة بدون أي نظام مع نتائج قريبة من جنون الانحلال. ونبعت فكرة جديدة من هذا الرأي هي « المحيط الهزيل » وهي النقيض لفكرة « المحيط — اليوغي » .

وقد أخرجت هذه الفرضيات من تابوت الفلسفة إحدى أقدم مسألتها وأحيتها من جديد ، إنها مسألة العلاقة بين المادة والروح والوعي . وكانت مسألة إعادة المحيط للوعي تتطلب جرأة خاصة ، وهذا ما فعله « ديوهارت » . وسرعان ما اعترف بهذه المسألة ميتافيزيقيا وترسبت على قاع كافة المناقشات والجدالات .

هل يمكن أن يكون تفكيراً دون وعي ؟ هل يمكننا تسمية ما يحدث من عمليات في المحيط أفكاراً . هل يمكننا اعتبار الجبل حجرة ضخمة جداً والكوكب جبلاً كبيراً ؟ يمكننا استخدام هذه التسميات بيد أن هذا الحجم الجديد يدفع إلى خشبة المسرح بتشريعات عامة جديدة وظواهر جديدة .

لقد أصبحت مسألة سولاريس بمثابة الدائرة المربعة لعصرنا . وحاول كل مفكر مستقل أن يضيف جوهره إلى رصيد سولاريس وتعددت النظريات القائلة بأن مايقف أمامنا ماهو إلا نتاج لإحباط وتقهر بعد مرحلة « الصفاء الذهني » لسولاريس وما المحيط إلا تكوين جديد لجملة عصبية ولدت على

أجساد السكان الأوائل للكوكب بعد أن دمرتهم والتهمتهم وصهرت بقاياهم في تركيب جديد حي أبدي . يجدد شبابه بطريقة مافوق الخلايا العفوية .

وتحت ضوء مصباح أبيض شبيه بضوء أرضي رفعت عن المنضدة الكتب والأجهزة و بسطت خارطة سولاريس على سطحها البلاستيكي . كانت الخارطة تشير إلى أمكنة ضحلة وأخرى عميقة المنحدرات . أما جزره فكانت مغطاة بطبقة من الصخور العارية تشهد أنها كانت قاع المحيط فيما سبق . وربما نسق المحيط بدراية عملية ظهور واختفاء التكوينات الصخرية المنفرسة فيه . ومن جديد ضباب تام . ونظرت إلى اصناف الدوائر الكبيرة الملونة بألوان بنفسجية وزرقاء مختلفة الظلال على الخارطة ، وشعرت برعشة مدهشة لا أعرف كم تكررت معي منذ أن شعرت بها أول مرة عندما كنت ولداً في المدرسة وسمعت عن كوكب سولاريس .

لا أعرف لماذا فقدت كافة الأشياء الأخرى أهميتها بالنسبة لي — لغز موت « غيباريان » والمستقبل اللامنطور — منذ أن انكبت على قراءة هذه الخارطة المذهلة . وكانت بعض مناطق الكوكب الحي تحمل أسماء علماء درسوها .

فجأة شعرت بنظرة تتفرسني وأنا أنظر إلى بحر « تيكسال » الذي يغمر الأرخبيل الاستوائي . وغابت تلك النظرة وأنا ما أزال منكباً على الخارطة مشلولاً من الرعب ونظرت إلى الباب الذي دعمت إغلاقه بالصناديق الثقيلة . وفكرت أن ما حدث مجرد شخص آلي مع أنني أعرف جيداً أنه لا يوجد أي شخص آلي داخل الغرفة ولا يمكن أن يدخل شيء دون أن ألاحظه .

شعرت بالحرارة في جلد عنقي وظهري وكان إحساسي بثقل النظرة الثابتة شيء لا يطاق . ودون أن أحسب حساب أي شيء وضعت رأسي بين كتفي واستندت بقوة على المنضدة التي بدأت تزحف ببطء على أرض الحجر

أعادتنى هذه الحركة إلى رشدي والتفت إلى الوراء بحدة ولم أجد أحداً خلفي وكانت النافذة الضخمة النصف دائرية مغمورة بالسواد ولم يغادرني هذا الاحساس الغريب والعتمة العمياء الهائلة اللامتناهية تنظر إلي . لم يكن يتسرب ضوء أي نجم من النجوم . وأغلقت الستائر .

لم يمض على وصولي إلى المحطة ساعة حتى بدأت أفهم لماذا يعاني قاطنوا هذه المحطة من هوس المطاردة وربطت ذلك غريزياً بموت « غيباريان » . كنت أعرفه جيداً وكنت واثقاً حتى هذا اليوم أن لا شيء يستطيع تعكير صفاء ذهنه أما الآن فقد زالت تلك الثقة .

وقفت في منتصف الغرفة قرب الطاولة . هدأت أنفاسي وشعرت بالعرق يتصبب من جبيني ... ما الذي كنت أفكر به منذ لحظة ؟ آه ، نعم كنت أفكر بالأشخاص الآلين . الغريب أن أحداً منهم لم يلفاني في البهو أو في الغرفة . أين اختفوا ؟ الوحيد الذي التقيت به ومن بعيد كان من نظام مدرجات الصواريخ . أين البقية ؟

نظرت إلى ساعتني . حان وقت ذهابي إلى « سنوات » . كان الدهليز مضاء بإضاءة خفيفة . مررت قرب بابين ووقفت قرب الثالث الذي علقت عليه لوحة باسم الدكتور « غيباريان » ودون أن أفكر بالدخول ، ضغطت على الذراع الذي ارتفع في الحال وانفتح الباب . وغاب الظلام الذي ظهر في الشق الذي تكون من انفتاح الباب بلمعان ضوء شديد داخل الغرفة . أصبحت مضاءاً بحيث يستطيع أن يراي أي شخص في البهو . لذلك اندفعت إلى داخل الغرفة بسرعة وهدوء وقوة وأغلقت الباب خلفي والتفت إلى الوراء في نفس اللحظة .

وقفت مستنداً إلى الباب أنظر إلى معالم غرفة « غيباريان » وكانت ستارة

أرضية عليها رسوم أزهار صغيرة زهرية اللون لاعلاقة لها بأي شيء مما يحيط بهذه المركبة تغطي ثلاثة أرباع النافذة البانورامية . وكانت رفوف المكتبات والخزائن المطلية بالبيضا الفضي الأخضر تغطي كامل الجدران ، أما محتويات هذه الخزائن والرفوف فكانت مكدسة على الأرض بين الأرائك بدون أي ترتيب . ووقفتُ أمام طاولتين صغيرتين تعترضان الطريق ، تكدست عليهما المجلات التي سقطت من الاضبارات الممزقة . وكانت الكتب الممزقة مشبعة بسوائل الدوارق والقوارير الشخينة الزجاج والمخبطة ، ولم أفهم كيف تحطمت هذه الدوارق حتى لو سقطت من ارتفاع شاهق . وتحت النافذة طاولة منقلبة مع مصباح محطم لم يبق منه إلا حامله المرن . وبالقرب ربيزة نشبت قوائمها حتى النصف في دروج الطاولة المنقلبة . والأرض مغطاة بطبقة سميكة من الخرائط والأوراق المكتوبة وأوراق أخرى مختلفة . ولاحظت خط « غياريان » على الأوراق المكتوبة . انحنيت لآخذ بعض الأوراق وهنا لاحظت أن ليدي ظلين ، التففتُ كانت الستارة الزهرية ملتبة كأنها اشتعلت من الأعلى ورقة النار الزرقاء تتسع بشدة . سحبت الستارة وصدمني لهيب الحريق الهائل الذي يحتل ثلث الأفق ، وظلال الأمواج الطويلة اللزجة تزحف بعناد نحو المحطة ، هذا هو الفجر .

كانت المحطة تقع في منطقة لا يستمر فيها الليل إلا ساعة لتشرق شمس الكوكب الثانية الزرقاء . وأطففت أنوار المصابيح آلياً . عدت لأبحث في الأوراق ووقعت عيناى وأنا أبحث فيها على موجز خطة التجربة التي كان يجب أن تتم قبل ثلاثة أسابيع .

لقد عزم « غياريان » وفق هذه الخطة أن يعرض بلازما المحيط لحزمة شديدة الفعالية من أشعة رونتجن . قرأت كل شيء وعرفت أن مهمة تنفيذ

التجربة تقع على عاتق « سارتوريوس » . وهكذا أصبحت لدى نسخة عن هذه التجربة .

صار الضوء المنعكس في الأواق البيضاء يعمي بصري . لم يكن هذا اليوم كسابقه ، إذ كانت العتمة الزهرية الوسخة تغمر المحيط الأسود الدامي موحدة في ذاتها السحب والأمواج تحت قبة السماء البرتقالية للشمس الباردة ككل متكامل . أما الآن فاختلّف الأمر كلياً لقد ألهب الشروق الستارة الزهرية وأصبحت مثل فتيل قوي لمصباح من الكوارتز . وبدت يداي تحت ضوءه رماديتين . وتغيرت ملامح الغرفة بالكامل . وأصبح كل ما كان أحمر اللون فضياً باهت اللون ، أما الأشياء البيضاء والصفراء والخضراء فعلى العكس ظهرت ألوانها وكأنها تضيء نفسها بنورها الخاص .

أغمضت عيني وتوجهت نحو الحمام متلمساً دربي . وهناك لبست النظارة السوداء وصار بإمكانني متابعة القراءة . كانت الأوراق تتضمن بروتوكولات التجارب التي أجريت وعرفت أنه تم تعريض المحيط للأشعة في منطقة تبعد ألفي كيلومتر إلى الشمال الشرقي من موقع المحطة الحالي . ومن المعلوم أن اتفاقية الأمم المتحدة تحرم استخدام أشعة رونتجن لفعاليتها الخطرة .

وكنّت متأكداً أن أحداً من العاملين في المحطة لم يطلب الأذن من الأرض للقيام بمثل هذه التجارب .

صار الجو حاراً وأصبحت الغرفة المتوردة بالأبيض والأزرق لاطيعية . سمعت صريراً حاداً . زحفت أبواب محكمة الأغلاق وغطت النافذة . حل الظلام . وأنبرت الأضواء الكهربائية فبدت باهتة . لكن الحرارة استمرت شديدة الوقع كما في السابق . بل لعلها ارتفعت مع أن برادات المحطة كانت

تعمل بكامل قوتها حسب أزيز المكيفات .

فجأة سمعت وقع خطوات . كان أحد مايسير في الدهليز . وبقفزتين^١ أصبحت قرب الباب . تباطأت الخطوات ثم توقف من كان يتمشى قرب الباب . مال ذراع الباب بهدوء . أمسكت به غريزياً ومنعته من الانفتاح . لم يرتفع الضغط عنه . ولم يزد . لعل القادم أراد الدخول بدون إحداث أية ضجة كما فعلت منذ قليل . بقينا ممسكين بالذراع ، لكل من جانبه لفترة من الزمن ، بعد ذلك شعرت أنه رفع يده وسمعت حفيفاً ناعماً . لقد ذهب . بقيت واقفاً أصغى إلى خطواته حتى حلت السكينة من جديد .

— الزوار —

طويت مخطوطة « غيباريان » أربعة طيات ووضعتها في جيبي . اقتربت بحذر من الخزانة ونظرت إلى داخلها . كانت الثياب مجمعة متلاصقة في زاوية واحدة كأن أحداً يختبئ خلفها . ولحت بين كومة الأوراق المبعثرة زاوية ظرف بريدي ، حملته ، كان الظرف معنوناً لي . أحسست بجفاف في حلقي وبصعوبة كبيرة أجبرت نفسي على تمزيق الغلاف وأخرجت منه ورقة صغيرة وكتب « غيباريان » بخطه الناعم الواضح :

بقضية F ، و « السفر الصغير » لرافينسر . انتهى .
 كذلك VOT. SepaRT * ميسنجر المتعلق ANN, SOLAR. VOL. 1 ANEX

لم يكتب كلمة أخرى . كانت الورقة مكتوبة بسرعة . هل هذه معلومة ذات أهمية خاصة ؟ متى كتبها ؟ كان علي التوجه إلى المكتبة بأقصى سرعة .

كنت كذلك أعرف أن هناك ملحقاً خاصاً تابعاً للمجلد السنوي الأول المختص بسولاريس ، بالأحرى سمعت بهذا الملحق لكنني لم أراه . وبالنسبة لي كان الأمر لا يتعدى سوى المتعة ذات الطابع التاريخي . بيد أنني لم أسمع من قبل ابداً برافينسر ولم أسمع « بسفره الصغير » .
 ما العمل ؟

لقد تأخرت ربع ساعة . ألقيت نظرة على الغرفة بعدما اقتربت من

* المجلد السنوي الأول لسولاريس . وكذلك الملحق .

الباب . و لاحظت الآن السرير المطوي والمعلق على الجدار الذي كانت تخفيه عن الأعين خارطة سولاريس .

ولاحظت أيضاً شيئاً معلقاً على قسم الجدار الذي يخفيه السرير . كان ذلك مسجلاً في غلافه الجلدي . أخرجت الجهاز وأعدت غلافه إلى مكانه ونظرت إلى رقم المسجل وعرفت أن شريطه قد استخدم حتى نهايته ، ووضعته في جيبى .

وقفت دقيقة أخرى قرب الباب مغمضاً عيني مصغياً إلى السكينة . لم أسمع صوتاً . فتحت الباب بهدوء . وتراءى لي الدهليز أسوداً لامتناهياً .

رفعت عن عيني النظارة السوداء وشاهدت الإنارة الضعيفة لمصابيح السقف . أغلقت الباب خلفي وتوجهت ناحية اليسار إلى محطة الإرسال .

كنت قد اقتربت من الحجرة الدائرية التي توزعت منها الهوائيات في كافة الاتجاهات وكنت اجتاز ممراً ضيقاً تصورت أنه يؤدي إلى الحمام ، عندما شاهدت شخصاً مختلطاً لونه بلون عتمة الأنوار الخافتة .

تسمرت في مكاني . كانت زنجية ضخمة قادمة من عمق الدهليز تترنح في مشيتها مثل بطة . لحت بريق بياض عينيها وسمعت في نفس الوقت حفيف أقدامها العارية . لم يكن على جسدها شيء سوى تنورة صفراء براقه كأنها صنعت من القش . مرت من أمامي وعلى بعد متر واحد دون أن تُعيرني أدنى اهتمام وهي تهز بردفها الضخمين شبيهة بتمثال هائل من العصر الحجري الذي نستطيع مشاهدة أمثاله في المتاحف الانثروبولوجية . توقفت الزنجية في نهاية الدهليز من حيث يبدأ الانعطاف وفتحت باب غرفة « غياريان » . للحظة ظهرت ملاحظتها جيداً بفعل النور الذي سقط عليها من داخل الغرفة . ثم دخلت و أغلقت الباب خلفها . بقيت وحيداً في الممر . شبكت أصابع يدي

الجنى باليسرى وشددتهما حتى سمعت صوت طقطقة العظام . ثم تطلعت حولي دون هدف . ما الذي حدث ؟ من كانت ؟ فجأة وكأن أحد لطمني ، تذكرت تحذير سناوت . مامعنى كل ذلك ؟ من تكون أفروديت السوداء هذه ؟ من أين جاءت ؟

تقدمت خطوة نحو غرفة « غيباريان » وتوقفت . كنت أعرف جيداً أنني لن أتجراً على دخولها . وعتت السكينة ولم أعد أسمع سوى أزيز المكيفات الهوائية . صفعت نخدي بيدي وتوجهت إلى محطة الارسال بخطى هادئة وسمعت صوتاً حاداً يخاطبني حالماً أمسكت بذراع الباب .

— من هناك ؟

— هذا أنا « كيلفن » .

كان « سناوت » جالساً بين كومة من علب الألمنيوم وراء لوحة تحكم جهاز الارسال يأكل لحماً معلباً . لم أدر لماذا اختار محطة الارسال مكاناً لإقامته . وقفت قرب الباب أراقب بيلادة حركة فكية وهما يمضغان الطعام وشعرت بجوع شديد في نفس اللحظة . اقتربت من الرف وأخذت أنظف صحناً من بين رزمة الصحون وجلست في مواجهة « سناوت » . جلسنا نأكل صامتين بعض الوقت . ثم نهض سناوت وأخرج من خزانة الحائط براداً (ترموس) وصب مرققة حارة في كوبين ثم وضع البراد على الأرض لأنه لم يجد مكاناً له على الطاولة وسألني :

— هل التقيت بسارتوريوس ؟

— في الأعلى .

كان المخبر يقع في الطابق العلوي . تابعنا طعامنا بصمت لايحركه سوى احتكاك الشوك بمعدن المعلبات . كان الظلام مخيماً في محطة الارسال والنافذة

محكمة الأغلاق من الداخل ، وعلى السقف أربعة مصابيح دائرية مشتعلة تنعكس أشكالها مندمجة في غلاف جهاز الارسال البلاستيكي .

وقطع سناتو-الذي كان يرتدي كنزة سوداء واسعة مهترئة وجلد صدغيه المسحوب مليء بالعروف الحمراء - هذا الصمت وسألني :

— هل جرى معك أي شيء ؟

— كلا ما الذي يمكن أن يقع لي ؟

— إنك مبتل تماماً .

مسحت جبيني بيدي وشعرت بالعرق يتصبب مني من جراء الانفعال الداخلي . تأملني « سناتو » متفحصاً . وتساءلت في نفسي هل أحدثه ؟ اردت أن يثق بي أكثر. ترى من كان منا يلعب ، وأية لعبة ؟

— ما هذا الحر ؟ انخيلت أن المكيفات تعمل عندكم بشكل أفضل .

— قريباً سيعود كل شيء إلى حالته الطبيعية . لكن هل أنت واثق أن هذا من جراء الحر فقط . ووجه نظراته إليّ .

تظاهرت أنني لم ألاحظ إشارته إلى العرق المتصبب مني . ثم سألني بعدما انتهينا من تناول طعامنا :

— ما الذي ستفعله ؟ ثم نهض ووضع الشوك والعلب الفارغة في السلة وعاد إلى أريكته .

— سأنضم إليكما . أليس لديكما خطة عمل لأبحاثكما ؟ أي عمل مثير ... أشعة رونتجن أو أي شيء آخر من هذا القبيل ؟

— رونتجن ؟ — رفع حاجبيه مندهشاً — أين سمعت عن ذلك ؟

— لا أذكر ... ربما ذكر لي ذلك أحدهم على متن « بروميثوس » ومافي الأمر ؟ ألا تستخدمونه ؟

— أنا لا أعرف التفاصيل ، كانت تلك فكرة « غيباريان » ... وقد بدأ مع

« سارتوريوس » ... لكن قل من أين لك أن تعلم بذلك ؟
 رفعت أطراف مناكبي ، وقلت له :
 — ألا تعرف التفاصيل ؟ كان عليك أن تشترك فيها ، فهي جزء من
 وسكت قبل أن أوضح فكري .
 هدأ أزيز المكيفات بعد أن أشارت عقاربها إلى درجة الحرارة المعتدلة .
 نهض « سناوت » واقترب من لوحة التحكم وبدأ ينقر بأصابعه على المفاتيح
 الكهربائية
 كان ذلك مجرد عبث ، إذ كان المفتاح الرئيسي يشير إلى الصفر . انتظر
 قليلاً ثم قال دون أن يلتفت نحوي :
 — من الضروري تنفيذ كافة الشكليات فيما يتعلق بـ بهذا ...
 — نعم ؟
 استدار نحوي ونظر بحقق . لا أستطيع القول إنني تقصدت إثارته
 لإخراجه عن طوره أو ليهتل توازنه . غير أنني فضلت أن أكون معه حذراً
 في هذه اللعبة التي لم أفهم منها شيئاً .
 تحركت تفاحة ادم فوق ياقة كنزته السوداء .
 — هل كنت عند « غياريان » ؟ تفوه سناوت بغتة . لم يكن ذلك سؤالاً .
 رفعت حاجبي وتطلعت إلى وجهه بهدوء وكرر « سناوت » :
 — هل كنت في غرفته ؟
 أشرت بحركة من رأسي وكأنني أقول له : « لنفترض ، وماذا في
 ذلك ؟ » .
 لأدعه يتكلم أكثر .
 — من كان هناك غيرك ؟

- إذن هو يعرف عن تلك الزنجية !!! وأجبتة :
- لا أحد ومن يمكنه أن يكون هناك ؟
- إذن لماذا لم تسمح لي بالدخول ؟
- وضحكت .
- ارتبعت . لقد حذرتني بنفسك . لذلك أمسكت بالذراع غريزياً عندما تحرك . لماذا لم تخبرني عن نفسك ؟ أما كنت سمحت لك بالدخول .
- أعتقدت أن سارتوريوس ... كانت لهجة حديثة تدل على عدم الثقة .
- وماذا يعني ؟ وأجاب على سؤالي بسؤال :
- ما رأيك بهذا ... بالذي حدث ؟

- ترددت قليلاً في الإجابة عليه :
- عليك أن تعرف أكثر مني . أين هو ؟
- في البراد — أجاب « سنوات » في نفس اللحظة .— نقلناه فوراً ... صباحاً ... حرارة .
- أين وجدته ؟ في الخزانة ؟ ميتاً ؟

- كان ما يزال قلبه ينبض . لكن لم يعد يتنفس . كان يحتضر .
- هل حاولت انقاذه ؟
- كلا .
- لماذا ؟

- تباطأ « سنوات » في إجابته :
- لم أفلح . مات قبل أن أمدده .
- هل كان واقفاً داخل الخزانة ؟ بين الشباب ؟
- نعم .

اقترب « سنوات » من التريزة ورفع عنها ورقة كانت ملقبة عليها ووضعها أمامي قائلاً :

— لقد سجلت تقريراً أولياً . حسن انك اطلعت على غرفته . لقد سجلت هنا سبب الموت . لقد أخذ حقنة بمقدار جرعة قاتلة من البيرونستول . اطلعت بسرعة على النص المكتوب .

— انتحار رددت ذلك بصوت هادىء — وماهو السبب ؟
— ربما كان بسبب اختبال أصابه ... أو انقباض في النفس ! أو لا أعرف ما يدعونه إنك أعلم مني بذلك .

أجبهته ونظراتي معلقة به :
— أنا لا أعرف إلا ما أراه بنفسي . وسألني بصوت هادىء :
— ماذا تريد أن تقول ؟

— لقد حقن « غياريان » نفسه بمصل من البيرونستول وأختبأ داخل الخزانة أليس كذلك ؟ إن كان ذلك حقيقة فهذا لا يدل على انقباض نفسي أو اختبال ، بل هو جنون نفسي حاد إنها — البارانويا — * . ربما تراءت له أشياء غريبة ... كنت أتحدث ببطء وأنا أنظر إلى عينيه .

ابتعد « سنوات » عني إلى لوحة جهاز الإرسال وعاد لينقر على المفاتيح وقلت له بعد فترة من الصمت :

— هذا توقيعك ، أين توقيع سارتوريوس ؟
— قلت لك أن سارتوريوس في الخبر . وهو لا يخرج منه . أعتقد ...
— ماذا ؟
— لقد أغلق الباب على نفسه .

* PARANOIA احتلال عقلي .

- أحبس نفسه ؟! آه ، حبس نفسه ! هكذا إذن ! وربما نحترس
— ممكن .
- هل هناك أحد غيرنا في المحطة يا « سناوت » ؟
- وهل شاهدت أحداً ؟
- نظراً إلّايّ وكان منحنيّاً قليلاً .
- كنت قد حذرتني ، مما ؟ هل هي هلوسة ؟
- ما الذي رأيته ؟
- قل لي . هل كان ذلك إنسان ؟
- سكت « سناوت » والتفت نحو الجدار كأنه لا يرغب أن أرى وجهه
بأصابعه على الحاجز المعدني . نظرت إلى يديه ولم ألاحظ فيهما آآ
تجري . بغتة جاءني الوعي وخاطبته بهدوء يقارب الهمس وكأني
له عن سر كبير أخاف أن يسترق أحد ما كلامنا :
- هل تلك السيدة واقعاً ، نعم ؟ هل يمكن ملاستها وجرحها
اليوم آخر مرة .
- من أين لك أن تعرف ؟
- لم يلتفت . كان واقفاً قرب الجدار يلامسه ب صدره .
- قبل وصولي . قبل وصولي بفترة وجيزة .
- أنكمش « سناوت » كأنه يتقي ضربة ولمعت عيناه ببريق جنوني
أنت ! قل لي من تكون أنت ؟
- تحيلت أنه سينقض علي الآن . لم أتوقع ذلك . لقد سارت الأم
ما أردته لم يعد يثق بأنني ذلك الانسان الذي قدم من الأرض .
يعنيه ذلك ؟
- وظل « سناوت » يتفرسني مرتعداً . ما هذا ؟ أجنون ؟ تسـ

شيء ممكن ، لكنني رأيتها . رأيت تلك المربعة ... ومن الممكن أن أكون قد أنا ... أيضاً ؟ وسألته :

— من تكون ؟

هدأه سؤالي قليلاً . تأملني بعض الوقت وكأنه يعاني من عدم الثقة وفهمت قبل أن يفتح فمها أن محاولتي باءت بالفشل .

جلس « سناوت » على الأريكة واحتضن رأسه بيديه وقال بصوت يكاد لا يسمع :

— ما الذي يحدث هنا ؟

— من تكون ؟ سألته مرة أخرى :

— إن كنت لا تعرف ... — تتم « سناوت » بشفتيه دون أن يكمل . .

— فماذا ؟

— لاشيء .

وخاطبته :

— اسمع يا « سناوت » نحن بعيدون ما يكفي عن البيت (الأرض) لذلك دعنا نتكلم صراحة دون هذا الغموض والأمور المختلطة ...

— ماذا تريد ؟

— أن تقول لي من رأيت .

— وأنت ؟ سألني متشككاً .

— محتال علي ؟ سأقول لك ، وتقول لي . يمكنك أن تثق بي . لن أعتريك مختلاً ،

أعرف ...

— مختلاً ! يا إلهي ! — وحاول أن يضحك ، ثم أردف قائلاً . — لو كان

« غياريان » يؤمن لحظة أن ذلك اختلالاً لما فعل ذلك . ولكن على قيد الحياة .

— هذا يعني أن ما كتب في التقرير عن السائل العصبي ، مجرد كذب ؟
— طبعاً .

— لماذا لاتدون الحقيقة ؟

— لماذا ؟ كرر « سنوات » سؤالي .

من جديد وجدت نفسي في طريق مسدود ولم أفهم شيئاً مع أنني اعتقدت في بداية الأمر أنني أقنعت بفتح الحوار . وأنا سنهاجم هذا اللغز سوياً ، لكن لماذا لا يريد أن يتحدث ؟ لماذا ؟ وسألته :
— أين الأشخاص الآليين ؟

— في المستودعات . لقد أغلقنا على الجميع عدا أولئك الذين يقومون بخدمة
تخليق المحطة .

— لماذا ؟

لم يجب على سؤالي .

— ألن تقول ؟

— لا أستطيع .

كان في إجابته شيء لم استطع التقاطه ، وتساءلت في داخلي ، ترى هل أتوجه إلى سارتوريوس ؟ وفجأة تذكرت التقرير المكتوب وفكرت أنه الأهم .

— كيف تتصور طريقة متابعة العمل في هذه الظروف ؟
هز بكتفيه .

— ما أهمية ذلك ؟

— آها ، هكذا إذن ؟ ما الذي تخطط له ؟

سكت « سنوات » تناهي إلى مسمعي صوت وقع أقدام حافية ، وبدت

هذه المشية المنحلة كنكتة بدائية لشخص غير عاقل في وسط هذه الأجهزة البلاستيكية والنيكيلية والخزائن العالية بأجهزتها الألكترونية المتناهية في الدقة . اقتربت الخطوات .

نهضت ونظرت إلى « سنوات » الذي تجهم وجهه وهو يصغي إلى وقع الخطوات دون أن تظهر عليه علامة الخوف !! وسألته :

— من أين جاءت ؟

لم يجب سنوات .

— ألا تريد الإجابة ؟

— لا أعرف .

— حسن

ابتعدت الخطوات ثم تلاشت . بعد ذلك قال « سنوات » :

— لن تصدقني . لكنني أعطيك كلمة شرف أنني لا أعرف .

فتحت خزانة البذات بهدوء وحركت تلك الأغلفة الفارغة الثقيلة . ووجدت في عمق الخزانة كما توقعت المسدسات الغازية معلقة على المحاجن . تلك المسدسات التي تستخدم خصيصاً في ظروف انعدام الوزن . وفعاليتها لاتساوي إلا القليل .

ولم يكن هناك خيار آخر . وهذا أفضل من لا شيء . تفحصت نظام عمل المسدس ورميت بحزام الغطاء على كتفي .

راقبني « سنوات » باهتمام بالغ . وعندما رتبت الحزام حول خصري انفجر ضاحكاً وظهرت اسنانه الصفراء

— صيد موفق

— شكرا على كل حال .

واتجهت نحو الباب . قفز سنوات من الأريكة :

— كيلفن !

نظرت إليه ولاحظت أن السخريّة قد اختفت عن ملامح وجهه ولا أعرف إن كنت قد رأيت من قبل وجهاً معذباً بهذا الشكل . وتكلم بصعوبة .

— كيلفن . هذا لا ... أنا ... الحقيقة لا أستطيع .

انتظرت أن يقول أي شيء ، لكنه بقي يحرك شفتيه وهو يضغط على نفسه ليخرج الكلمات .

ودون أن أوجه له أية كلمة أدت ظهري وخرجت .

سارتوريوس

كان الرواق فارغاً يمتد إلى الأمام ثم ينعطف نحو اليمين إلى الدرج الألمنيومي .
لم آت إلى هذه المحطة من قبل ، لكنني عشت مدة ستة أسابيع في داخل مسحة
شبيهة بها تماماً في المعهد أثناء فترة التدريب الأولية .

وجدت مفتاح المكتبة المظلمة بطريقة اللمس . ضغطت على مفتاح اللبنة
واشتعل ضوء أحمر . وتأكدت من التسجيلات المدونة على بطاقات الكتب .
إن «السفر الصغير» وكذلك المجلد السنوي الأول مع ملحقه عند
«غيباريان» . أطفأت النور ونزلت الدرجات . خشيت من الدخول إلى
غرفته فمن المحتمل أن تعود الزنجية إليها . وقفت قرب الباب مفكراً وأنا
أصارع الخوف ، ثم دخلتها .

لم أجد أحداً في داخلها . بدأت بتقليب الكتب بمنهجية كتاباً ،
وأخيراً وجدت المجلد المنشود في الرزمة الأخيرة المتوضعة مابين السرير
والخزانة .

وكما توقعت أن أجد فيه إشارة ما ، كان شريط الكتاب يشير إلى فهرس
العناوين الذي كتب عليه بخط أحمر اسماً لم يعني لي شيئاً «أندريه بيرتون» .
وجدت اسمه مكرراً في الكتاب مرتين ، وبحث في المكان الذي ذكر
فيه أولاً وعلمت أنه كان طياراً احتياطياً على مركبة شينون وذكر مرة أخرى
بعد أكثر من مئة صفحة .

باشرت بعثة شينون عملها بعد وصولها إلى سطح سولاريس بحذر شديد دام ستة عشر يوماً تعبت خلالها وتأخرت عن تنفيذ برنامج عملها . مما دعا شينون ومعاونه تيموليس إلى إجراء تغيير في بعض قواعد الأمان وذلك بعد أن تبين لهم أن المحيط البلازمي لايقوم بأية أعمال ذات طابع عدواني بل انه ينسحب من أمام أية أداة تقترب من سطحه ، ويرفض بشتى السبل إقامة أية صلة مع الأجهزة أو الناس وكان طاقم البعثة العلمية مجزأً إلى مجموعات عمل صغيرة تتألف المجموعة من شخصين أو ثلاثة تقوم بتنفيذ تحقيقات فوق سطح المحيط ولمسافات بعيدة عن القاعدة . وأعادوا إلى القاعدة الأساسية القوة الشعاعية الضاربة التي كانت تحيط بحقل العمل بمثابة دفاع عن النفس . ومضت الأيام الأربعة الأولى بعد إجراء هذه التغيرات دون أية أحداث تذكر إن استبعدنا تحطم أجهزة الأوكسجين من وقت لآخر بسبب تأثر وتحسس وتآكل الصمامات الخارجية من فعالية جو الكوكب السام ولذلك كان عليهم أن يبدلوها يومياً .

وفي اليوم الخامس أي الحادي والعشرين إذا ما حسبنا من اليوم الأول لإنزال البعثة العلمية - نفذ العالمان : البيولوجي « كاروجي » والفيزيائي « فيخنر » تحليقاً فوق سطح المحيط على متن طوافة صغيرة تتسع لشخصين وذلك من أجل متابعة أبحاثهما . لم تكن المركبة جهازاً طائراً ، بل طوافة تتحرك على مخدة هواء مضغوط .

أعلن تيموليس الذي كان يقود القاعدة في غياب شينون الاستنفار التام بعدما لاحظ تأخرهما عن العودة بعد ست ساعات من التحليق وأرسل خلفهما كل من لم يكن لديه عمل للبحث عنهما . ولسوء الحظ انقطعت الاتصالات اللاسلكية بعد ساعة تقريباً من انطلاق فرق البحث ، وذلك

بسبب ظهور بقعة سوداء على قرص الشمس الحمراء تشع تيارات جسيمات قوية تصل إلى أعلى طبقات الجو . ولم يعد يعمل من أجهزة الاتصال سوى أجهزة الموجات القصيرة التي لا تستطيع أن تؤمن الاتصال إلا لمسافة مئتي كيلومتر . إضافة لذلك خيم الضباب فجأة قبل غياب الشمس مما أجبرهم على إيقاف عمليات البحث .

توجهت فرق الانقاذ عائدة إلى القاعدة وأثناء عودتها ألقت إحداهن بالطوافة على بعد مئة وثلاثين كيلومتراً عن القاعدة . كانت الطوافة عائمة فوق أمواج المحيط سالمة . وشاهد فريق الاغاثة من خلال القمر الشفافة « كاروجي » فاقداً لوعيه . وقام فريق الانقاذ بنقل الطوافة إلى القاعدة وأخضعوا « كاروجي » فوراً للعلاج الطبي .

وبعد لحظات قصار عاد « كاروجي » إلى رشده وعندما سأله عن مصير زميله « فيختر » لم يقل « كاروجي » شيئاً وكل ما كان يذكره هو أنهما عندما قررا العودة شعر — أي كاروجي — بالاختناق بسبب تعطل جهاز التنفس وتسرب الغاز السام إلى داخل البذة في كل عملية شهيق مما اضطر زميله « فيختر » أن يفك حزام أمانه كي يستطيع الوقوف على قدميه ليساعده في تصليح جهاز تنفسه . هذا ما يتذكره « كاروجي » وسارت بقية الأحداث حسب تقدير الاختصاصيين على النحو التالي :

فتح « فيختر » النافذة لأنه لم يكن يستطيع أن يتمتع بحرية الحركة داخل القمر بسبب دنو سقفها الزجاجي وذلك للقيام بإجراء التصليحات على جهاز تنفس « كاروجي » . وهذا أمر ممكن لأن هذه القمرات لم تكن محكمة الاغلاق . وهي تعمل فقط لحماية الأجسام من التأثير المباشر للهواء السام . ومن المحتمل أن جهاز تنفسه قد عطب أيضاً أثناء قيامه بهذه الحركة . مما

أفقدته توازنه . فقفز خارج الطوافة وسقط على سطح المحيط . ولم تثمر عمليات البحث التي أجريت فيما بعد عن أية نتائج إيجابية . مع أن البذرة التي كان يرتديها مصنعة بحيث تعوم على سطح المحيط في حال حدوث ما حدث . وربما عامت فعلاً . لكن من غير الممكن القيام ببحث دقيق لمسافة ألف كيلومتر مربع مغطاة دائماً بالضباب الكثيف والأمواج الشبيهة بكثبان الرمال ، هذه قصة أول ضحية من ضحايا المحيط .

وعند حلول الظلام — والآن أتابع بقية الأحداث — عادت إلى القاعدة كافة فرق الانقاذ ما عدا المروحية الضخمة المخصصة للحمولات وكان « بيرتون » عليها . قلق الجميع عليه . وبعد ساعة تأخير عاد بيرتون في حالة صدمة عصبية حادة وحالما خرج من المروحية ركض هارباً فلحقوا به وأمسكوه ، وبدأ يصرخ ويكي .

كانت هذه الظاهرة غريبة جداً لأنسان ومن خلف اكتافه سبعة عشر عاماً من التحليقات الفضائية وكثيراً مامر في ظروف صعبة . وقرر الأطباء أنه تسمم هو الآخر .

بعد يومين عاد بيرتون إلى توازنه . أو هكذا تخيل بعضهم . لكنه لم يرغب أبداً أن يخرج خارج القاعدة الرئيسية للبعثة العلمية حتى لدقيقة واحدة ولم يقترب أبداً من النوافذ المطلّة على المحيط وأعلن عن رغبته في تقديم تقرير عن تحليقه .

واعتبرت اللجنة تقريره بعد أن اطلعت عليه كثمار لتخيلات إنسان مريض تسمم من الغازات الجوية. لهذا لم يدخلوه ضمن تقارير البعثة العلمية بل ضمن تقارير مرض « بيرتون » . وهنا انتهى كل شيء .

وكان جلياً أن تقرير بيرتون يشكل لب المسألة . ماهو سبب هذا

الاختلال العصبي الذي أصاب هذا الملاح ؟ ومن جديد بدأت أقلب صفحات الكتب ولم أعث على « السفر الصغير » . تعبت كثيراً وقررت إرجاء عملي لصباح اليوم التالي وخرجت من الغرفة .

كانت بقع من النور ساقطة على درجات الألمنيوم من الأعلى وهذا يعني أن سارتوريوس مازال يعمل في مخبره حتى هذا الوقت وفكرت أنه من الضروري أن ألتقي به .

كان الجو دافئاً في الأعلى وتيار هواء خفيف يجري في الدهليز العريض الواطيء السقف وكانت الأوراق الملساء تهتز على نوافذ التهوية .

كان باب المخبر الرئيسي عبارة عن لوح زجاجي سميك محجّر محاط بإطار معدني ، علقت عليه من الداخل ستارة سوداء لتحجب الظلال في الداخل . وكان النور ينفذ من الكوى الضيقة في أعلى السقف . ضغطت على الذراع ولم يفتح الباب كما توقعت . ولم أسمع أي صوت من الداخل سوى أزيز يتردد بين لحظة وأخرى . قرعت الباب دون أن أسمع الجواب وناديت « سارتوريوس » :

— دكتور « سارتوريوس » ! « سارتوريوس » . أنا القادم الجديد كيلفن ! أريد مقابلتك . أرجوك افتح الباب . سمعت حفيفاً . كأن أحداً يدوس فوق أوراق النعناع وحل السكون من جديد .

— أنا كيلفن ! ألم تسمع بي ؟ لقد وصلت منذ ساعتين من « برومثيوس » وقربت فمي من الشق الفاصل ما بين الاطار والباب وصرخت :
— دكتور « سارتوريوس » لا يوجد أحد هنا غيري ! افتح .

ومن جديد سمعت حفيفاً يصعب التقاطه . وسمعت قرعقة ما وكأن

أحداً يضع أشياء معدنية فوق صينية معدنية . وفجأة ... تسمرت في مكاني إذ تنهى لي صوت وقع أقدام الخطوات صغيرة ، وكأن طفلاً يركض . تكررت الخطوات الصغيرة السريعة للأرجل الصغيرة ومن الجائز أنه قلد خطواته وذلك بأن نقر بأصابعه على علبة فارغة تردد الصدى جيداً . وصرخت من جديد :

— دكتور سارتوريوس ! هل ستفتح أم لا ؟

ولم أتلق جواباً . ومن جديد سمعت خبياً طفيفاً رافقه في نفس اللحظة وقع خطوات كبيرة سريعة شبيهة بخطوات انسان يسير على رؤوس أصابعه . واستخلصت أنه لا يستطيع تقليد خطوات الطفل أثناء سيره . « وما علاقتي بكل هذا في نهاية المطاف ؟ » . هذا مافكرت به وقد أصابني شيء من الاختبال الذي بدأ يتصاعد في داخلي دون أن أستطيع السيطرة عليه وصرختُ :

— دكتور « سارتوريوس » !!! أنا لم آت إلى هنا بعد ستة عشر شهراً من التحليق لأشاهد كيف تمثل الكوميديا ! سأعد إلى العترة ! ومن ثم سأحطم الباب !!! وكنت أشك تماماً في مقدرتي على تحطيمه إذ لم تكن قوة الغاز التي تندفع من المسدس شديدة ولكنني كنت مليئاً بالعزيمة على تنفيذ تهديدي بأية طريقة حتى لو اضطرت للبحث عن المتفجرات المحتمل توفرها بكميات وافية في المستودعات وقلت لنفسني : إنني لا أستطيع التراجع ولا اللعب بهذه الأوراق المجنونة التي وضعتها في يدي الظروف القاهرة .

سمعت صوتاً غريباً وكأن أحداً يصارع آخر ، أو يدفع شيئاً . ومن ثم انسحبت الستارة من الداخل نصف متر . وسقط الظل على زجاج الباب المحجّر وسمعت صوتاً طموحاً متحشراً :

- سأفتح لك . لكن عليك أن تعديني بعدم الدخول .
- إذن لماذا تفتح لي الباب ؟
- سأخرج إليك .
- حسن أعدك .

وسمعت قرعة المفتاح في القفل ثم ظهر هيكل عاتم مستتر بنصف الباب ، دفع الستارة بقوة وقام بسلسلة من الحركات اللامفهومة تراءى لي أثناءها أنني سمعت صرير حركة منضدة خشبية . وأخيراً انفتح الباب وخرج سارتوريوس إلى الدهليز ووقف أمامي تاركاً الباب خلفه وكأنه مستعد للدفاع عنه .

بدا سارتوريوس طويلاً نحيلاً كهيكل عظمي داخل بذة عاجية اللون وعلى عنقه منديل أسود بينما استلقت سترة مطوية محروقة من التفاعلات المخبرية على كتفه . كان دائماً يميل برأسه الرفيع جداً ونظارة سوداء معقوفة تغطي نصف وجهه لذلك لم أر لون عينيه . وكان فكاه السفلي متطاولاً وشفته زرقاويتين متجلدتين مثل أذنيه . لم يكن حليفاً . وتهذلت من معصميه شرائط القفازات المطاطية الحمراء ووقفنا بعض الوقت نتفرس في بعضنا بنفور ظاهر للعيان .

وكان شعر ذقنه شائباً أما شعرات رأسه المتبقية والتي تعطيها منظر القنفذ فكانت رصاصية اللون أما جبينه فكان محروقاً مثل جبين « سناوت » . وكان خط أفقي واضح في وسط جبينه يميز القسم المحروق من جبينه كعلامة واضحة إلا أنه كان يرتدي قبعة لتحمية من حرريق الشمس ، وقال أخيراً :
— أنا مصغ إليك .

ولم يكن ينتظر سماع كلماتي بقدر ما كان يصغ بتوتر ظاهر إلى الفراغ

خلفه ويضغط بشدة على اللوح الزجاجي . ولم أجد ما أقوله له الخوفي من أن أنطق ببعض الحماقات . وبعد لحظة بدأت حديثي قائلاً :

— أنا « كيلفن » . ربما سمعت بهذا الاسم . وأعمل ، أقصد عملت مع « غيباريان » . ولم يظهر أي تعبير خاص على وجهه المحرز بالتجديدات الشاقولية-ربما كان « دون كيشوت » على شكل سارتوريوس - ومنعني صفيح نظارته السوداء التي تحجب نظراته القلقة عن متابعة الحديث لحظة ، وتابعت :

— أعرف أن غيباريان ... أعرف أنه قد فارق الحياة . وشعرت بضيق في أنفاسي .

— نعم . أنا أستمع إليك !

ودوى صوته وكأنه قد فقد صبره

— انتحر ؟ من وجد جثته — أنت أم الدكتور « سنوات » ؟

— لماذا تسألني ؟ ألم يحدثك الدكتور « سنوات » عن ذلك ؟

— أريد معرفة رأيك بهذا الخصوص ...

— هل أنت عالم نفساني يادكتور « كيلفن » ؟

— نعم ، وماذا في الأمر ؟

— وتعترف ؟

— نعم . وما العلاقة بين ...

— اعتقدت أنك أحد رجال المباحث أو الشرطة . انظر كم هي الساعة الآن ؟

إنها الثالثة إلا الثلث ، وتقوم أنت في هذا الوقت بمحاولة وقحة لاقتحام

الخبر وتحقيق معي وكأنني متهم بدلاً من أن تدخل في غمار العمل الذي نقوم

به على الحطة ، لو قمت بهذا لكان ذلك أمراً مفهوماً .

تماسكت وتصيب العرق من جبيني من هذا الضغط وقلت له بشكل حازم :

— انت متهم يا سارتوريوس . أردت إزعاجه بأي شكل من الاشكال، لذلك أضفت بشكل حاد ! وأنت تعرف ذلك جيداً .

— ان لم تراجع عن كلماتك يا « كيلفن » وتعذر لي فإنني سأقدم بشكوى ضدك .

— على أي شيء أعذر منك ؟ لماذا تغلق على نفسك باب المخبر بدلاً من أن تستقبلني وتطلعني على ما يحدث هنا !!! ماذا بك هل جنت ؟
— ومن أنت ؟ هل أنت عالم أم جبان صغير ؟ من ! ربما تستطيع الإجابة على هذا السؤال .

لا أذكر كل ماقلته له . ولم تتغير معالم وجهه . لكن العرق تصبب من مسامات جلده الشاحب بقطرات كبيرة . فجأة أدركت أنه لا يستمع إلى كلماتي أبداً إذ كان بكل قوة يديه المخبطين خلف ظهره يسند الباب الذي يصعب ملاحظة ارتجاعه وكأن أحداً يدفعه من الجانب الآخر .

— إذهب ... — قال سارتوريوس — بصوت غريب باك — إذهب أرجوك ... أنزل إلى الأسفل ، سآتي إليك فيما بعد — سآتي إليك ، سأفعل ما تشاء ، فقط اذهب الآن !!!

كان صوته معذباً باكياً ورفعت يدي لاشعورياً لأساعده في سند الباب الذي ارتد لكنه أطلق صرخة مرعبة كأنني طعنته بخنجر . بدأت أراجع .
أما هو فاستمر يصرخ بصوت ناشز :

— حالاً ، حالاً ، أنا قادم ، لقد جئت !!! كلا !! لا !! وفتح الباب وقفز إلى الداخل . وترأى لي أنني شاهدت شيئاً ذهبياً بارتفاع صدر سارتوريوس

يلمع في الداخل مثل قرص براق ، وتناهت إلى سمعي من داخل الخبر ضجة صماء وطارت الستارة جانباً وظهر ظل ضخم على الزجاج ثم عادت الستارة لتأخذ مكانها كما كانت من قبل ولم أعد أرى شيئاً . ترى ما الذي كان يحدث هناك في الداخل ؟ وسمعت خبطاً ومطاردة لعوبة انقطعت بصري حاد لزجاج تحطم . ثم علت ضحكة طفل .

رجفت ساقى وتملكتني الدهشة ، ثم عم السكون وجلست على حافة النافذة الواطئة مدة ربع ساعة أو أكثر ولا أعرف هل كنت انتظر شيئاً أم كنت منهكاً لدرجة أنني لم أرغب بالنهوض . وفجأة سمعت من الأعلى صوتاً حاداً وغمرني الضوء في نفس اللحظة .

لم يكن باستطاعتي أن أرى من المكان الذي كنت فيه سوى جزء من الدهليز الذي يحيط بالخبر . كان الخبر يقع في أعلى المحطة تحت صفيح الدرع العلوي مباشرة ، وكانت الجدران مائلة ومجوفة بنوافذ شبيهة بالكوى متناثرة على أبعاد متساوية . وكانت الأبواب الخارجية تزحف إلى الأعلى .

اختفت الظلال الزرقاء . واقتحم لمعان يعمي الأبصار الزجاج السميك وتأججت شرائح النيكل والأذرع الخشبية مثل شمس صغيرة . وتوهج باب الخبر المصنوع من لوح زجاجي كبير كفوهة فرن . ونظرت تحت هذا الضوء الثاقب إلى يدي المغبرتين اللتين وضعتهما على ركبتي . كانت يدي اليمنى تمسك بالمسدس الغازي ولا أعرف متى سحبتة من غمدته وأعدته إلى مكانه واقتنعت أن لأشياء يمكنه مساعدتي حتى لو حصلت على مدفع نووي . ماذا أفعل إن حصلت عليه ؟ أحطم الباب ؟ أقتحم الخبر !؟

نهضت ، وأرسل ورأى قرص الشمس المغروس في المحيط الشبيه بانفجار هيدروجيني حزمة أفقية من الشعاع المحسوس . وعندما لامست الحزمة عنقي

(وكنت أهبط الدرجات) شعرت بشيء يلسعني . وعندما وصلت الدرج غيرت رأي وصعدت إلى الأعلى ودرت حول المخبر . وكما قلت سابقاً كان الدهليز يحيط به . وبعد مئة خطوة وجدت نفسي أمام باب شبيه بذلك الذي في الطرف الآخر . ولم أحاول فتحه بل رحت أبحث عن شق أو نافذة في الجدار البلاستيكي أستطيع من خلالها أن أراقب ما يفعله سارتوريوس . ولم أشعر أنني أرتكبت عملاً دنيئاً في محاولتي للبحث عن طريقة أتجسس بها عليه .

كنت أرغب بالخلاص من هذه الأفكار والوصول إلى الحقيقة مع أنني لم أتصور أبداً كيف أفهمها . وخطرت في ذهني فكرة أن المخبر لا بد أن يكون مضاء من خلال النوافذ العلوية المحفورة في لوح التغطية وأنني سأتمكن من إلقاء نظرة على المخبر لو صعدت إلى الأعلى . لهذا كان علي أن أهبط إلى الأسفل وراء التجهيزات — البذة واسطوانات الأوكسجين — وقفت قرب الدرج وأعدت التفكير . لا بد أن يكون زجاج النوافذ عاتماً . إذن ما الذي أستطيع فعله ؟ نزلت إلى الطابق الأوسط واضطرت إلى المرور قرب محطة الإرسال . كان الباب مفتوحاً على مصراعيه وشاهدت « سناوت » جالساً على الأريكة كما تركته ، كان نائماً لكنه سمع وقع أقدامي فانتقد وفتح عينيه :

— آلو . كيلفن ! قال متحشرجاً .

لم أجب عليه . فسألني :

— هل فهمت شيئاً ؟

— نعم — أجبته ببطء — لم يكن وحده .

وارتسمت تصغيره على وجه « سناوت » وقال :

— قل من فضلك ، هل يعني أن لديه ضيوفاً ؟

وأجبتته بثاقل :

— أنا لأفهم لماذا لاترغبان أن تشرحا لي ما الذي يجري هنا ، فأنا سأعرف

ذلك عاجلاً أم آجلاً . لماذا كل هذه الأسرار والألغاز ؟

— ستعرف عندما يأتي الزوار إليك خصيصاً .

وترأى لي أنه ينتظر شيئاً ما ولايرغب بمتابعة الحديث . وسألني عندما

أدرت ظهري له :

— إلى أين أنت ذاهب ؟

لم أرد عليه .

لم يتغير أي شيء على مهبط الصاروخ . كانت قمرتي في الأعلى . اقتربت

من مكان حفظ البذات . وفقدت الرغبة في التحليق فجأة ، رجعت وهبطت

على درجات السلم الدائري إلى المستودعات في الأسفل .

كانت الاسطوانات والصناديق مكدسة في الدهليز الضيق ذي الجدران

المعدنية الضاربة للزرقة والغير مطلية بأية مادة . وبعد عدة خطوات ظهرت

خراطيم أجهزة التبريد المغطاة بالأيونيوم الأبيض تحت السقف .

تابعت السير متبعاً الخراطيم التي امتدت إلى مكان محكم الأغلاق من

خلال واصل مغطى بالبلاستيك السميك .

وعندما فتحت الباب المحاط بحافة المطاط مسافة راحة كفين أثنين شعرت

بالبرودة تنخر في عظامي وتدلّت من أجمة الأنابيب الحلزونية الثلجة حبال

جليدية . وكانت الصناديق والعلب مغطاة بطبقة من الجليد من شدة

الصقيع . أما الرفوف فكانت مليئة بالعلب المختلفة وكتل الشحم الصفراء

المغلّفة بالبلاستيك الشفاف .

في العمق ، كانت قبة واطئة على شكل برمبل ، وهناك شاهدت ستارة تلمع من الصنارات الجليدية . أزحت الستارة وشاهدت شيئاً ضخماً طويلاً عليه غطاء رمادي فوق الشباك الألمنيومية . ورفعت طرف الغطاء وشاهدت وجه « غيباريان » المشوه . كان شعره الأسود ذي الخصل الشائبة يتحدر فوق جبين مجتمته وتفاحة آدم معلقة في الأعلى ، محطمة خط عنقه . كانت عيناه المتجمدتان تحدقان بثبات إلى السقف وقد تجمدت قطرة ما عاتمة في زاوية إحدى عينيه . كان البرد ينهشني وبصعوبة فائقة منعت أسناني من الاصطكاك ، ودون أن أترك الكفن من يدي لامست خديه بيدي الأخرى . وشعرت كأني لامست قرمة متجلدة . كان جلد وجهه مخمرشاً من الشعرات التي كانت تغطيه بنقاط سوداء وقد تسمّر تعبيرٌ صبرٍ واحتقار لا يوصف على اعوجاج شفثيه . وبعد أن أعدت طرف الغطاء إلى مكانه لاحظت في الطرف الآخر من الجثة خرزات طويلة سوداء شبيهة بحبات الفاصولياء تعلق في الطيات . تجمدت .

كانت تلك هي أصابع الأقدام العارية التي شاهدتها من جهة بطن القدم وكانت مخدات الأصابع الشبيهة بالبيض مبتعدة عن بعضها قليلاً . كانت زنجية متمددة تحت حجاب الكفن النعني . كانت متمددة على بطنها وكأنها في نوم عميق ورفعت الغطاء السميكة بوصة ، بوصة . كان شعرها المخزوم في جدائل صغيرة زرقاء يرتاح على يدها المعقوفة الضخمة . وكان جلدها اللامع يمتد على درنات فقراتها . لم يقدم هذا الجسد الهائل أية إشارة تدل على الحياة . مرة أخرى نظرت إلى أسفل قدميها العاريتين وذهلّت للملاحظة صغيرة وهي أن أقدامها لم تكن مفلطحة أو متأثرة من ثقلها الكبير الذي تحمله وهي تسير حافية . وكان جلد قدميها غريباً ، رقيقاً مثل جلد يديها أو كتفيها . أردت التأكد من صحة ملاحظتي وبصعوبة تفوق ملاستي لجثة « غيباريان »

لامست قدميها . وحدث ماهو غير متوقع ، إذ تحرك الجسد وتبين أنه حي في درجة برودة تصل إلى العشرين تحت الصفر . كانت حركتها شبيهة بحركة كلبة جُرَّت من قدمها .

« لابد أن تتجمد » فكرت بذلك لكن جسدها بقي هادئاً . ولم يكن بارداً تماماً . مرة أخرى لامست رؤوس أصابعها ملازمة خفيفة وأختفيت خلف الستارة التي أعدتها إلى مكانها وتوجهت إلى الدهليز . شعرت بمرارة شيطانية في الدهليز . وقادني الدرج مرة أخرى إلى محطة الصاروخ . جلست على المظلة المحزومة وأحتضنت رأسي بين يدي .

لم أعرف ما الذي كان يحدث معي . كنت محطماً تماماً وكانت أفكاري تزحف نحو هاوية مبهمه . وتخيلت أن فقدان الوعي والموت أشياء لاتصدق ولايمكن الحصول عليها عن طريق الحسنات .

لم أشعر بحاجة الذهاب إلى « سنوات » أو إلى سارتوريوس . إذ لم أعد مقتنعاً أن أحداً منهما قادر على تكوين فكرة متكاملة حول ما رأيته وما لامسته بيدي وماعانيت منه والمخرج الوحيد هو الهروب الذي سيفسر كعمل لاعقلاني .

نعم من الجائز أنني فقدت توازني العقلي منذ وصولي . ربما نتج ذلك عن تأثير المحيط على دماغي فبدأت أعاني من هلوسة بعد أخرى . وإن كان الأمر كذلك فلا داع لهدر القوى في محاولات بائسة في سبيل تخمين ماهو غير موجود في الواقع من ألغاز . وهذا يعني أنه يتوجب عليّ أن أهرع لطلب المساعدة الطبية وأن أستدعي « برميثيوس » أو أية مركبة أخرى . عليّ أن أرسل إشارة SOS ... وهنا حدث ما لم أتوقعه فلقد شعرت بالهدوء من فكرة أنني فقدت عقلي ... جننت .

فهمت الآن جيداً كلمات « سناوت » هذا إن افترضنا أن « سناوت » موجود فعلاً وأنتي تحدثت معه في وقت من الأوقات . ربما بدأت الهلوسة معي قبل ذلك بمدة طويلة. من يعلم ؟ لعلي ما أزال على متن « بروميثيوس » أعاني من الحالة المفاجئة لمرض عقلي أصابني ، ومن الجائز أن كل ما شاهدته مجرد أشياء صنعها خيالي المتوهج . هذا يعني أنني ربما سأشفى قريباً إن كنت مريضاً فعلاً وهذا ما يمنحني الأمل بالخلاص . ذلك الخلاص الذي لم أره أبداً في تقلبات كوابيس سولاريس التي استمرت عدة ساعات .

بناءً على ذلك كان لا بد لي من إجراء تجربة مدروسة على نفسي —
EXPERIMENTUM ERUEIS * استطيع من خلالها الإجابة على السؤال التالي :

هل سقطت ، وأصبحت ضحية تصورات هذيانية ؟ أم أن تخيلاتي واقعية تماماً بغض النظر عن عبثها التام وكذبها الفريد ؟

هذا ما فكرت به وأنا أتفحص الدعامة المعدنية التي تسند حامل هيكل مدرج الصاروخ وهي عبارة عن سارية مبنعثة من الجدار ، مبنية من صفائح فولاذية مقعرة مطلية بلون الفولاذ وقد تقشر طلاؤها على ارتفاع متر . ربما حدث ذلك من جراء حفيف العربات التي تمر بها . لامست الفولاذ وسخنه قليلاً براحة يدي ثم نقرت على الصفيح الواقي : ترى هل يمكن للهلوسة أن تصل إلى هذه الدرجة من الواقعية ؟ ممكن. أجبت على تساؤلي . ورغم كل شيء فهذا من اختصاصي وكنت أتمعن في ذلك .

وهل يمكن التفكير بإجراء التجربة ؟ أعتقدت أولاً أنني لن أستطيع لأن دماغي المريض (هذا إن كان مريضاً حقاً) سيبنى خيالات شتى ، تلك التي أتطلبها لأنه غالباً ما يحدث في الحلم وليس في حالة المرض أن يتحدث المرء

* تجربة أولية

مع أناس لا يعرفهم في اللحظة ويطرح عليهم في الحلم أسئلة ويسمع أجوبتها على الرغم من أن حقيقة هؤلاء الناس هي مجرد ثمار لحالاتنا النفسية ومع ذلك لانستطيع نحن البشر أن نعرف بأية كلمات سينطقون حتى يتوجهوا إلينا بعباراتهم وذلك في حالة انفصالهم الوقتي عنا كأجزاء ذات استقلالية وهمية ، علماً بأن عباراتهم التي سيجيبون بها على أسئلتنا قد تشكلت في الجزء المنفرد لوعينا الخاص وكان علينا أن نعرفها منذ تلك اللحظة التي اخترعناها لنضعها على شفاه محدثنا الصوري . هذه هي حقيقة الأمر . لهذا أستطيع القول إنني مهما فكرت وبأية طريقة تصرفت فإنني سأكون قد فكرت وتصرفت كما أفكر وأفعل في الحلم . ومن الجائز أن « سنوات » و « سارتوريوس » هما نتاج خيالي وغير موجودين في الواقع لهذا فإن توجيه الأسئلة إليهما يبدو عملاً عديم الجدوى .

كما فكرت أنني ربما تناولت دواء ذي تأثير فعال يصاب المرء منه بالهلوسة أو التصورات الملونة مثل البيونيل أو أي مستحضر آخر . وبرهنت لي هذه الظواهر الشاذة أنني تجرعت فعلاً من هذه المواد التي تشكل جزءاً من الواقع المادي الذي يحيط بي .

ولم تكن التجربة — تابعت التفكير — بحاجة لذلك . لأنني كنت أعلم مسبقاً كيف ستعمل الوسيلة الفعالة (التي ربما اخترتها بنفسني) . وهذا يعني أن عملية أخذ الدواء وفعاليتها ستكونان من نتاج خيالي على حد سواء .

أعتقدت أنني لن أخرج من هذه الدائرة الفارغة التي وقعت فيها لأنني من المستحيل أن أفكر بغير عقلي ، ومن المستحيل الخروج من الذات كي أتفحص العمليات الجارية في جسدي . وفجأةً خطرت في ذهني فكرة ناجحة بقدر ماهي بسيطة .

نهضت وركضت نحو محطة الارسال . لم أجد أحداً هناك . ألقيت نظرة على الساعة الجدارية الكهربائية . كانت الساعة تشير إلى الرابعة ليلاً . أقصد الليل الظرفي للمحطة . وفي الخارج كان الفجر الأحمر يتوهج . وشغلتُ بسرعة أجهزة الارسال البعيدة المدى وكررت مراحل التجربة ذهنياً ريثما تسخن المصابيح .

لم أذكر الإشارة التي أستطيع بها مخاطبة تابع سولاريس وهي عبارة عن محطة أوتوماتيكية تدور حوله غير أنني وجدتها مسجلة على الجدول المعلق فوق لوحة الادارة الرئيسية . أرسلت النداء واستلمت الجواب بعد ثماني دقائق . أجابني التابع والأدق أجابني عقله الالكتروني الذي بدأ يبعث بنبضات إيقاعية . عندئذ طلبت منه أن يخبرني بدقة خمسة أعشار الإشارة عن خطوط الزوال التي يجتازها في قبة سماء المجرة في فاصلة زمنية قدرها إثنتان وعشرون ثانية أثناء دورانه حول سولاريس . وجلست أنتظر . جاءني الجواب بعد عشر دقائق . فصلت الشريط الورقي الذي تسجلت عليه النتائج وخبأته في الصندوق دون أن أتطلع إليه ثم جلبت من المكتبة الخرائط الكبيرة للسماء وجداول اللوغاريتم والكتاب المخصص لحركة التابع اليومية وبعض الكتب الأخرى ثم بدأت أبحث عن مدى تطابق الحساب مع جواب التابع . لم أعد أذكر آخر مرة قمت فيها بإجراء مثل هذه الحسابات الضخمة . ربما منذ سنوات الدراسة وأثناء الامتحان بعلم الفلك .

أجريت الحسابات على حاسوب المحطة الكبير . فكانت فكريتي تقول تقريباً إنني سأحصل من خرائط السماء على أرقامٍ لا تتطابق والمعطيات التي قدمها التابع ، لا تتطابق بسبب تعرض التابع لاضطرابات معقدة ناتجة عن تأثير قوى الجاذبية لسولاريس ومن الشمسيين الدائرتين خلف بعضهما . وكذلك من تبدلات قوى التجاذب المحلية الناتجة عن المحيط . وعندما أحصل على

صفين من الأرقام ، صف الأرقام التي حصلت عليها من التابع وصف من الأرقام التي سألحسبها نظرياً عندئذ سأجري التصليح على حساباتي وستتطابق مجموعتي الأرقام حتى العلامة الرابعة بعد الفاصلة وسيحصل الخلاف في العلامة الخامسة التي ستعكس فعالية المحيط اللاحسوبة .

وفي هذه الحالة لايمكن للأرقام الواردة من التابع إن كانت غير موجودة في الواقع وهي ثمار لخيالي ، لايمكنها أن تتطابق مع المعطيات المحسوبة . من الممكن أن يكون دماغي مريضاً لكنه لن يكون قادراً في أية حال من الأحوال على حساب ما يحسبه العقل الالكتروني الكبير للمحطة . إن مثل هذا العمل يتطلب شهوراً عديدة وبناء عليه سيكون حاسوب المحطة الكبير موجوداً في حقيقة الأمر ، وليس من صنع خيالي في حال تطابق الأرقام .

رجفت ساقى عندما أخرجت من الصندوق شريط التلغراف ووضعتة قرب شريط الحاسوب الأعرض منه . تطابقت الأرقام كما توقعت . حتى العلامة الرابعة . وظهر الاختلاف في الخامسة . أخفيت كافة الأوراق في الدرج ، هذا يعني أن الحاسوب شيء موجود فعلاً بشكل منفصل عني ، وهذا يعني أن المحطة وما عليها حقيقي وواقعي .

أردت إغلاق الصندوق بيد أنني لاحظت رزمة كبيرة من الأوراق مليئة بالاحصائيات المستعجلة . أخرجت الرزمة وأدركت من النظرة الأولى أن شخصاً آخر قد قام بهذه التجربة من قبل ، والفارق الوحيد هو أنه طلب من التابع حجم سولاريس في فاصلة زمنية مقدارها أربعون ثانية — بدلاً من المعطيات المتعلقة بالمحيط الفضائي . هذا يعني أنني لست مجنوناً . إنطفأ لدي آخر شعاع أمل . أغلقت جهاز الأرسال وشربت ما تبقى من الحساء الموجود في الترميوس وذهبت للنوم .

هاري

أجريت حساباتي بحقق صامت ، وهذا ماساعدني على الوقوف على ساقّي . تخدّرت من التعب حتى أنني لم أعد أملك القدرة على مد فراشي ، وامتدت يداي إلى الدرايزون بدلاً من تحرير السرير من مشداته العلوية ، فسقط الفراش عليّ مباشرة أخيراً مددت السرير ورميت الثياب والأغطية على الأرض . وسقطت على الوسادة وأنا أكاد أموت من التعب حتى لم أنفخ الفراش كما يجب . ولا أعرف متى غرقت في النوم تاركاً النور مضاءً . وعندما فتحت عيني أحسست أنني لم أغف سوى بضع دقائق . كانت الغرفة ملتحفة بهالة حمراء متجهمة وشعرت ببرودة ولذة . وفجأة وقعت عيناي على شخص يجلس على الكنبه تحت النافذة في مواجهة السرير مضاءً بأشعة الشمس الحمراء . هذه هاري كانت تجلس في مريول أبيض حافية القدمين متراخية اليدين المشمستين حتى المرفقين وقد انسدل شعرها الأسود على ظهرها وقماش رقيق يغطي صدرها ، وهي تنظر نحوي من تحت رموشها السوداء دون حراك ، تأملتها طويلاً وكنت هادئاً بشكل عام ، وكانت أول فكرة جاءتني هي : « كم لطيف أن تحلم وتذكر أنك تحلم » . ومع ذلك تمنيت لو اختفت ، أغمضت عيني وأجبرت نفسي على الرغبة بذلك بقوة ، لكنها ظلت على جلستها كما كانت أمامي عندما فتحت عيني .

زمت هاري شفتيها كعادتها وكأنها تريد أن تُصفر لكنني لم ألاحظ أية

ابتسامة في عينيها . واسترجعت مافكرت به عن الأحلام مساء قبل أن اتمدد للنوم . كانت هاري مثلما رأيتها في آخر مرة عندما كانت على قيد الحياة ، كان عمرها تسعة عشر عاماً آنذاك ولكنها في التاسعة والعشرين لوبقيت على قيد الحياة .

لكن من الطبيعي أن لا تتبدل . فالأموات يبقون شباباً . ظلت هاري تنظر إلي بنفس تلك العيون المذهولة . وخطر في ذهني أن أرميها بأي شيء تحت يدي غير أنني لم أتجرأ رغم أن ما أشاهده مجرد حلم .
— جئت لزيارتك يا فتاتي المسكينة ؟ أليس كذلك ؟

قلت ذلك وشعرت بالخوف لأن دوي صوتي كان حقيقياً . الغرفة وهاري ، كان كل شيء يبدو واقعياً أكثر مما يتصوره المرء .

ماهذا الحلم المنسجم . فبالإضافة إلى كونه حلماً ملوناً شاهدت كثيراً من الأشياء التي لم ألاحظها البارحة على الأرض عندما استلقيت للنوم ، وقررت في داخلي « أن أفحص كل هذه الأشياء عندما أستيقظ ، أن أتأكد من وجودها الفعلي ، أم تراها جزء من حلم مثل هاري ... » .

— هل أنت عازمة على البقاء طويلاً بهذا الشكل ؟

ولاحظت أن صوتي خرج خفيفاً ، وكأني أخاف أن يسمعي أنسان آخر . وكأنه يمكن التصنت لما يجري في الحلم .

ارتفعت الشمس قليلاً في هذا الوقت ، وفكرت :

« هكذا إذن . ممتاز . لقد استلقيت عندما كان النهار أحمرأ . وبعد النهار الأحمر سيأتي الأزرق ومن ثم الأحمر الثاني . إذن هذا حلم ولاشك لأنني من المستحيل أن أنام خمس عشر ساعة دون انقطاع » .

نظرت إلى هاري بهدوء وانتباه . سقط الضوء عليها من الخلف . وكان

الشعاع النافذ من شق الستارة يُذهَّب زغب خدها الأيسر المخملي . وارتسمت ظلال طويلة لرموشها على وجهها . كانت تبدو رائعة . ورحت أحدث نفسي :

« حدثني من فضلك — جاءني هذه الفكرة — ما هذه الدقة المتناهية والواقعية فأنا ألاحظ حركة الشمس وتلك الغمازة اللامثيل لها تحت زاوية شفاهها الدهشة » ومع ذلك تمنيت لو ينتهي ذلك بأقصى سرعة .

حان وقت العمل . وجمعت قواي محاولاً النهوض ، فجأة سمعت صريراً وفتحت عيني في نفس اللحظة .

كانت هاري جالسة قربي على السرير غارقة في تأملي . ابتسمت لها . فأجابت بابتسامة وانحنى فوقي . كانت القبلة الأولى خفيفة كأننا مازلنا أطفالاً ثم قبلتها طويلاً . « هل يمكن استغلال الحلم بهذه الطريقة ؟ » . فكرت بهذا الأمر ولم اعتبره خيانة لذكرها فأنا أحلم بها . لم يحدث ذلك معي من قبل

استلقينا دون أن نتحدث بشيء كعادتنا . وعندما رفعت رأسها شاهدت خياشيمها الصغيرة التي كانت بمثابة مؤشر يكشف عن مزاجها . لامست أذنيها برؤوس أصابعي . كانت شحومات أذنيها متورمتين من القبل . لا أعرف هل بدأ القلق يسيطر عليّ من جراء ذلك . فأنا كنت ما أزال أقنع نفسي أنني أرى حلماً . شعرت بضغط على قلبي . تهيأت لأقفز من الفراش ، لكنني تهيأت للفشل . لأننا لانستطيع أن نتحكم بحركة جسدنا في الحلم عادة — بالأحرى حسبت أنني أستيقظ من هذا الكابوس لكنني لم أستيقظ بل جلست على السرير لاغير .

أرخيت قدمي على الأرض . استسلمت . « لن أستطيع فعل أي شيء .

لأحلم حتى النهاية » . وفارقني مزاجي الطيب . ارتعبت .
— ماذا تريدان ؟

إنبعث صوتي متحشراً وسعلت . وبحركة آلية بدأت أبحث بقدمي عن
حذاءي الليلي وقبل أن أتذكر أنني لن أجد أي حذاء لي في هذه المحطة
رضضت إصبعي وتأوّهت ألماً . « الآن سينتهي كل هذا » حدثت نفسي بمتعة
فائقة . لكن شيئاً لم يحدث . وابتعدت هاري قليلاً عندما أردت النهوض .
كانت هاري تستند بمنكبها على ظهر السرير . وكان فستانها يهتز قليلاً تحت
ثديها الأيسر مشيراً إلى حركة قلبها . فكرت أن أستحم بمياه الدوش .
وأدركت في نفس اللحظة أن الدوش الذي أحلم به لن يساعدني على
الاستيقاظ . .

— من أين جئت ؟

أخذت هاري يدي وبدأت تداعبها بحركاتها الاعتيادية . وأجابت :
— لا أعرف . هل هذا شيء سيء ؟

إنه صوتها ، الهادئ ... الشارد . كانت دائماً تتحدث بهذه الطريقة
وكانها تفكر بأشياء أخرى .
— هل رآك أحد ؟

— لا أعرف . كل مافي الأمر أنني جئت إليك . وهل هذا هام ياكريس ؟
كانت هاري ماتزال تداعب يدي . لكن وجهها لم يعد يشاركها ذلك .
تجهم .

— هاري

— نعم يا حبيبي

— كيف علمت بمكان وجودي ؟

بدت وكأن السؤال قد شغل فكرها .

— ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك . شيء مضحك أليس كذلك ؟ كنت نائماً عندما دخلت إليك . ولم تستيقظ . لم أرغب بايقاظك لأنك شرس و سريع الغضب . ودفعت يدي بقوة تناسب إيقاع كلماتها الأخيرة .
— هل كنتِ في الأسفل ؟

— كنت ، وهربت من هناك . البرد هناك شديد للغاية .

تركت هاري يدي وهزت رأسها وهي متمددة على جنبها كي ينسدل شعرها على جانب واحد . ونظرت إلّي بتلك النصف ابتسامة التي لم تعد تثيرني منذ سنوات عديدة عندما أدركت أنني أحبها .

— لكنكِ ... هاري ... أنتِ . ولم أستطع البوح أكثر من ذلك . ملت نحوها ، ورفعت ثوبها ذي الأحكام القصيرة وشاهدت علامة التلقيح ضد الجدري المحمرة الشبيهة بزهرة . ومع أنني توقعت ذلك . (لأنّي ولهذا اللحظة حاولت بواسطة الغريزة أن أجِد شيئاً من المنطق في المستحيل) .

كدت أفقد رشدي . لامست آثار جرح التلقيح ، ذلك الجرح الذي كنت أراه في الحلم طوال سنوات عديدة ، حين كنت أستيقظ وأنا أنحب في الفراش الممزق في وضعية تتكرر دائماً ، وأجدها كعادتها متكومة على نفسها كما هي الآن ، حتى وجدتها ذات مرة باردة الجثة . ربما حاولت أن أفعل في الحلم ماكنت أفعله في الواقع وكأنني فعلاً أطلب منها العفو ، أو أن أكون معها في تلك الدقائق التي شعرت فيها ببدء تأثير الحقنة وسيطر عليها الخوف .

كانت تخاف حتى من الخدش الصغير ولم تكن تتحمل الألم أو رؤية الدماء ، وها هي الآن تقوم بهذا الفعل المرعب . لقد سجلت خمسة كلمات

على بطاقة معنونة لي . البطاقة بين أوراقي ، كنت أحملها معي دائماً لمطبخة ممزقة من أطرافها . لم أتجرأ على فراقها . وعدت آلاف المرات بذاكرتي إلى تلك اللحظة التي كتبها وإلى ما كان عليها أن تشعر به آنذاك . أقنعت نفسي أن ذلك مزاحاً لاختفتي ، وتبين أنها تناولت جرعة أكبر من ذلك صدقة . أقنعتني الأصدقاء بصحة هذا التخمين . أو أن ما حدث كان نتيجة قرار لحظي ناتج عن حالة انقباض نفسي حاد . حالة مفاجئة لكنهم لم يعلموا ...

لقد حدثها قبل خمسة أيام من ذلك الحادث عن كل شيء . ولأنال منها كلياً بدأت بحزم أمتعتي . وسألتنني بهدوء بعدما جهزت نفسي « هل تدرك ماذا يعني هذا » ومع أنني فهمت جيداً ما يعنيه تظاهرت أنني لم أفهم شيئاً . حسبته جبانة وصرحت لها بذلك . والآن ها هي مستلقية على عرض السرير تنظر إلى بانتباه وكأنها لاتعلم أنني قتلتها .

اصطبغت الحجرة باللون الأحمر ولمع شعر هاري عندما نظرت إلى كتفها . ثم وضعت خدها الأملس البارد على راحة يدي بعدما أرخيتها .
— هاري. تحسرج صوتي. هذا مستحيل .
— كفاف !

كانت عيناها مغمضتين . لاحظت كيف رجف حاجباها ولاامت رموشها خدها .

— أين نحن يا هاري ؟

— عندنا .

— وأين عندنا ؟

فتحت إحدى عينيها وأغمضتها من جديد ولاامت برموش عينيها راحة كفني .

— كريس !

— نعم

— أنا سعيدة .

جلست قربها وهي ممددة دون حراك . رفعت رأسي وشاهدت في المرآة المعلقة فوق المغسلة شعر هاري الأشعث وركبتي العاريتين وقسماً من السرير . جذبت بقدمي أداة من الأدوات النصف منصهرة المنتشرة في الحجر ، ثم أمسكتها بيدي ووضعتها على جلد هاري ، فوق ذلك المكان الذي تورّد فيه وشم التلقيح الشبيه بنصف دائرة وغرستها في جسدها . كان الألم حاداً . نظرت إلى قطرات الدم الكبيرة التي سالت منها على وركها وهوت على الأرض .

كل ذلك لم يساعدني في شيء . وأصبحت الأفكار المربعة التي دارت في مخيلتي أكثر وضوحاً . ولم أعد أذكر لنفسي أن « هذا حلم » . وفكرت بشيء آخر « علي أن أدافع عن نفسي » نظرت إلى قدميها العاريتين ثم لامست اللطخة المتوردة وضغطت باصبعي على باطن قدميها . كانت طرية مثل قدم طفل حديث الولادة .

لعلني أدركت أنها لم تكن هاري ، ولم أرتاب أبداً من كونها لاتعلم ذلك بنفسها .

تحركت قدميها الخافية على راحة كفي وانتفخت شفتا هاري السمرواين من ضحكة مكتومة . وهمست :

— كفى ...

ابعدت يدي بهدوء ونهضت وشاهدت كيف جلست على السرير وبدأت تنظر إلي وأنا أرتدي ثيابي على عجل .

— أين ثيابك ؟ سألتها وندمت على ذلك .

— ثيابي ؟

— ألا تملكين سوى هذا الفستان ؟

بدأت اللعبة . بدأت أتحدث معها بحديث اعتيادي وبدون حذر متعمداً ذلك وكأننا لم نفترق عن بعضنا أبداً . نهضت ومررت يدها بحركتها القوية والرشيقة على فستانها لتفحصه . يبدو أن كلماتي قد أثارتها . لم تنبث بأية كلمة . ألقى نظرة متفحصة على أرجاء الحجرة ثم التفت نحو ي بزهول وقالت بصوت واهٍ :

— لا أعرف . ربما في الخزانة . وفتحت أبوابها .

— فقلت لها : لا يوجد في الخزانة سوى البذات . ثم اقتربت من المغسلة وأخذت آلة الخلاقة الكهربائية ورحت أحلق ذقتي ، محاولاً ألا أتركها خلف ظهري . بغض النظر عمن تكون .

تجولت في الغرفة . تطلعت في الزوايا . ألقى نظرة في النافذة . واقتربت مني أخيراً .

— كريس لدي إحساس أن شيء ما قد حدث .

توقفت عن الخلاقة ، أطفأت الآلة وانتظرت .

— كأني نسيت شيئاً ... نسيت أشياء كثيرة .. أعرف ... أتذكر نفسي ... و ... لاشيء أكثر من ذلك .

استمعت إليها وأنا أحاول إخفاء تعابير وجهي .

— كنت مريضة ؟

— جائز . ربما كنت مريضة بعض الوقت .

— ربما كان مرضك سبباً لنسيانك ؟

عاد إليها سرورها بسرعة وأنا لا أستطيع وصف ما شعرت به في تلك اللحظة . كان انفعالي من حركتها ، من صمتها ، من جلستها ، من ابتسامتها ، ومن شعوري أنني أرى هاري أمامي أقوى وأشد من انفعالي في حالة الطوارئ والأنداز . وتراءى لي بعد ملاحظة حركتها المعتادة وطبيعة حديثها وإشارتها أنها صورة مبسطة عن هاري . انقربت مني واتكأت بقبضتيها المشدودتين على صدري وسألت :

— كيف أحوالنا الآن ؟ حسنة أم سيئة ؟

— في أحسن حال !

ابتسمت ابتسامة طفيفة .

— عندما تقول ذلك هذا يعني أن الأمور سيئة .

— كيف استنتجت ذلك ؟ يا هاري ثم أضفت مسرعاً : عزيزتي عليّ أن أذهب الآن ، أنتظرنني . حسناً . هل أنت جائعة ؟

وشعرت بجوع في معدتي وسألتها مرة أخرى :

— هل أنت جائعة ؟ لا ؟

— هل عليّ أن أنتظرك ؟ ولمدة طويلة ؟

— لساعة ...

— سأذهب معك .

هذه هاري أخرى . لم تكن تلك تتعلق بي أبداً .

— من غير الجائز يا طفلة .

نظرت إليّ منكسة الرأس . بغتة أمسكت بذراعي . لامست بيدي كتفها الدافئ المرن . أدركت أنني أذاعها . لقد عرفها جسدي واشتهاها ، شعرت بشيء يشدني إليها بغض النظر عن المنطق والعقل والرعب . حاولت قدر

استطاعتي أن أحافظ على هدوئي . قلت لها :
— هاري ، هذا شيء مستحيل . عليك أن تبقى هنا .
— كلا
كيف خرج صوتها !
— لماذا ؟
— لا . لا أعرف
تأملتني وواجهتني بنظراتها .
— لا أستطيع ... قالت هاري بصوت خافت .
— لماذا لاتستطيعين ؟
— لا أعرف . لكنني لا أستطيع . أشعر ... أشعر . وبحشت في ذاتها بعناد
عن جواب . وعندما وجدته كان لها بمثابة اكتشاف كبير .
— أشعر أن عليّ أن أراك طوال الوقت .
أحسست بشيء مزعج في كلماتها وربما فعلت ما لم أكن قد رسمت له .
لويت ذراعها خلف ظهرها وأنا أتفرس في عينيها .
لم أفعل ذلك بعزيمة في البداية ، لكنها تحولت إلى شيء مدرك وأصبحت
لي هدفاً .
بدأت أبحث بعيني عن شيء أستطيع تكييلها به .
انثنى مرفقاها إلى الخلف بسهولة واصطدما ببعضهما . ثم توترا بشدة
في نفس اللحظة . وأدركت عدم جدوى محاولتي . قاومت مدة ثانية لا
أكثر . لو كان أقوى المصارعين في مكانها — أي في وضعيتها بعد أن مالت
إلى الخلف حتى لم تعد قدماها تلامسا الأرض إلا قليلاً — لما استطاع أن
يحرر نفسه ، أماهي فقد أفلتت من قبضتي ، دون أن يطرأ أي تغيير على

معالم وجهها الذي حافظ على ابتسامته الطفيفة المتزعزعة . ثم انتصبت وأرخت ذراعها .

ظلت تنظر إلي بنفس الاهتمام الذي رأيته فيه عندما استيقظت . ولم تعر اهتماماً لمحاولتي اليائسة الناتجة من حالة الفزع . وقفت دون حراك كأنها تنتظر شيئاً ما وبفس الوقت بدت لامبالية ، مركزة ومذهولة قليلاً .

تركته في منتصف الغرفة وتوجهت نحو الرف الذي فوق المغسلة لأبحث عن مخرج ، لاختار أشد الوسائل قوة في الصراع . وإن سألتني أحد عما يحدث لما استطعت أن أجيبه بكلمة ، بيد أنني توصلت إلى استنتاج مفاده أن ما يحدث في الحطة معنا جميعاً يشكل وحدة متكاملة مرعبة ومبهمة . وفكرت في نفسي اللحظة بشيء آخر . ركزت اهتمامي في البحث عن شعوذة ما ، عن شيء سحري استطيع الفرار بواسطته . وكنت أشعر بنظراتها دون أن ألتفت إليها . نظرت بسرعة إلى محتويات الصيدلية الصغيرة فوق الرف داخل الجدار . أخذت أربع حبات من علبة الحبوب المخدرة ووضعتها في كأس دون أن أحرص على إخفاء ذلك عن أعين هاري . أربع حبات هذه أكبر جرعة ممكنة . من الصعب أن أفسر ذلك . ببساطة لم أفكر به . صببت ماءً ساخناً في الكأس وانتظرت ريثما تذوب الحبات الأربع ثم أقتربت من هاري التي كانت ماتزال واقفة في وسط الحجرة . وسألتني :

— هل أنت غاضب ؟

— كلا لست غاضباً . إشريني هذا .

لا أعرف سبب اعتقادي أنها ستنصاع لي . وفعلأ أخذت الكأس من يدي وشربت ما يحتويه الكأس المحلول دفعة واحدة . وضعت الكأس الفارغ على الطاولة وجلست في الزاوية بين الخزانة ورف الكتب . اقتربت هاري

بخطوات بطيئة . جلست على الأرض بعد أن لوت قدميها تحتها بحركة كانت تقوم بها سابقاً ثم دفعت بشعرها إلى الخلف بحركة لاتقل جودة وإتقاناً عما كانت تفعله سابقاً . ورغم أنني لم أعد أصدق أبداً أنها هاري الحقيقية كنت أشعر بضيق من أنفاسي من كل مرة أتعرف على حركاتها الاعتيادية .

لم يكن ذلك مفهوماً بل كان مرعباً والأفطع من ذلك توجب علي أن أتزيف وأتظاهر أنني أرى فيها هاري الحقيقية .

بيد أنها تحسب نفسها هاري ولم تكن تتلاعب في سلوكها من وجهة النظر هذه . لا أعرف كيف توصلت إلى هذه الفكرة لكنني كنت واثقاً من ذلك إن كنت أستطيع أن أثق بأي شيء عموماً ! كنت ما أزال جالساً عندما أسندت هاري كتفها على ركبتي ووخز شعرها يدي . جلسنا دون حراك تقريباً . تطلعت خفية مرتين إلى الساعة . مضت نصف ساعة . على المخدر أن يفعل فعله . ودمدمت هاري بشيء لم أفهمه .
— ماذا تقولين ؟

سألتها ، لكنها لم تجبني . واعتبرت ذلك بمثابة إشارة على سريان مفعول المخدر في جسدها . مع أنني والصدق أقول : كنت أشك في أعماقي بقدرة المخدر في التأثير عليها . لماذا ؟ لم أجد جواباً لهذا التساؤل . والأرجح أن خديعتي لها كانت في غاية السذاجة .

مال رأس هاري قليلاً على ركبتي . غطى شعرها الفاحم وجهها . وانتظمت أنفاسها كأنسان نائم . أُنحيت لأحملها إلى السرير . فجأة أمسكت بشعري دون أن تفتح عينيها وانفجرت في ضحك مجلجل .

تسمرت في مكاني . استمرت هاري في الضحك . ضيقت عينيها وراحت ترأقني بسحنة ساذجة وخبيثة . جلست خائراً مذهولاً بدون حراك .

انقطعت هاري عن الضحك وضغطت بخدها على يدي وهدأت .
 — لماذا تضحكين ؟ سألتها بصوت جاف خشبي . ومرة أخرى ظهر ذلك
 القلق الذهني على وجهها . ولاحظت أنها تريد أن تكون صادقة . وقالت
 أخيراً بعد أن تنفست الصعداء ولامست بإصبعها أنفها الصغير :
 — أنا نفسي لأعرف .

ودوت في إجابتها دهشة حقيقية .
 — أبدو مثل حمقاء . أليس كذلك ؟ أوقل نصف حمقاء ... بيد أنك طيب
 والحق يقال ! تجلس متجهماً مثل ... مثل بيلفيس ...
 — مثل من ؟ سألتها وكنت متأكداً مما سمعته .
 — مثل بيلفيس ، ذلك البدين . أنت تعرفه .
 دون أدنى شك لم يكن باستطاعة هاري أن تعرف بيلفيس ولاحتى أن تسمع
 به ، لسبب بسيط هو أنه عاد من رحلته العلمية بعد ثلاثة أعوام من وفاتها
 وأنا كذلك لم أكن أعرفه ذلك الحين ، عندما كان يمثل المعهد في الاجتماعات
 واللقاءات ، وكان من عادته أن يطيل المناقشات إلى مالا نهاية .
 والحقيقة كان اسمه مؤلفاً من بيبي وفيليس . وتكون اسمه المختصر من هاتين
 الكلمتين الأمر الذي لم يكن معروفاً قبل عودته أيضاً .

استندت هاري بمرفقيها على ركبتي وحدثت في عيني . أمسكت
 بخصلات شعرها وحركت يدي ببطء إلى الأعلى ، إلى كتفيها . كادت أصابعي
 تحيط بجيدها النابض ويمكن اعتبار ذلك بمثابة مداعبة . وأدركت من نظراتها
 أنها اعتبرت هذه الحركة بمثابة مداعبة أما حقيقة الأمر فهو أنني أردت التأكد
 من طبيعة جسدها . هل هو جسد بشري عادي دافئ . وهل لهاري عظام
 تحت عضلاتها . وشعرت برغبة شديدة في الضغط عليها بأصابعي وأنا أنظر

إلى عينيها الهادئين . كدت أفعل ذلك عندما تذكرت فجأة يدي سنوات
الداميتين وتركتها .

— ماهذه النظرة ؟ سألتني هاري بصوت هادىء .

اشتد خفقان قلبي ولم استطع الاجابة فاغمضت عيني .

فجأة ولدت في ذهني خطة عمل متكاملة بكل تفاصيلها . نهضت
مسرعاً كي لا أضيع الوقت .

— حان وقت ذهابي يا هاري ، ولنذهب سوياً إن كنت ترغبين بذلك .
— حسن .

وانتصبت واقفة .

— لماذا تسيرين حافية ؟

سألتها وتوجهت إلى الخزانة لاختار من بين البذات المختلفة الألوان بذتين
واحدة لي والأخرى لهاري .

— لا أعرف ... ربما رميت حذائي في مكان ما ... أجابت هاري دون ثقة
بكلامها .

لم أعر كلماتها اهتماماً .

— لن تستطيعي ارتداء البذة وأنت في فستانك . اخلعيه

— البذة ولماذا؟ بدت مهمة بالأمر وراحت تنزع فستانها . وهنا ظهرت
مسألة مدهشة . لم يكن بمقدورها خلع الفستان . لم يكن للفستان أية أزرار
أو سحب أو خطاطيف . لاشيء . كانت أزراره الحمراء في منتصفه للزينة
فقط .

ابتسمت هاري ابتسامة بلهاء وتظاهرت بأن فستانها هو أكثر الأشياء

اعتيادية في الكون . أما أنا فأخذت من الأرض أداة شبيهة بمبضع وقصصت ثوبها من الظهر حتى العنق . صار بإمكانها خلعه الآن من فوق رأسها . كانت البذة كبيرة عليها قليلاً وسألتني بعدما خرجنا من الغرفة وقد ارتدينا البذات .

— هل سنطير ؟ ... وأنت كذلك ؟

أشرت لها برأسي إيجاباً . خفت أن يرانا سناوت . كان الممر المؤدي إلى ساحة الاقلاع فارغاً . وأبواب محطة الارسال مغلقة . راقبت هاري كيف أخرجت الصاروخ على عربة كهربائية صغيرة من مقره إلى الطريق الحر . تفحصت جاهزية مفاعله الصغير ومقود التحكم والاشطمان . ثم سحبت الصاروخ مع عربة الاقلاع إلى السطح الدائري لدائرة الاقلاع تحت قمع القبة الرئيسي ومسبقاً كنت قد أبعدت قمرتي الفارغة .

كان الصاروخ صغيراً يستخدم لإقامة الصلات بين المحطة والتابع الفضائي ولنقل الشحنات ، ولم يكن يستخدم لنقل البشر . وكان الرواد يخلقون عليه في ظروف استثنائية لأنه لايمكن فتحه من الداخل . وهذا كان جزءاً ضرورياً من خطتي . الحقيقة أنني لم أرغب في إطلاق الصاروخ لكنني تظاهرت أنني أجهزه للاقلاع . وكانت هاري التي رافقتني في بعض الرحلات السابق تعرف بعض الأشياء في هذا المجال . مرة أخرى ألقيت نظرة على أجهزة الأوكسجين في الداخل ، وتفحصت المكيف وأدرت المحركات ، وعندما وصلت الحركة إلى السلسلة الأخيرة واشتعلت مصابيح الاشارة خرجت من القمرة الضيقة وأشرت لهاري الواقفة قرب الدرج أن تدخل إلى القمرة .

— ادخلي

— وأنت ؟

سأدخل وراءك . علي أن أغلق الكوة بعد دخولنا .
 كنت متأكداً من أنها لن تلاحظ أنني أهدعها وأدخلت رأسي إلى داخل
 القمرة بعدما جلست هاري فيها وسألته إن كانت مرتاحة في جلستها .
 وعندما سمعت كلمة « نعم » الصماء المكتومة . قفرت إلى الخلف وأغلقت
 الكوة بإحكام وبحركات سريعة أغلقت المزلاجين حتى النهاية وبدأت شد
 البراغي الخمسة المثبتة في عمق الغطاء الصفيحي بالمفتاح المهيأ خصيصاً لها .
 وقف الصاروخ ذو الرأس الحاد بشكل عامودي وكأنه سيقلع فعلاً بعد
 لحظات إلى الفضاء . وعرفت أن المحتجزة في الداخل لن تفعل شيئاً .
 كان الصاروخ يحتوي على كمية وفيرة من الاوكسجين مع شيء من
 الطعام . أخيراً لم أكن عازماً على تركها هناك بلا نهاية .

كل أمني ينحصر في الحصول على ساعتين من الحرية لرسم خطط
 المستقبل ولأعيد الصلات مع سناوت ، فلقد تساوينا الآن .

وبعدما انتهيت من شد البرغي ماقبل الأخير شعرت أن القواعد المعدنية
 التي يتأرجح الصاروخ عليها متعلقاً بثلاثة نتوءات صغيرة تهتز بخفة فظننت
 أنني حركت العتلة الفولاذية دون قصد حينما كنت أشد البراغي بكل قواي

تمایل الصاروخ من تأثير سلسلة من الضربات الموجهة إليه من الداخل ،
 أية ضربات هذه ! ولو افترضنا أن انساناً آلياً احتل مكان تلك الفتاة صاحبة
 الشعر الأسود لما استطاع بكل قواه أن يحرك ساكناً من هذا الصاروخ الذي
 يشكل كتلة تزن ثمانية أطنان . والآن كان الصاروخ يهتز بارتجاج تشنجي .

تراقصت وتمازجت على سطح الصاروخ الخارجي والمظلي ، انعكاسات
 المصابيح . الحقيقة أنني لم أكن أسمع صوت الضربات . كان الهدوء عاماً

داخل الصاروخ بيد أن دعائم البناء المنتشرة بكثرة ، تلك التي تعلق عليها الصاروخ فقدت دقة ملاحظتها واهتزت كأوتار مشدودة . وشعرت بالخوف على سلامة الغطاء الخارجي من تأرجح المهد هذا . شددت البرغي الأخير بيدين مرتجتين ورميت المفتاح جانباً وقفزت على الدرج . تراجعت بهدوء إلى الخلف وعيناها مثبتتان على الصاروخ . شاهدت كيف تقفز دبائيس المخدمات من أعشاشها ، تلك الدبائيس التي لاتعمل إلا في حالة الضغط المستمر . وترأى لي أن الصفيح المؤلف من قطعة واحدة بدأ يفقد بريقه . ومثل مجنون قفزت إلى جهاز التحكم عن بعد ويدي الاثنتين دفعت ذراعي المفاعل والاتصال إلى الأعلى . عندئذ خرج من مكبر الصوت المتصل بقمرة الصاروخ زعيق حاد شبيه بالصفير . لم يكن يشبه صوت البشر ورغم ذلك استطعت أن أميز في عويله المتردد « كريس ! كريس ! ! ! »

لأجزم أنني سمعت ذلك بوضوح . سال الدم من يدي المخدوشتين وهرعت بايقاع مسعور وبعقلي المشوش لاطلاق الصاروخ . وسقط الضوء الأصفر على الجدران . تصاعدت أعمدة الغبار من تحت القمع على منصة الاطلاق وحلت محلها الحزم الشرارية ثم طغى هدير الصاروخ على بقية الأصوات .

ارتفع الصاروخ على ثلاثة ألسنه نارية ملتبهة سرعان ماتوحدت في عمود ناري واحد . خرج الصاروخ من منصة الاطلاق . أغلقت الأبواب في نفس اللحظة آلياً . وبدأت ضاغطات الهواء بإطلاق الهواء النقي إلى ذلك المكان الذي خيم فيه الدخان الكاوي .

لم ألحظ ذلك كله . كنت مأزال أستند بشعري المحروق إلى جهاز التحكم والنار تفلح وجهي وأنا أستنشق الهواء المشرب بالمواد المحروقة وبرائحة

الأيون الخاصة . لقد أعمت الشعلة إبصاري مع أنني أغمضت عيني غريزياً لحظة الاقلاع . لم أعد أرى سوى دوائر حمراء وذهبية وسوداء . ثم عدت تدريجياً إلى حالتي الطبيعية . وغادر الغبار والدخان المكان عبر خراطيم أجهزة التهوية ذات الأنين المملوط .

كان أول ما شاهدته شاشة الرادار الخضراء . بدأت أبحث عن الصاروخ وعندما وجدته أخيراً كان قد اجتاز الفضاء الخارجي . لم أكن طوال حياتي قد أطلقت صاروخاً بهذه الطريقة الجنوبية العمياء إذ لم أكن أعرف هل أسرع في تنفيذ عملي أو لا ولم أكن أعرف أي اتجاه أرسله ، ثم طرأت على ذهني فكرة وضعه في المدار الدائري حول سولاريس على ارتفاع يقدر بألف متر . عندئذ أستطيع إطفاء المحركات . كانت المحركات قد استخدمت لمدة طويلة ولم أكن على ثقة من عدم وقوع كارثة في نهاية المطاف .

كان المدار الذي يبعد ألف كيلومتر مستقراً حسبما أكدته الجداول التي تفحصتها والحقيقة أن المدار لم يكن يعطي أية ضمانات ، لكنني ببساطة لم أجد سوى هذا المخرج من هذه الحالة .

لم أملك الجرأة على فتح التخطيب الذي أغلقته فوراً بعد الاقلاع . كنت مستعداً لفعل أي شيء كي لأسمع ذلك الصوت المرعب من جديد ، ذلك الصوت الذي لم يبق منه أي شيء من خصائص الانسان .

بدت كل الشكوك — هذا ما أستطيع قوله لنفسى — سخيفة ، فمن خلال وجه هاري الوهمي بدأ يظهر شيء آخر ، الواقع الذي كان الجنون فيه بمثابة الحصول على الحرية المطلقة .

كانت الساعة تقترب من الواحدة عندما غادرت مدرج الصاروخ .

« السفر الصغير »

كان جلد يدي ووجهي محروقاً . وتذكرت أنني عندما بحثت عن المخدر هاري — الآن أستطيع أن أضحك على نفسي لسذاجتي — رأيت في الصيدلية مرهماً ل مداواة الحروق وتوجهت إلى غرفتي . فتحت باب الحجرة واصطدمت عيناى بشخص جالس على الأريكة التي كانت هاري تجلس عليها . كان نور الغروب الأحمر ينيّر ملامحه أحسست بالشلل من الذعر الذي أصابني وتراجعت إلى الوراء لأنقذ نفسي بالهروب .

حدث ذلك في جزء من الثانية . رفع الجالس رأسه فعرفت فيه سنوات . كان يضع ساقاً فوق ساق مديراً ظهره لي وهو يتصفح بعض الأوراق . وكانت إضبارة هذه الأوراق ملقية على الطاولة . وضع سنوات الأوراق التي كانت بين يديه على الطاولة بعدما شاهدي ورمقني بشيء من التجهم من فوق نظارته المعلقة على رأس أنفه .

اقتربت من المغسلة وأخذت من الصيدلية المرهم اللزج ورحت أدهن به أكثر الأمكنة تأثراً بالحروق أي الجبين والوجنتين . من حسن حظي لم ينتفخ وجهي كثيراً . غرزت إبرة الحقنة المعقمة في الفقاعات الكبيرة التي ظهرت على صدغيّ وخدّيّ وخرج السائل منها ثم وضعت عليها قطعتين من الشاش الرطب .

كان سنوات يراقبني طوال هذه الفترة . لم أعره انتباهاً . أخيراً انتهيت

من هذا العلاج . كان وجهي يزداد لهيباً — وجلست على الأريكة . قبل أن أجلس رفعت عن الأريكة فستان هاري . كان فستاناً عادياً إذا ما صرفنا النظر عن عدم وجود العروات فيه .

شيك سنوات يديه حول ركبته الحادة وراح يراقب حركاتي بنظرات حادة حذرة . وسألني بعدما جلست على الأريكة .
— هل ستتكلم ؟

بقيت صامتاً مسنداً قطعتي الشاش بيدي
— كان لديك زوار ، أليس كذلك ؟
— نعم أجبته بصوت هادئ ، ولم تكن لدي أدنى رغبة في متابعة الحوار بهذه اللهجة
— واستطعت التخلص منهم ؟ لقد فعلت ذلك بشكل رائع .

ولامس بيده جلد جبينه المقشور الذي ظهرت في بعض مساحاته بقع جلد جديدة وردية اللون . نظرت ببلادة إلى تلك البقع . لا أعرف لماذا لم يسترع اهتمامي حتى هذه اللحظة لون تلك البقع المشمسة .
حسبت أن لونها من الشمس لكن أحداً لا يستطيع أن يأخذ حماماً شمسياً على سولاريس

— إذن لقد بدأت بتواضع — قال سنوات دون أن يعير اهتماماً لما أعانيه من التهاب ترافقه هواجس محيرة . — مخدرات مختلفة ، سموم بأنواعها . بطريقة المصارعة الحرة أليس كذلك ؟

ماذا تريد ؟ دعنا نتحاور بالتساوي . وإذا أردت أن تهرج فالأفضل أن تدعني وشأني . رفع سنوات عينيه الضيقتين وقال :
— أحياناً يهرج المرء دون أن يرغب في ذلك . أعتقد أنك لن تحاول إقناعي

من أنك لم تجرب استعمال الحبال أو المطرقة ؟ والمحبرة ؟ هيه قل — وتجمد وجهه — نعم أنت هو الشاب الضروري لنا . حتى المغسلة أراها سليمة . لم تحاول تحطيم رأسها ؟ وألاحظ أن الترتيب لم يفارق الغرفة . هذا يعني أنك استضفت الزائر مرة أو مرتين ثم أطلقت النار وانتهى الأمر ؟ ونظر سنوات إلى الساعة واستخلص نتيجة : لدينا ساعتين من الوقت أو ثلاث ثم نظر إليّ باستهزاء مقرز وسألني فجأة :

— إذن أبدو لك خنزيراً ؟

— خنزير خالص . أكدت له بحدة .

— نعم ؟ هل كنت صدقتني لو قلت لك ذلك ؟ هل كنت ستثق بكلمة واحدة لو حدثتك عما يحدث ؟

لم أرد عليه

— لقد حدث هذا أولاً مع غياريان — تابع سنوات حديثه وابتسامة مصطنعة على وجهه — أوصد الباب على نفسه في حجرته ولم يتحدث إلا من وراء الباب . أما نحن ...

أعتقد أنك تستطيع تصوّر ما ظنناه ؟

تصورت وفضلت الصمت .

— شيء واضح . قررنا أنه اختل عقلياً . حدثنا عن بعض الأشياء لكنه لم يحدثنا عن كل الأشياء . وهل باستطاعتك أن تخمن سبب كتماننا لبعض الأشياء ومن كان عنده ؟ أنت تعلم أن SUUMCUIQUES (لكل خاصته) وبما أنه كان عالماً حقيقياً فقد طلب منا أن نمنحه فرصة .

— أية فرصة ؟

أعتقد أنه حاول بشكل من الأشكال أن ييوب ، أراد أن يتفق على صيغة

- ما لحل معضلته ، وتعرف أنت مقام به ، ربما عرفت ؟
- الحسابات — قلت له — تلك التي في الصندوق . هل هو من قام بها ؟
- وتلك التي على محطة الارسال .
- نعم . غير أنني لم أكن أعلم شيئاً آنذاك
- كم استغرق ذلك من الوقت .
- اسبوع . كان يتحدث من وراء الباب . كان يفعل شيئاً ما هناك
- أعتقدنا أنه مصاب بالهلوسة . أو بحالة هيجان شديدة . كنت أعطيه
- السكوبولامين ^(١)
- كيف ... كنت تعطيه ؟
- نعم كان يأخذها . لم يستعملها لنفسه . كان يجري التجارب . وهكذا
- سار كل شيء .
- وانتما ؟
- نحن ؟ قررنا في اليوم الثالث أن نصل إليه . أن نخطم الباب في حال إغلاقه
- في وجهنا . قررنا أن نعالجه انطلاقاً من مشاعر نبيلة نحوه .
- هكذا إذن ... لهذا السبب . واندفعت كلماتي .
- نعم
- وهناك ... في تلك الخزانة ...
- أجل يا عزيزي أجل . لم يكن يعلم آنذاك أن زواراً قد وصلوا إلينا . لم
- نعد نستطيع الاعتناء به . لم يكن يعلم ذلك . والآن ... الآن يبدو ذلك
- طبيعياً من خلال فكرة محددة .
- كان سنوات يتحدث بصوت خافت حتى أنني لم أسمع كلمته الأخيرة بل
- خمنتها تخميناً .

(١) نوع من الحشائش القلوية

— انتظر . أنا لا أفهم شيئاً — قلت لسنات — كيف حدث ذلك إذا كان بإمكانكما أن تسمعا ما يدور في الداخل . لقد ذكرت لي أنكما كنتما تسترقان السمع من خلف الباب وهذا يعني أنكما سمعتما أكثر من صوت واحد . وهذا يعني أيضاً ...

— كلا . لم نسمع سوى صوته . ولو فرضنا أننا سمعنا أصواتاً أخرى غير مفهومة كنا نرد مصدرها إليه .. هل تفهم ؟

— تسمعانه فقط ؟ لكن ... لماذا ؟

— لا أعرف والحقيقة لدي نظريتي التي تفسر ذلك ، كما أعتقد أنه لا يجوز أن تتسرع بالأخذ بها ، عدا أنها لا تفسر كل شيء . هذا هو الأمر . كان عليك أن ترى زائراً خلال هذا اليوم ، وإلا لاعتبرتنا مجنونين . — أعتقد أنني أصبحت مختلاً .

— هكذا ؟ ألم تر أحداً ؟

— رأيت ؟

— من ؟

— لم تعد تصغيرته تشبه الابتسامة . نظرت إليه طويلاً قبل أن أرد عليه — تلك السوداء ...

لم يقل شيئاً وتراخى جسده الملتوي المنحني إلى الأمام .

وقلت له بدون ثقة تامة :

— ومع ذلك . كان بإمكانك أن تحذرنى .

— لقد حذرتك

— بأية طريقة ؟

— بالطريقة الوحيدة الممكنة . افهم، أنا لا أعرف من سيأتي . لا أحد يعرف

- ذلك ، لا يستطيع أحد أن يعرف .
- اسمع يا سنوات، أريد أن أسألك فلديك شيء من التجربة ما ... ما ...
- ما الذي سيحدث معها ؟
- هل تقصد أنها ستعود أم لا ؟
- نعم
- ستعود ، ولن تعود .
- ما الذي تعنيه ؟
- ستعود كما كانت عليه في البداية ... أقصد في بداية الزيارة . فهي بكل بساطة لاتعلم شيئاً . والأصح سيكون سلوكها وكأنك لم تفعل معها شيئاً لتتخلص منها ولن تكون عدوانية إن لم تجبرها الظروف على ذلك .
- أية ظروف ؟
- هذا أمر متعلق بالأوضاع .
- سنوات .
- ما الذي تريده ؟
- نحن لسنا في جو من الرفاهية يجبرنا على إخفاء الأسرار عن بعضنا بعضاً .
- هذه ليست رفاهية — قاطعني بجفاء — اعتقد ياكيلفن أنك ولغاية هذا الوقت لاتفهم شيئاً أو ... انتظر .
- التمتعت عيناه — هل تقول لي من كان لديك ؟
- ابتلعت لعابي وأرخيت رأسي . لم أرغب بالنظر إليه. تمنيت لو كان إنساناً آخر لكن لم يكن لدي خيار في ذلك . سقطت قطعة الشاشة من وجهي على يدي . شعرت بالعرشة من هذه الملامسة الناعمة .
- كانت امرأة . إنها ... لم أكمل ما أردت قوله ونطقت بشيء آخر — قتلت نفسها بواسطة حقنة .

انتظر سنوات نهاية حديثي وسألني بعدما طال صمتي .

— هل هذا كل شيء ؟

لم أجب .

— لا يمكن أن تكون الحادثة بهذه البساطة

رفعت رأسي بنزق . لم يتطلع إلي .

— من أين لك أن تعرف ؟

لم يجب سنوات . وقلت له بعد أن لعقت شفتي بلساني :

— حسناً لقد تخصمنا . شخصياً ... وجهت إليها بعض الكلمات الحقودة
كما يقولون ثم أخذت أشياءي وذهبت . أفهمتي أنها ... لم تقل ذلك
مباشرة ...

لكن لا يحتاج المرء لشرح طويل من إنسان عاش معه أعواماً طويلة
ليفهمه ... تصورت أن ذلك مجرد كلمات ... وأنها ستخاف ولن تقدم على
ذلك . تذكرت في اليوم التالي أنني نسيت في الخزانة ... سموماً . كانت
تعرف مكانها . كنت أحتاجها . كنت قد أخذتها من المخبر وشرحت لها
آنذاك فعاليتها . خفت وأردت العودة إليها غير أنني فكرت أن عودتي إليها
ستبدو وكأنني أخذت كلماتها على محمل الجد ، و ... تركت كل شيء على
حاله . ومع ذلك عدت في اليوم الثالث بسبب القلق المستمر . لكنها ...
كانت قد توفيت .

— آه أنت هو البراءة المقدسة

أثارتني كلمات سنوات لكنني عندما نظرت إليه لاحظت أنه لم يكن يهزأ
مني أبداً ، كأنني أراه للمرة الأولى . كان وجهه رمادياً . واختفى تعب

لأيوسف من تجعدات وجهه العميقة . بدا كأنسان مريض . وسألته بخوف مذهل :

— لماذا تتحدث بهذه الطريقة ؟

— لأنها قصة مأساوية . ثم أضاف بسرعة — بعد أن تصيد حركتي — لا ، لا أنت لم تفهمني بعد . طبعاً ستعاني من ذلك كثيراً . وتظن نفسك قاتلاً ، لكن ... هذا ليس مربعاً .

— سألته بمرارة : ماذا تقول ؟

— عزائك الآن أنك لاتصدقني . ربما كان ما حدث رهيباً ، لكن الأرهب ما لم يحدث بعد أبداً
— لا أفهم — قلت له بعدم ثقة — الحقيقة أنني لا أفهم شيئاً .

هز سنوات برأسه .

— من هو الانسان الطبيعي ... الإنسان الطبيعي ؟ انه من لم يفعل شيئاً شنيعاً طوال حياته . ومع ذلك لابد أن يكون قد فكر بذلك دون أدنى شك . ومن الجائز أنه لم يفكر بل هناك شيء ما في داخله قد فكر ، شيء ظهر لديه منذ عشر سنوات أو ثلاثين سنة ، ومن الجائز أنه قد تحصن منه ونسي الأمر ولم يخف لأنه بات يعلم جيداً أنه لن ينفذ ذلك أبداً . والآن تخيل نفسك في وضوح النهار تلتقي بهذا الشيء مجسداً من لحم ودم ، يلتصق بك وأنت محاط بالآخرين و لايمكنك الخلاص منه . ترى ما الذي سيحدث في هذه الحالة ؟ ما الذي سيحدث ؟ بقيت صامتاً .

— المحطة ... قال بصوت هادىء — عندئذ ستكون محطة سولاريس .

— لكن ... ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء ؟ سألته بجزع — فأنت وسارتوريوس لستما من القتلة .

— أنت عالم نفساني يا كيلفن ! — قاطعني وقد نفذ صبره . — من هو الشخص الذي لم يحلم بذلك ؟ لم يهذ به ؟ فكر بـ ... بالفيتيشست* الذي يعشق خرقة بالية على سبيل المثال ، ويخاطر بحياته للوصول إلى هذه الخرقة الثمينة الكريمة بواسطة التوسل والتهديد ... يمكننا اعتباره مضحكاً أليس كذلك ؟ فهو يخلج من أداة شهرته و يفقد رثته من أجلها وهو على استعداد لتقديم حياته من أجلها ويمكن لشعوره أن يسمو إلى درجة شعور « روميو » نحو « جوليت » . هذا ما يحدث . ومعلوم أن هناك أفعالاً ... وحالات ... لايجرؤ أحد على تحقيقها إلا في خياله ... وفي لحظة من اللحظات الفاجعة أو الانهيار ... أو الجنون سمها كما تشاء - تتحول الكلمة إلى فعل . هذا كل ما في الأمر .

تشوش رأسي وأجته بصوت مُخَدَّر

— أهذا كل شيء ؟ والمحنة ؟ ما علاقة المحنة بذلك ؟
— ماذا بك . هل تتظاهر بعدم الفهم ؟ دمدم سنوات وألقى على نظرة .
توجس . إنني أتحدث طوال الوقت عن سولاريس . لا أتحدث عن غيره . فقط عن سولاريس وليس ذنبني إن كان الأمر يختلف كثيراً عما كنت تتوقعه ، رغم أنك عانيت ما يكفي لتسمعي حتى النهاية .

قبل أن نخلق هيئونا لكافة الظروف أي للعزلة للصراع للعذاب والموت .

ونحن لانقول ذلك بصوت مسموع من تواضعنا لكننا في أنفسنا نعتقد أننا عظماء . و حقيقة الأمر ... حقيقة الأمر أن هذا غير كاف . جاهزيتنا غير

* من الكلمة الفرنسية Fetichisme وتعني عبادة أشياء دينية مثل الأيقونات أو الأصححة . إلخ

كافية . والحق أننا لانريد احتلال الفضاء بل نسعى لتوسيع الأرض لحدوده . هناك كواكب صحراوية مثل الصحراء تماماً وأخرى بالجليد مثل القطب أو حارة مثل غابات البرازيل . إننا إنسانيون ولا نريد إخضاع الأجناس الأخرى . كل ما نريده إيصال حضارتنا مع تراثهم . نحسب أنفسنا فرسان الاتصال المقدس . هذه كذبة أخرى لا نبحت إلا عن البشر . لاحتاج لعوالم أخرى . نحتاج لمرآة . نحن ما سنفعله مع العوالم الأخرى . هذا وحده يكفيننا وهو يرهقنا . إننا في إيجاد صورتنا المستقلة المثالية . وهذا يعني عالم أكثر حضارة من حضة إننا نأمل أن نجد في الكواكب الأخرى لوحة لماضيينا البدائي . وبالنسبة أشياء لاناخذها بعين الاعتبار ونتحصن منها . بيد أننا لم نأت من كائنات في منتهى الكمال . ولم نجلب معنا تمثلاً للإنسان ! جئنا إلى نحن في الواقع . وعندما يعرض لنا الجانب الآخر هذا الواقع ، ذلك الذي نخفيه ، عندئذ لانستطيع أن نهادن . وسألته بعد أن استمعت إليه — ومع ذلك ما هذا ؟

— إنه ما نبحت عنه ! الاتصال مع حضارة أخرى . لقد توصلنا توصلنا لهذا الاتصال . إنه صورة مكبرة لعربدتنا الشخصية العجيبة ، لها وعارنا وكأنه يجسمها لنا تحت المجهر !!!

كان صوته يرجف من الغيظ .

— هذا يعني أنك تعد ذلك ... عن المحيط ؟ أي أنه هو ؟ ولماذا ؟ أنه ليست للميكانيكية هنا أية أهمية إذن من أجل أي شيء ؟ هل تعتقد أنه يريد أن يسخر منا ؟ أو أن يعاقبنا ؟ هذه مجرد شيطنة مبتذلة . هل أن شيطاناً كبيراً قد سيطر على الكوكب ، ويقوم بإرسال العشيقات لألبثة العلمية وذلك بهدف إرضاء مشاعره الشيطانية الساخرة . أعتقد

لا تؤمن بهذه السخافة التامة .

وأجاب سنوات وقد خرج صوته من بين أسنانه :

— هذا الشيطان ليس أحقاً لهذه الدرجة .

نظرت إليه مذهولاً وفكرت أن أعصابه لم تعد تحتل ما يحدث في نهاية المطاف بغض النظر عن أن ما يحدث في المحطة لا يمكن تفسيره إلا بالجنون . « جنون تفاعلي ... » خطرت في ذهني هذه الفكرة عندما بدأ سنوات يضحك بدون صوت تقريباً .

— هل تشخص مرضي ؟ لاتتعجل . يبدو أنك تقوم بذلك ببراءة وهذا دليل كاف على أنك لاتعرف شيئاً .

— آها . لقد رأف الشيطان بي . قلت ذلك وشعرت بالضجر من هذا الحديث .

— ما الذي تريده شخصياً ؟ هل تريدني أن أحدثك عن الخطط التي يرسمها ضدنا وعن بلايين الجزئيات المجهولة من البلازما ومن الممكن أن لاتكون له أية خطة .

— كيف ؟ سألته مصعوقاً .

— عليك أن تعلم أن العلم لايشغل بـ (لماذا يتم ذلك) ؟ بل بـ (كيف يتم ذلك) . كيف ؟ حسن . لقد بدأ ذلك في اليوم الثامن أو التاسع بعد تلك التجربة التي استخدمت فيها أشعة رونتجن . ومن الممكن أن المحيط قد قام بالرد على الشعاع بشعاع آخر شل به عقولنا منتشلاً منها بعض الجزر النفسية المنفردة .

— جزر نفسية ؟

لقد أثارتنى هذه الفكرة .

— نعم ، عمليات منفصلة عن البقية ، منغلقة على ذاتها منضغطة ، مكتومة مثل بؤر الذاكرة الملتبئة . وتعامل معها كوصفة لدواء أو كخطة لتصميم ... أنت تعرف مدى التشابه بين حبيبات الصبغيات الدقيقة وحبيبات الدماغ النيكولينية المتحدة التي تشكل أساساً لعمليات الذاكرة ... ومعروف أن بلازما « الذاكرة » هي البلازما الوراثية . بهذا الشكل يكون المحيط قد انتشل منا هذا ، وبثّه وأنت تعرف البقية . أما لماذا فعل ذلك ؟ ها ! على كل حال لا يعمل سولاريس على تدميرنا . يستطيع فعل ذلك بطريقة أسهل . عموماً هو قادر أن يصنع ما يشاء لامتلاكه الحرية التقنية . وكمثال على ذلك ، فإنه قادر بكل بساطة على أن يغرس فينا الشخص الثاني .

— آ ! — صرخت . لهذا السبب خفت مني أول أمس عندما التقينا !
— نعم جائز ، ومن أين لك أن تعرف أنني مازلت ذلك العجوز الطيب هوريك الذي وصل إلى هذه المحطة منذ عامين ؟

واعملت ضحككات سنوات كأنه شعر بالمتعة والله أعلم ، من حالتي ، لكنه سرعان ما كف عن ذلك .

— كلا ، كلا ، لدينا ما يكفيننا من الخلافات ، بل وأكثر من ذلك ، لكنني أعرف شيئاً واحداً هو امكانية تعرضنا للقتل أنا وأنت .

— وهم ؟

— لا أنصحك بتجربة ذلك . منظر رهيب !

— ولا بأية طريقة ؟

— لا أعرف ، على كل حال لا تستطيع فعل ذلك بالسهم ، أو بالمديّة ، أو بالحبال ...

— والمدفع النووي ؟

— هل تُقدِّمُ على استخدامه ؟

- لا أعرف . إن كنت على ثقة أنهم ليسوا بشراً .
- وإن كانوا نوعاً من البشر ؟ أي بشر من نوع خاص . لعلك لاحظت ذلك .
- نعم . لكن ... كيف يحدث ذلك ؟
- إنهم يتجددون بسرعة فائقة ، مذهلة ، يتوالدون مباشرة أمام عينيك ويبدأون من جديد ... مثل ...
- مثل ماذا ؟
- مثل تصوراتنا عنهم ، مثل تلك التسجيلات في ذاكرتنا ، والتي
- نعم هذه حقيقة .
- أكدت على ذلك دون أن أغير اهتماماً للمرهم الذي بدأ يسيل من خدي المحروق ويتساقط على يدي وسألته على عجل :
- هل كان غيباريان يعرف ذلك ؟
- نظر سنوات بانتباه خاص .
- هل تقصد بسؤالك إن كان يعلم ما فعله ؟
- نعم
- تقريباً . بالتأكيد .
- وكيف عرفت ، هل قال لك شيئاً ؟
- كلا ، وجدت لديه كتاباً .
- صرخت وأنا أنهض : « السفر الصغير » ؟!
- فقال سنوات دهشاً ورمقني بنظرة حذرة :
- نعم ، وكيف عرفت ؟
- أوقفته بحركة من يدي

— اهلاً . إنك ترى بنفسك أنني محروق ونسجي لانتجدد . لقد ترك لي رسالة .

— ماذا تقول ؟ رسالة ؟ ماذا كتب لك فيها ؟

— قليلاً . والأدق إن قلت : لم تكن رسالة بل قصاصة ، إسناد فهرسي للمحق سولاريس و « للسفر » . ترى ماهو هذا « السفر » ؟
— إنها مسألة قديمة لعله يشكل شيئاً مامع هذا . خذ أمسك . وأخرج من جيبه مجلداً صغيراً تأكلت زواياه وقدمه لي .

أخذت الكتاب وسألته : وسارتوريوس ؟

— مابه؟ كل منا يضبط نفسه في مثل هذه الحالات بطريقته الخاصة . ويحاول سارتوريوس أن يكون طبيعياً . وهذا يعني بالنسبة له أن يكون رسمياً .
— لكنك تعلم !

— هكذا هو . ذات مرة كنت معه في المعمل ... لن أروي لك تلك التفاصيل . يكفي أن أذكر لك أنه لم يكن لدينا نحن الثمانية سوى خمسمائة كيلو غرام من الاوكسجين . أقلعنا عن الأعمال اليومية ، أخيراً أصبحنا ملتحين ، أما هو فقد كان يحلق ذقنه وينظف حذائه ... انه من هذا الطراز . ومن الطبيعي أن يكون مايقوم به الآن تكلفاً ، كوميدياً ، أو ربما جريمة .
— جريمة !

— حسن . ليست جريمة . علينا إيجاد الصيغة المناسبة . مثل « انفصال تفاعلي » ربما كان لهذه الصيغة صدى أفضل .

— أنت حاد الذكاء لدرجة كبيرة .

— هل تفضل أن أبكي ؟ اقترح شيئاً

— آ . دعني وشأني .

— لا . أحدثك جدياً . أنت تعرف الآن تقريباً كل ما أعرفه . هل لديك

أية خطة ؟

— ماذا تقول ؟ ليس لدي أدنى تصور عن كيفية استمرارنا عندما ... ستظهر

من جديد . يجب أن تعود ؟

— على الأغلب ستظهر . نعم .

— كيف يدخلون إلى المحطة ؟ فهي محكمة الاغلاق . هل يمكن أن يكون

الدرع الواقي .

— الدرع كما هو . وليس لدي فكرة عن طريقة تسربهم إلى داخل المحطة .

غالباً ما نلتقي بالزوار عندما نستيقظ . للأسف فنحن نحتاج لقليل من النوم .

نهض ونهضت كذلك .

— اسمع يا سنوات ... يدور الحديث عن تدمير المحطة . فهل تريد أن تكون

المبادرة مني ؟

هز سنوات برأسه .

— ليس بالأمر السهل . طبعاً نستطيع الهروب في أية حالة إلى التابع مثلاً ...

ومن هناك نرسل SOS . سيعتبروننا مجانين وسيجبروننا على الإقامة في إحد

المصحات على الأرض حتى ننسى كل شيء على الإطلاق . ربما سمعت

بالجنون الجماعي في بعض القواعد المنفردة ... من الجائز أن يكون المخرج

الأفضل ... فهناك حديقة وهدوء وثياب بيضاء ونزهات مع المرضى ...

كان سنوات يتحدث بجدية واضعاً يديه في جيوبه وقد سلط نظرة لامرئية

على زاوية الغرفة . وغابت الشمس الحمراء وراء الأفق وذابت الأمواج المتلبدة

في الصحراء السوداء . والتفت السماء وكانت السحب بإطاراتها الليلكية

تسبح فوق هذا المنظر الكثيب والغريب ذي اللونين .

— إذن هل تريد الفرار ؟ أم لا ؟ ليس بعد ؟

وضحك سنوات

— أيها الفاتح الحازم .. لم تجرب شيئاً بعد وإلا لما كنت لجوجاً بهذا الشكل .
 فالحديث لا يدور عما نريده بل عما يمكننا فعله .
 — وما الذي يمكننا فعله ؟
 — هذا مالا أعرفه
 — هذا يعني أننا باقون هنا ؟ هل تعتقد أننا سنجد الوسيلة ؟
 نظر سنوات إلي وقشر جلده على وجهه المنهك المخدر المجعد وقال : — من
 يعلم ؟ ربما سيعوض ذلك . نحن لانعرف عنه شيئاً ، لكن يمكننا أن نعرف
 عن أنفسنا . أخذ أوراقه واستدار ثم انصرف . لم أجداً أفعله . كل ما
 أستطيع فعله هو الانتظار . اقتربت من النافذة ونظرت إلى المحيط الدموي
 الأسود دون أن أراه تقريباً . خطر في ذهني أن أختبئ في أحد الصواريخ ،
 لم أفكر بذلك جدياً فهذا غباء مطلق سأضطر للخروج منه عاجلاً أم آجلاً .
 جلست قرب النافذة وأخرجت الكتاب الذي أخذته من سنوات . كان
 النور كافياً ، تورد لون الصفحة وكانت الغرفة ملتحفة باللون الأرجواني .
 ضم الكتاب بحثاً ومقالات قيمة لاجدال فيها ، وكان قد جمعها « اوتون
 رافينتسير » الحائز على ماحستير في الفلسفة . ومن المعروف أن كل علم من
 العلوم يرافقه علم كاذب طفيلي ، كتأويل بدائي في عقول بعض الناس : فعلم
 الفلك نجد انعكاسه بشكل كاريكاتوري في علم التنجيم . كما كانت الكيمياء
 في السيماء . كذلك رافق ولادة السولاريسية انفجار حقيقي لأفكار
 مرعبة . لقد احتوى كتاب « رافينتسير » على غذاء روحي من هذا القبيل .
 مع أنه لوى كشحه عن هذه الطرائف في مقدمة كتابه . واعتقد ببساطة
 لها أساس ما أن هذا الكتاب سيعتبر وثيقة هذا العصر للمؤرخين ولعلماء
 النفس .

احتل تقرير بيرتون مكان الصدارة في هذا الكتاب . كان مؤلفاً من عدة فصول . ضم الفصل الأول سجلاً لتحليقه .

كان التسجيل موجزاً و سلبياً من الساعة الرابعة عشر وحتى السادسة عشر وأربعين دقيقة من التوقيت الظرفي للبعثة . « الارتفاع ١٠٠٠ ، ١٠٠٠ م أو ٨٠٠ م . لا ألاحظ شيئاً . المحيط فارغ » . تكرر ذلك عدة مرات . ثم في السادسة عشر وأربعين « يعلو ضباب أحمر . الرؤية ٧٠٠ م . المحيط فارغ » . وفي الساعة السابعة عشر : « أصبح الضباب كثيفاً ، هدوء ، الرؤية ٤٠٠ م . أنحدرُ إلى ٢٠٠ م » وفي الساعة عشر وعشرين دقيقة : « أعوم في الضباب الارتفاع ٢٠٠ م . الرؤية ٢٠ — ٤٠ م . هدوء أرتفعُ إلى ٤٠٠ م » وفي الساعة السابعة عشر وخمس وأربعون دقيقة « الارتفاع ٥٠٠ م . يرتفع تيار ضبابي حتى الأفق . هناك كوى في الضباب على شكل قمع يظهر من خلالها سطح المحيط . أحاول الدخول في واحد من هذه القموع » .

وفي الساعة السابعة عشر وأثنين وخمسين دقيقة « أرى شيئاً يشبه دوار الماء يقذف رغوة صفراء . محاط بجدار من الضباب . الارتفاع ١٠٠ م . انحدر إلى ٢٠ م » انتهى سجل تحليق بيرتون . أما بقية الصفحات فضمت ما يسمى بالتقرير الذي احتوى على مقاطع من تاريخ مرضه والأدق كان تسجيلاً لإجابات بيرتون على أسئلة أعضاء اللجنة .

« بيرتون : عندما انحدرت إلى ارتفاع ثلاثين متراً . صار من الصعب المحافظة على الارتفاع بسبب الرياح العاصفة التي كانت تهب في ذلك الفضاء الدائري الحر ومن تأثير الضباب كنت مضطراً لتركيز كل انتباهي للقيادة لذا لم ألق نظرة خارج القمرة مدة ١٠ — ١٥ دقيقة . ولهذا السبب دخلت

الضباب رغم إرادتي . دفعتني إليه نفحة ريح عاتية . لم يكن ضباباً عادياً كان يشبه مادة غروانية امتدت على الزجاج بأكمله . وكان من الصعب تنظيف الزجاج لأن المادة كانت لزجة للغاية . وفقدت حرية المناورة بنسبة ٣٠٪ بسبب مقاومة ذلك الضباب لحركة المروحة ، وبدأت أهوي . انخفضت لدرجة كبيرة وضغطت على المحرك حتى النهاية خوفاً من أن أعلق بإحدى الأمواج . حافظت المركبة على ارتفاعها لكنها لم تقلع نحو الأعلى . كان لدي أربع حشوات لسرعات صاروخية لم استخدمها بعد لاعتقادي أن الوضع سيزداد سوءاً . وسأحتاجها فيما بعد .

وبدا الارتجاج الفظيع أثناء الانعطافات الثامنة وأدركت أن المروحة قد علقت بتلك المادة الغريبة واستمرت مؤشرات الدفع نحو الأعلى تشير إلى الصفر ولم يكن باستطاعتي القيام بأي شيء . لم أر الشمس من لحظة دخولي في لجة الضباب الذي اصطبغ بلون أحمر من جهة الشمس . تابعت الدوران آملاً أن أجد في آخر المطاف مكاناً خالياً من الضباب . وفعلاً وجدت ذلك بعد مضي نصف ساعة من الطيران . قفزت إلى الفضاء المفتوح الشبيه بأسطوانة قطرها عدة مئات من الأمتار يحيط بها الضباب المتصاعد بقوة وكأنه يعلو بواسطة تيارات جبارة . لذا حاولت البقاء قدر الامكان في وسط « الفتحة » وكان الهواء أكثر هدوءاً . في هذا الوقت لاحظت تبديلاً قد طرأ على حالة سطح المحيط . كادت الأمواج تختفي كلياً عن سطحه . أما الطبقة السطحية لذلك السائل الذي يتألف المحيط منه ، فقد أصبحت شبه شفافة مع بعض التعكر الذي بدأ يصفو تدريجياً ، حتى راق تماماً بعد مضي قليل من الوقت وصار بإمكانني النظر من خلال تلك الطبقة التي تبلغ سماكتها عدة أمتار — الى العمق . وهناك تجمع طمي أصفر بدأ يرتفع بحلقات إلى الأعلى وينوب على السطح وكان يلمع كالزجاج ، ومن ثم بدأ يغلي ويزبد ثم برد .

في تلك اللحظة كان شبيهاً بشراب سكري لزج محروق . بعد ذلك بدأ هذا الطمي أو هذا الابليلس يتجمع في كومة كبيرة صعدت إلى سطح المحيط لتكون حذبات شبيهة بالقرنييط ، ومن ثم بدأ تدريجياً يشكل شواخص مختلفة . شعرت بشيء يجذبني نحو الضباب لذلك اضطررت لمقاومة هذا الجذب بالمروحة والمقود عدة دقائق دون أن أنظر خارج القمرة .

وبعدما أصبح بإمكانني النظر من جديد نحو الأسفل شاهدت ما يشبه الحديقة . نعم حديقة ، شاهدت أشجار قزمية ، وسياجاً نباتياً ، ودروباً ليست حقيقية — كل ذلك تكون من تلك المادة التي جمدت تماماً وأصبحت مثل الجص .

كان السطح يلمع بشدة . انحدرت قدر استطاعتي لاستطلع عن قرب . سؤال : هل كانت لتلك الأشجار أو النباتات التي شاهدتها أوراقاً ؟ جواب بيرتون : كلا . كانت على شكل الأشجار فقط كأنها نموذج لحديقة . نعم . نموذج . هكذا كانت تبدو . نموذج في حجم حقيقي . ثم بدأ كل شيء يتصدع ويتكسر وبدأ الطمي اللزج يتدفق بموجات في الشقوق السوداء ثم برد . انسال قسم منه وبقي قسم آخر . كان كل شيء يغلي بشدة ثم غطته الرغوة ولم أعد أرى شيئاً آخر غيره .

بدأ الضباب يتجاذبني من كل الأطراف لذا ضاعفت الدوران وارتفعت لعلو ثلاثمائة متر .

سؤال : هل أنت واثق تماماً أن ما شاهدته يشبه الحديقة ولا يشبه شيئاً آخر .

جواب بيرتون : نعم شاهدت تفاصيل مختلفة وعلى سبيل المثال أذكر أنني

شاهدت في أحد الأماكن صفاً من العلب المربعة وخمنت فيما بعد أنها ربما كانت منحلة .

سؤال : هذا ما خمنت فيه بعد ، ولم يخطر في ذهنك في تلك اللحظة ؟
جواب بيرتون : كلا ، كان كل شيء يبدو وكأنه صنع من الجص وشاهدت أشياء أخرى .
سؤال : أية أشياء ؟

جواب بيرتون : لا أستطيع وصفها بدقة لم يكن لدي وقت لتأملها جيداً . لدي انطباع وكأنني شاهدت أدوات ملقاة تحت بعض الشجيرات . كانت الأدوات شبيهة بأشكال أدوات قديمة ذات أسنان بارزة شبيهة بقوالب جصية لأدوات تستخدم في الحديقة ، لكنني لست متأكداً من ذلك . أما ما تبقى فأنا متأكد مما شاهدته .

سؤال : ألم تفكر بأن ذلك مجرد هلوسة ؟
جواب بيرتون : كلا اعتقدت أنها « فاتا — مورجانا »* . لم أفكر بالهلوسة لأنني كنت في حالة صحية جيدة . ولأني لم أرتطب طوال حياتي شبيهاً لما رأيته . وعندما ارتفعت لعلو ثلاثمائة متر كان الضباب يبدو مرقشاً مثل الجبنة بفتحات مختلفة الأحجام كان بعضها فارغاً واستطعت من خلالها مشاهدة أمواج البحر المتلاطمة ، وكان شيء ما يتصاعد من الفتحات الأخرى . انزلت في واحدة من هذه الكوى . وشاهدت من على ارتفاع أربعين متراً جداراً يشبه جدار بناء ضخيم تحت سطح المحيط على عمق طفيف عن سطح المحيط . كان الجدار

* « فاتا — مورجانا » (FATA. MORGANA) ، نوع من أنواع السراب المعقد التكوين ويحدثه . تظهر فيه على الأفق أشكال معقدة تتبدل بسرعة وراء الأفق .

واضحاً تماماً من خلال الأمواج وعليه صفوف من الفتحات المثلثة الشكل تفصل بينها مسافات شبيهة بالنوافذ كما أعتقد أنني شاهدت أشياء تتحرك في تلك النوافذ لكنني لست متأكداً من ذلك . بعد ذلك بدأ الجدار يرتفع ببطء خارجاً من المحيط ، انسالت عليه شلالات كاملة من الطمي وبعض الأشكال المخاطية اللزجة المعروفة . انقسم الجدار فجأة إلى قسمين وغاص في الأعماق بسرعة مذهلة واختفى خلال لحظة . ومن جديد ارتفعت بالمركبة وحلقت فوق الضباب وكدت ألامسه بجسد المركبة . بعد ذلك شاهدت قمعاً آخر . ربما كان أكبر من الأول بعدة مرات . في هذه الاثناء لاحظت شيئاً عائماً كان واضحاً تقريباً ، أبيض اللون اعتقدت أنه بذة ملاحه فيختر ، خاصة أنه كان شبيهاً بالانسان . انعطفت بسرعة إذ خفت أن أجتاز المكان وافقده . في هذه اللحظة انتصب الشاخص بسهولة كأنه يعوم أو يقف حتى خصره في الموج . أسرعته وانحدرت بشدة حتى أنني شعرت باصطدام جسد المركبة بشيء طري ربما اصطدمت بعرف الموجة ، وهنا كان الشاخص منتصباً ، إنه إنسان ، نعم ، نعم ، كان انساناً دون بذة ملاحه ومع ذلك كان يتحرك .

سؤال : هل شاهدت وجهه ؟

جواب : نعم

سؤال : من هو ؟

جواب : طفل .

سؤال : طفل ؟ هل شاهدته من قبل ؟

جواب : كلا . أبداً . لا أذكر ذلك أبداً كان يبعد عني مسافة أربعين متراً أو أكثر قليلاً . وحالما اقتربت منه لاحظت فيه شيئاً لا طبيعياً .

سؤال : هل فهمت شيئاً من ذلك ؟

جواب : سأشرح لكم الآن . لم أكن متأكداً بما أراه في البدء . أدركت

بعد قليل من الانتظار أن الذي أراه يتميز بضخامة . كان هائلاً بل إن كلمة هائل لانفي لوصف حجمه . ربما كان طوله أكثر من أربعة أمتار . أذكر تماماً أن وجهه كان أعلى من وجهي عندما صدمت بجسد المركبة رأس الموجة مع أنني كنت جالساً في القمرة وهذا يعني أنني كنت على ارتفاع ثلاثة أمتار أو أكثر عن سطح المحيط .

سؤال : إن كان ضخماً كما تصفه فلماذا حسبته طفلاً ؟

جواب : كان طفلاً صغيراً جداً ؟

سؤال : ألا ترى يا بيرتون أن إجابتك تعارض المنطق

جواب : لا . لا . أبداً رأيت وجهه . إن تناسق جسده يشير بوضوح إلى حداثة ولادته . تخيلت أنه ... طفل حديث الولادة . لا . لعلي أبالغ قليلاً ربما كان عمره سنتين أو ثلاث . شعره أسود ، عيناه زرقاوتان كبيرتان ! كان عارياً . عارياً تماماً كوليده حديث ، كان مبتلاً ، والأدق كان أملساً وجلده يلمع . كان تأثيره كبيراً عليّ . لم أعد أو من بأبة « فاتا — مورجانا » .

شاهدته بوضوح كامل . كان يعوم فوق الموج يرتفع ويهبط ... عدا ذلك . كان يتحرك كان منظرأ مقززاً .

سؤال : لماذا ؟ هل فعل شيئاً ؟

جواب : بدا وكأنه معروض في متحف ، أي مثل لعبة ، لعبة حية ، كان يفتح فمه ويغلقه ويقوم بحركات عديدة مختلفة . شيء شنيع ! لم تكن حركاته نابعة منه .

سؤال : ماذا تعني ؟

جواب : لم أقرب منه كثيراً . ربما كنت على بعد عشرين متراً . هذا

أدق تقييم . ذكرت لكم كم كان ضخماً . عيناه تلمعان . بشكل عام كان صورة لطفل حي . لكن حركاته كانت شبيهة بمن يتدرب ... كأن أحداً يعلمه .

سؤال : حاول أن تشرح بدقة ماذا تريد أن تقول ؟

جواب : لا أعرف إن كنت قادراً على ذلك . لدي انطباع إنه بديهي . لم أفكر بذلك . لم تكن حركاته طبيعية .

سؤال : هل تريد القول ، جدلاً ، إن حركات يديه لاتشبه حركة الأيدي البشرية بسبب عدم ليونة المفاصل .

جواب : كلا . أبداً . لكن ... لم تكن لحركاته أي معنى . عموماً كل حركة من حركاته تعبر عن شيء ما . تخدم شيئاً ...

سؤال : أهذا رأيك ؟ هل تعتقد أن حركات الطفل دون معنى ؟

جواب : لا أعرف . لكن حركات الأطفال ليست منتظمة ، ليست موجهة ، عامة . أما حركاته ... نعم فهتمت ! كانت حركاته منهجية . كان ينفذها كحركات مترابطة ، كسلسلة ، كمجموعة . كأن أحداً أراد أن يظهر أن هذا الطفل الهائل قادر على تحريك يديه وجسده وفمه . أبشع شيء فيه وجهه ، لأن الوجه أكثر تعبيراً ، كان وجهه ... كلا ، لا ، لا أستطيع تحديد ذلك . كان حياً . نعم حياً لكنه لم يكن بشرياً . أريد القول إن ملامح وجهه طبيعية ، عيون ، لونه ، كل شيء فيه لكن تعابيرها إيمائية . لا .

سؤال : هل كانت تعابيرها تشبه التصغيرات ؟ هل تعرف كيف يبدو

وجه الانسان في حالة الصرع ؟

جواب : نعم شاهدت مثل هذه الحالة . أفهم ماترمون إليه ، لا ، كان شيئاً آخر . حالة الصرع ترافقها دائماً تقلصات وتشنجات ورجفات . أما

حركاته فكانت انسيابية مرنة ، متواصلة ، موسيقية إن صح التعبير . ليس لدي تعبير آخر . وجهه على هذا النمط. أيضاً لا يمكن أن يكون نصف الوجه فرحاً ونصفه الآخر متجهماً ، أو أن يكون قسماً منه مذعوراً مهدداً والقسم الآخر مبتهجاً ، أو شيئاً من هذا القبيل . أما وجهه فكان من هذا النوع تماماً . إضافة لذلك كانت حركاته وألعابه الایمائية تجري بسرعة غريبة . لم أبق هناك طويلاً .. ربما عشر ثوان . وربما أقل ...

سؤال : هل أنت جاد في أقوالك من أنك استطعت أن تلاحظ كل مذكرته خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت ؟ عدا عن ذلك ، كيف استطعت أن تقدر مدة بقائك هناك ؟ هل نظرت إلى ساعتك ؟

جواب : كلا لم أنظر إلى الساعة . أنا ملاح منذ ستة عشر عاما . ومهنتي تفرض على الملاح أن يقدر الزمن بدقة متناهية حتى الثوان . رد فعل . فالملاح الذي لا يستطيع تحديد ظروف وزمن الحدث لا يعتبر ملاحاً حقيقياً . هذا ينطبق على المراقبة أيضاً مع مرور الزمن يصبح الانسان قادراً على استيعاب الاشياء خلال فترة زمنية قصيرة .

سؤال : ألم تر شيئاً آخر ؟

جواب : رأيت. لا أذكر ما رأيت بوضوح . ربما رأيت أكثر مما أتحملة . شعرت وكأن دماغي أمتلأ مما شاهدته . وبدأ الضباب يملأ الفتحة فاضطرت للصعود . لأول مرة كدت أتخطم . رجفت يداي بحيث لم أعد قادراً على توجيه دفة القيادة كما يجب . ربما بدأت أصرخ وناديت القاعدة مع علمي أن الاتصال مقطوع .

سؤال : هل حاولت العودة مرة أخرى ؟

جواب : كلا . اعتقدت بعد أن حلقت في الارتفاع المناسب أنني سأجد « فيخنر » في إحدى تلك الفتحات . أدركت أن هذا يبدو عملاً

لافادة منه . ومع ذلك هكذا فكرت . إذ من غير المستبعد أن أجد « فيختر »
طالما تجري أمور كهذه لذلك قررت أن أدخل في كل فتحة تصادفني .
وبالكاد استطعت إخراج المركبة في المرة الثالثة بعدما شاهدت ما شاهدت
وأدركت أن الأمر خارج عن نطاق قدرتي . لم أستطع فعل ذلك مرة
أخرى . شعرت بالضعف وتقياآت . لم يحدث ذلك معي من قبل . لم أتجشأ
من قبل .

سؤال : هل هذا علامة للتسمم ؟

جواب : ربما . لا أعرف . غير أن الذي شاهدته في المرة الثالثة لا يمكن
اعتباره ناتجاً عن التسمم .

سؤال : وكيف عرفت ذلك ؟

جواب : لم تكن هلوسة . الهلوسة هي ما يكونه دماغي الشخصي ،
أليس كذلك ؟

جواب : كذلك .

جواب : وهكذا فلا يمكن لدماغي أن يكون ما رأيته . لن أصدق ذلك
أبداً لست قادراً على ذلك

سؤال : حسناً حدثنا بدقة أكثر عما رأيته ؟

جواب : أولاً أود أن أعرف تقييمكم لما رويته لكم .

سؤال : ما أهمية ذلك ؟

جواب : هذا أمر مبدئي بالنسبة لي . قلت لكم إنني رأيت مالا أستطيع
نسيانه أبداً . وإن اعتبرت اللجنة حديثي صحيحاً بنسبة واحد بالمئة فقط
فهذا يعني ضرورة البدء بدراسة هذا المحيط دراسة مناسبة . عندئذ سأكمل
حديثي . وإذا اعتبرت اللجنة كلامي مجرد هلوسة فلن أضيف كلمة أخرى .

سؤال : لماذا ؟

جواب : لأن هلوستي — إن كانت هلوسة — فهي أمر شخصي أما أبحاثي عن سولاريس فهي شيء آخر .

سؤال : هل هذا يعني أنك ترفض الادلاء بأجوبتك حتى يتخذ أعضاء اللجنة من ذوي الصلاحيات قراراً بذلك ؟ عليك أن تعلم أن اللجنة لا تملك صلاحية اتخاذ قرارات فورية .

جواب : نعم .

هنا انتهى البروتوكول الأول وكان هناك مقطعاً من بروتوكول آخر مؤرخ بعد أحد عشر يوماً من التحقيق الأول .

« ممثل اللجنة : بعد أن أخذت اللجنة المؤلفة من نائب رئيس البعثة وثلاثة أطباء و ثلاثة بيولوجيين وفيزيائي ومهندس ميكانيكي كافة معطيات السيد بيرتون بعين الاعتبار توصلت إلى أمر هام هو أن المعلومات التي قدمها السيد بيرتون تحوي في مضمونها على هلوسة مجسدة في مجموعة من التصورات الناتجة عن تأثير المناخ السام للكوكب وعن أعراض غم في وعيه رافقه تهيج شديد في مناطق اللحاء الدماغية ويمكن اعتبار المعلومات التي تقدم بها لاميény لها أو تكاد أن تكون .

بيرتون : عفواً . ماذا تعنون بقولكم « لاميény لها أو تكاد أن تكون » ؟

ماذا تقصدون بعبارة « تكاد أن تكون » هل يقصد بذلك ضخامة ؟

ممثل اللجنة : لم أنه بعد . وقد تم تسجيل VOTUM SEPARATUM* لدكتور

الفيزياء السيد « أرتشيبالد ميسينجر » الذي عبر فيه عن إمكانية حدوث ما ذكره بيرتون في الواقع وأن الأمر يحتاج إلى دراسة وافية . هذا كل شيء .
بيرتون : أكرر سؤالاً .

* الرأي الخاص .

مثل اللجنة : هذا واضح . إن عبارة « أو تكاد أن تكون » تعني أن بعض الظواهر الواقعية استطاعت أن تولد لديك هذه الهلوسة يا سيد بيرتون . إن أي إنسان طبيعي يرى أشياء غريبة في شجرة تهتز بفعل هبوب الرياح . فما قولك عندما يتعلق الأمر بكوكب غريب سم عقل مراقبه . لا أعتقد أن في هذا احتقار لك وماهو قرارك فيما أشرنا إليه سابقاً .

بيرتون : أريد أولاً معرفة خلفيات VOTUM SEPRATUM للدكتور ميسينجر .

مثل اللجنة : عملياً لاشيء وهذا يعني أنه لن تجري أية أبحاث في هذا الاتجاه . بيرتون : بخصوص ذلك أريد أن أقول ما أعتقد . وهو أن اللجنة قد عبرت عن عدم احترامها لروح البعثة العلمية وليس لي . أنا لا أقع ضمن دائرة الحسابات وانطلاقاً من تصريحى الأول فيما يتعلق بمتابعة الاجابة عن الأسئلة فإنني أعلن عن رفضي التام متابعة الرد على الأسئلة .

مثل اللجنة : هل هذا كل مالديك ؟

بيرتون : نعم . لي رجاء أن ألتقي بالدكتور « ميسينجر » هل يمكنني ذلك ؟

مثل اللجنة : طبعاً . » .

انتهى البروتوكول الثاني . وفي أسفل الصفحة سجلت بأحرف صغيرة ملاحظة تقول :

إن الدكتور ميسينجر أجرى في اليوم التالي حواراً سرياً مع بيرتون استغرق مدة ثلاث ساعات وتوجه بعده الدكتور ميسينجر إلى مجلس البعثة مطالباً القيام بدراسة معطيات الملاح بيرتون وألح على ذلك .

أكد الدكتور ميسينجر أن بيرتون قدم معطيات جديدة لصالح اتخاذ مثل هذا القرار وهو لا يستطيع الكشف عن هذه المعطيات إن لم يتخذ المجلس

سلفاً قراراً إيجابياً بهذا الشأن . وقف كل من « شينون » و « تيموليس » و « تراخيو » أعضاء هذا المجلس موقفاً سلبياً من هذا الاقتراح . وانتهت المسألة .

احتوى الكتاب أيضاً على صورة لرسالة وجدت بين أوراق ميسنجر وعلى الأرجح كانت مسودة رسالة . لم يستطع « رافينتسر » أن يعرف هل أرسلت هذه الرسالة أم لا وماهي نتائجها .

« ... هذا غباء فريد من نوعه — هكذا بدأ نص الرسالة . — لقد أُنْخِذ المجلس قراره انطلاقاً من حرصه واهتمامه بسمعته وإذا عبرت بدقة أكثر فإن « شينون » و « تيموليس » قد عارضوا مطلبي ، (ولا أهمية لصوت « تراخيو ») . وأتوجه الآن إلى المعهد مباشرة وأنت تعرف أن هذا سيكون مجرد اعلان اعتراض ضعيف . للأسف لا أستطيع أن أبوح بما أخبرني به بيرتون لأنني أعطيته عهداً بذلك . أعتقد أنه قد توصل وهو إنسان دون ألقاب علمية إلى اكتشاف كبير كهذا كان له تأثيره السلبي على قرار المجلس ومع أبخذ العلم أن أي باحث علمي حقيقي يمكنه أن ينظر إلى هذا الملاح وإلى رباطة جأشه وموهبته ودقة ملاحظته نظرة حسد . أرجوك جداً أن ترسل لي في البريد العائد المعطيات التالية :

١ — سيرة حياة فيختر منذ أيام طفولته .
٢ — كل ما تعرفه عن أقربائه وعن علاقته مع أقربائه ، أعتقد أنه ترك وراءه طفلاً يتيماً .

٣ — صورة للمكان الذي ترعرع فيه .
كما أريد أن أخبرك أنني مازلت أفكر بكافة جوانب هذه المسألة . أنت تعلم أن بقعة تشكلت في مركز الشمس الحمراء بعد وقت قصير من تخليق فيختر

و كارتوشي ، تلك البقعة التي تسبب في انقطاع الاتصالات في القسم الجنوبي من الكوكب أي في مكان تواجد قاعدتنا وذلك باستخدام أشعة مجسمة حسب معطيات التابع .

لقد ابتعد فيخنر وكارتوشي عن القاعدة أكثر من بقية فرق الانقاذ .

لم نلاحظ طوال فترة تواجدنا على الكوكب مثل هذا الضباب اللزج الذي ظهر بعد الحادثة . أرى أن ما شاهدته « بيرتون » كان جزءاً من عملية « الانسان » التي ينفذها هذا الغريب اللزج . كما أعتقد أن فيخنر يشكل المصدر الحقيقي لتلك الظواهر التي شاهدها بيرتون ودماغه الآن في طريقه إلى « التشریح النفسي » لأننا لم نفهمه بعد . الحديث يدور حول تجربة إعادة صياغة أو إعادة تشكيل بعضاً من آثار ذاكرته وعلى الأرجح الأكثر منها ثباتاً . أعرف أن هذا يبدو أمراً خيالياً ويمكنني الوقوع في الخطأ . أرجو أن تساعدني أنا الآن على إلاريك* . انتظر جوابك .

أ. مسينجر

بدأ الظلام يسيطر على الحجرة وأصبح الكتاب رمادياً بين يدي والقراءة صعبة . وأخيراً بدأت الأحرف تتمدد . لكن الجزء الفارغ من الصفحة يشهد على أنني وصلت حتى نهاية هذه القصة التي تبدو معقولة جداً على ضوء تجاربي الشخصية . التفت نحو النافذة . كان الفضاء محملياً غامقاً . في الأفق

* اسم إحدى المخططات

بعض الغيوم الشبيهة بقطع جمر نائسة . لم يكن المحيط المغلف بالعتمة مرئياً . سمعت حفيف الأوراق على شبكة أجهزة التهوية .

بدا وكأن الهواء المصحوب برائحة أوزون خفيفة قد تكثف . عمت السكنية المطلقة على المحطة . فكرت أنه لم يبق أي شيء بطولي في قرارنا . لقد ولى عصر الصراع البطولي ، والبعثات الجريئة والموت المرعب ، كما حدث في مصرع فيختر أول ضحية من ضحايا المحيط . لم أفكر بضيوف سنوات أو سارتوريوس ومن هم . أعتقدت أننا « سنكف عن الخجل من بعضنا بعضاً . ولن ننطوي على أنفسنا حتى وإن لم نستطع التخلص من زوارنا . سنتعاد عليهم . سنتعاش معهم . إن بدّل مخترعهم قواعد اللعبة فسنتكيف مع الجديد منها . وربما تعذبنا وتقلبنا ومن الجائز أن ينتحر هذا أو ذاك لكن سيعود كل شيء إلى التوازن في نهاية المطاف » .

ابتلعت العتمة الغرفة التي أصبحت شبيهة بحجرة أرضية . فقط كان شبح المفصلة والمرآة يلمعان في العتمة بواسطة اللمس .

وجدت كيس القطن على الرف . مسحت وجهي بقطعة قطن رطبة واستلقيت على السرير . كنت اسمع حفيف مكيف الهواء يعلو ويهدأ مثل خفقاين أجنحة فراشة . لم أعد أرى نوافذ الحجرة . سيطر الظلام على كل شيء . فجأة لاحظت أمامي دفقة نور باهت لم أعرف مصدرها . لم أعرف ان كانت على الجدار أم هناك بعيداً في عمق الصحراء خلف النافذة وتذكرت كيف أُرعبتني نظرة الفضاء السولاريسي سابقاً .

كدت أبتسم . قربت يدي من عيني . لمعت الأرقام الفوسفورية في ميناء الساعة . ستظهر الشمس الزرقاء بعد ساعة . تمتعت بهذه العتمة وتنفست عميقاً وشعرت بالفراغ والحرية من أية أفكار .

عندما تحركت أحسست بعلبة المسجل الملساء تلامس وركي . نعم ،
غياريان . لقد حفظ صوته مسجلاً على الشريط . لم يخطر في ذهني أن
ابعثه من جديد . سأسمعه . هذا كل ما استطيع فعله من أجله .
أخذت المسجل لآخفيه تحت السرير وسمعت في هذه اللحظة خفيفاً
وصريراً خفيفاً للباب الذي انفتح .
— كريس ؟ تناهي إلى مسامعي صوت هاري هامساً . — هل أنت
هنا يا كريس ؟ ماهذا الظلام ؟
— هذا لايمهم . لا تخافي . اقترني .

المباحثات

استلقيت على ظهري دون أية فكرة . تكاثف الظلام الدامس في
الحجرة . سمعت وقع أقدام . سقطت الجدران . حلق شيء مافوق وارتفع
إلى علو شاهق . تسمرت ملتحفاً بأحضان العنمة . شعرت بشفافيتها المرنّة .
تناهى لي صوت خفقان قلب من البعيد وركزت كل إنتباهي وكل ما بقي
لدي من قوة لمواجهة سكرات الموت ، لكنها لم تأت . كنت أتضاءل . لقد
جعلت السماء اللا مرئية والآفاق البعيدة والفضاء والسحب والنجوم العديمة
الأشكال مني مركزاً لها وهي تبتعد وتكبر . بدلت قصارى جهدي للاختفاء
داخل ماأنام عليه . لكن لم أجد شيئاً تحتى . لم يعد الظلام يخفي شيئاً .
أطبقت يداي على وجهي وأخفيته . اختفى وجهي . عبرت أصابعي من
خلاله . أردت أن أصرخ أن أعوي ...

الغرفة رمادية — سماوية . فقدت الجدران والرفوف والزوايا والأثاث
ألوانها ولم تعد تظهر سوى ملامحها ، كأنها رسمت بخطوط رداء عريضة .
ظهرت لؤلؤة شفافة ناصعة البياض خلف النافذة . كنت مبتلاً تماماً من
التعرق . نظرت إليها . نظرت إلي :
— هل تخدرت يدك ؟
— ماذا ؟

رفعت رأسها . كانت عيناها بلون الغرفة — رمادية ، براءة محاطة برموش

سوداء شعرت بدفع كلماتها قبل فمها .

— كلا ، آ . نعم

احطت منكبيها بيدي . شعرت بالقشعريرة من لمسها . وبهدوء احتضنتها باليد الأخرى .

— هل رأيت حلماً سيئاً ؟

— حلم ؟

— نعم . حلم . ألم تنامي ؟

— لا أعرف . جائز . وربما لم أتم . أنا لا أريد النوم . ثم أنت لماذا تنظر إلي بهذا الشكل ؟

غطت عيني . كان قلبها يخفق قربي بايقاع ودقة . « أداة تمثيل » هذا ما فكرت به . لم يدهشني ذلك حتى لامبالاتي الشخصية . لقد تخلصت من اليأس والرعب . لامست بشفتي جيدها ثم قبلت تجويف حنجرتها الصغيرة الأملس مثل قوقعة الصدف . هنا خفقت نبضات قلبي . نهضت متكئاً على مرفقي . كان الأفق يشبه شفقاً أو فجراً ندياً وقد أحاطته هالة كهربائية زرقاء . اخترق أول شعاع منها الغرفة كسهم ، وبرقت الأشياء داخل الحجرة ببريقه . وتماوجت ألوان قوس قزح في المرآة وعلى مقابض الغرفة والأنابيب المطلية بالنيكل . تخيلت أن الضوء يصطدم بكل شيء وكأنه يريد أن يفلت أن يفجر هذا المكان الضيق . صار مستحيل أن أتابع النظر . التفت جانباً . أصبحت حدقتا عينا « هاري » صغيرتين .

— هل حل النهار ؟ سألت « هاري » بصوت خافت . شبه حلم . شبه حقيقة .

— الحالة هنا دائماً بهذا الشكل ياعزيزتي .

— ونحن ؟

- ماذا تقصدين ؟
- هل سنبقى هنا طويلاً ؟
- أردت أن أضحك لكن صوتي الأصم لم يكن ضاحكاً عندما أجبتها :
- نعم سنبقى مافيه الكفاية . هل تعارضين ذلك ؟
- رُفَّ جفناها ونظرت إليّ بتمعن . ربما غمزتني . وربما تراءى لي ذلك .
- سحبت الغطاء . احمرت على كتفها شامة مثلثة الشكل .
- لماذا تنظر إلي بهذه الطريقة ؟
- أنت جميلة جداً .
- ابتسمت . كانت ابتسامتها مجرد رد لطيف وشكر على مجاملتي .
- حقاً ؟ تنظر وكأنك ... وكأنك
- ماذا ؟
- كأنك تبحث عن شيء
- تتوهمين .
- لا . كأنك تفكر أن شيئاً قد حدث لي أو شيئاً لم أبح به لك .
- من أين أتتك هذه الفكرة ؟
- طالما أنك تفكر فهذا يعني احتمال ... حسناً كما تريد .
- صار القیظ الأزرق الميت خلف النوافذ الملتهبة شديداً ، ظللتُ عيني براحة كفي وبحث عن النظارة . وجدتھا على الطاولة . عدت إلى السرير وعلقت النظارة على عيني . شاهدت صورة « هاري » تنعكس في المرآة . كانت تنتظر . ضحكت عندما تمددت قربها من جديد .
- وأنا ؟
- ادركت فجأة .

— نظارات ؟

نهضت . بحثت في الصناديق وعلى الطاولة قرب النافذة وجدت نظارة قدمتها هاري . جربتها . الحقيقة أنها كانت كبيرة بالكاد تعلق على أنفها . في هذه اللحظة اهتزت الأبواب وبلحظة حل الظلام في المحطة كما تخفي السلحفاة عنقها داخل درعها . خلعت نظارتي ، ورفعت النظارة عن وجهها ووضعتها تحت السرير ، سألتني :

— ماذا سنفعل ؟

— ما يجب أن نفعله ، النوم .

— كريس .

— نعم

— هل أصنع لك كمادة جديدة ؟

— كلا . لاداعي ... ياعزيزتي .

فجأة لأدري لماذا احتضنت كتفها النحيلتين في الظلام الدامس . وآمنت بها وأنا أشعر برجفة كتفها . رغم أنني ... لا أعلم . تراءى لي أنني أئخذها بدلاً من أن تخدعني ... وهذه حقيقة .

استيقظت عدة مرات . وفي كل مرة كنت ألاحظ تسارع دقات قلبي التي تعود لتنتظم ببطء من جديد . شدتها إلي . كنت تعباً للغاية . لامست هاري وجهي وجبيني بخنان وتفحصت بدقة إن كنت أعاني من الحمى . إنها « هاري » ، « هاري » الحقيقية . لا يمكن أن تكون واحدة أخرى .

تغير شيء ما في داخلي من هذه الفكرة . أقلعت عن صراع هذه الأفكار . أخذني النوم فوراً . أيقظتني لمسة خفيفة . شعرت ببرودة طفيفة على جبيني . شعرت بشيء رطب طري على وجهي ، سرعان ما ارتفع بهدوء

ورأيت « هاري » منكبة عليّ . عصرت قطعة الشاش مرتين فوق وعاء خزفي . على الجانب كانت زجاجة دواء ضد الحروق . ابتسمت لي وقالت :
— هل تريد النوم — ومن جديد وضعت قطعة الشاش على جبیني — هل يؤلمك ؟
— كلا .

حركت جلد جبیني . الحقيقة أنني لم أعد أشعر بمكان الحروق . جلست هاري على طرف السرير وقد لفت جسدها بيرنس رجالي أبيض بخطوط برتقالية . وتناثر شعرها الفحامي على ياقته رفعت أكمام البرنس حتى مرفقيها كي لا يعيقا حركة يديها .

شعرت بجوع شيطاني لأنني لم أضع في فمي شيئاً من الطعام منذ عشرين ساعة . ورفعت هاري الكمادة عني . نهضت ، فجأة شاهدت فستانين أبيضين بأزرار حمراء يشبهان بعضهما تماماً ملقيين قربنا ، الأول ذلك الذي ساعدتها على خلعه بأن قصصت ياقته و الثاني جاءت به البارحة لكنها فتحتة وحدها هذه المرة بواسطة المقص وقالت : ربما استعصى السحاب .

كان الفستانان من أروع الأشياء التي شاهدتها حتى الآن . وقفت « هاري » قرب خزانة الأدوية التي ترتبها . ابتعدت عنها ، وخلصت عضضت يدي حتى كاد الدم يسيل منها و أنا أنظر إلى هذين الثوبين ، بالأحرى إلى هذا الفستان المكرر مرتين . قفزت بخفة نحو الباب . كان الماء ما يزال يسيل من الصنبور . فتحت الباب وتسلفت خفية إلى الدهليز . أغلقت الباب خلفي بحذر شديد ، سمعت صوت خرير مياه صنبور واحتكاك زجاج . انقطعت هذه الأصوات فجأة واشتعلت مصابيح السقف الطولانية . صررت على أسناني وانتظرت وأنا أمسك بقبضة الباب ، علماً بأنني لم أكن متيقناً من

قدرتي على إيقافها . كادت قبضة الباب تغلت من يدي إثر دفعة قوية . لم يفتح الباب بل اهتز وبدأ يصدر صريراً مرعباً . تركت قبضة الباب وابتعدت مذهولاً . حدث للباب شيء لا يصدق . لقد تقعر سطحه البلاستيكي الأملس إلى داخل الغرفة . كأنه ضغط بقوة هائلة من طرفه . تمزق الغطاء إلى فتات صغيرة . اشتدت العضادة الفولاذية العارية . فجأة أدركت أنها تحاول شد الباب بقوة إلى الداخل نحوها لتفتحه بدلاً من دفعه نحو الدهليز . لمع شرر لبريق الضوء على السطح الأبيض الشبيه بمرآة مقعرة تلتها قرعة شديدة تصدعت معها كتلة الصفيح التي تجوفت حتى النهاية . انخلعت قبضة الباب وانقضت إلى داخل الغرفة . ظهرت في الحال أيدي مدماة تابعت الشد مخلفة وراءها على الصفيح بقع حمراء . انشطر الباب إلى نصفين وعلقت أطرافه على الجوانب . ظهر كائن أبيض بخطوط برتقالية بوجه مزرق ازرقاق الموت وانكب على صدري . كانت « هاري » تختنق من البكاء .

كان المنظر مروعاً بحيث جمدت في مكاني وإلا لهربت منذ البداية . كانت « هاري » تستنشق الهواء بتشنج وتضرب برأسها على كتفي ثم تهاوت على الأرض . أمسكتها وحملتني إلى داخل الغرفة . مررنا بقرب ردفة الباب المحطمة ووضعتها على السرير . الدم يسيل من تحت أظافرها المحطمة . قلبت يدها وشاهدت جلد راحة كفها الذي انسلخ عن اللحم . نظرت إلى وجهها . كانت عيناها تنظران إلي دون أية تعابير .

— هاري !

وتلعثمت بكلمات لم أفهمها .

قربت إصبعي من جفنها . انخفض جفنها . توجهت إلى خزانة الأدوية . سمعت صريراً انبعث من السرير . التفت . كانت جالسة تنظر بذعر إلى يديها المدميتين وناحت :

— كريس . أنا .. أنا .. ما الذي أصابني .
أجبتها بجفاء :

— جرحت نفسك وأنت تحطمين الباب

شعرت بشفاهي ، وخاصة بشفتي السفلى وكأن النمل يسير عليها .
عضضتها . كانت « هاري » تحدق في قطع البلاستيك المثلمة والمعلقة على
العضادة وشاهدت بأية قوة كانت تقاوم الرعب الذي أصابها .

أخذت قطعة من الشاش الأبيض وذروراً ضد الجروح من الخزانة
وتوجهت إلى السرير. فجأة تساقطت كل الأشياء التي أحملها بيدي وتحطمت
زجاجة الكلودين ولم أنحن لأخذها ، لم تعد هناك حاجة لها .

رفعت يدها . كانت ما تزال الدماء التي تخررت عالقة حول أظافرها .
اختفت جروحها. اكتست راحة كفها بجلد جديد زهري اللون . شحبت
آثار الجراح أمام عيني .

جلست . تأملت في وجهها وحاولت الابتسام لها . لا أعتقد أنني
استطعت فعل ذلك .

— هاري ، لماذا فعلت ذلك ؟

— كلا ، هل أنا

وأشارت بعينها إلى الباب .

— نعم ألا تذكرين ؟

— كلا لقد شعرت بخوف شديد عندما غبت عني و ...

— وماذا ؟

— بدأت أبحث عنك ، ظننت أنك في الحمام ... لاحظت أن الخزانة مزاحة
قليلاً والطريق سالك إليه .

- وبعد ذلك ؟
- ركضت إلى الباب .
- وبعد ؟
- لا أذكر . كأن شيئاً قد حدث فعلاً !
- ماهو ؟
- لا أعرف
- ماذا تذكرين ؟ ما الذي حدث بعد ذلك ؟
- جلست هنا على السرير .
- ألا تذكرين أنني حملتك .
- ماطلت ، تراخت زاويتا فمها إلى الأسفل وتوتر وجهها .
- يتراءى لي ... من المحتمل ... أنا شخصياً لا أعرف .
- وضعت قدميها على الأرض ونهضت . أقتربت من الباب المحطم .
- كريس !
- امسكتها من خلف كتفيها . كانت ترتعش . فجأة التفتت نحوي بسرعة
- وحدقت في عيني .
- همست :
- كريس ، كريس .
- اهديني .
- كريس ... ربما ... كريس ربما كنت مصابة بمرض الصرع ؟
- الصرع ، يارحمن يارحيم !
- أردت أن أضحك :
- مابك ياعزيزتي . هذا الباب ببساطة ... هل تفهمين . هذه الأبواب ،

كلها ... غادرنا الغرفة بعد أن سمعنا صريراً مديداً للأبواب الخارجية وظهر قرص الشمس المتهاوي في المحيط . توجهنا إلى المطبخ الصغير في الطرف الآخر للدهليز . وهناك تصرفت وهاري كأننا أصحاب هذا البيت . قلبنا محتويات الصناديق والبرادات . لاحظت أنها لم تتعب نفسها كثيراً بالطهي . تستطيع فعل ذلك بطريقة أفضل بقليل من فتح المعلبات بمعنى تستطيع فعل ذلك مثلي تقريباً .

ابتلعت محتويات علبتين وشربت عدداً لا يحصى من فناجين القهوة . هاري أكلت أيضاً، لكن أكلها كان أشبه بأكل الأطفال الصغار الذين لا يرغبون بإثارة حنق الكبار، أي بدون إكراه لكن بشكل آلي وبلا مبالاة .

دخلنا غرفة العمليات الواقعة قرب غرفة الارسال . كانت لدي خطة محددة قلت لهاري أنني أريد الكشف عليها . جلست على الكرسي الدوار . تناولت من المعقم حقنة ومصلاً كنت أعرف مكان الأشياء غيباً لشدة ما درسناها على الأرض . أخذت قطرة دم من رأس إصبعها . مددتها على شكل بقعة صغيرة . جففته في الخبر وفي الخلاء الفارغ ذررت عليه ايونات الفضة .. كان لهذه العملية تأثيراً مهدئاً . راقبت هاري وهي على وسادات الأريكة المفتوحة طريقة لإجراء العملية التي قامت بها الأجهزة .

فجأة تعكر هذا السكون برنين جرس الهاتف الداخلي . رفعت السماعة . — أنا كيلفن — أجبته دون أن أرفع نظري عن هاري التي أصابها خمول كأنها انهكت من معاناتها للساعات الأخيرة التي مضت .

— أنت في العمليات ؟ أخيراً ! — سمعت زفير ارتياح . كان سنوات .

ضغطت السماعة على أذني .

— لديك زائر . أليس كذلك ؟

— نعم

- أنت مشغول ؟
- نعم
- تجري بعض البحوث ؟
- وما الغريب في الأمر ؟ هل ترغب أن نلعب دوراً في الشطرنج ؟
- كف عن ذلك يا كيلفن . سارتوريوس يرغب باللقاء معك . أقصد معنا .
- أصابني الذهول .
- هذا خبر فعلاً ! وماذا ...
- قطعت حديثي وختمته :
- هل أنت وحدك ؟
- كلا . لم أعبر لك جيداً . إنه يريد أن يتحدث إلينا . سنجري اجتماعاً بواشطة
- الهاتف المرئي . شرط أن تحجب الشاشة .
- هكذا ! لماذا لم يتصل بي إذن ! هل ينجل ؟
- تلعثم سنوات وقال : شيء من هذا القبيل . وما العمل ؟
- كيف نتفق ؟ لنقل بعد ساعة ما رأيك ؟
- حسن
- لم أر في الشاشة سوى وجهه بحجم راحة الكف . نظر إلى عيني بتمعن
- بعض الوقت . أخيراً نطق بعد كثير من المماطلة :
- كيف هي أحوالك ؟
- مقبولة . وأنت ؟
- أعتقد أنها أسوأ من أحوالك بقليل . إنك لاتستطيع أن
- أترغب بالقدوم إلي ؟
- لقد عرفت قصده . نظرت إلى هاري . كانت متمددة تضع ساقاً فوق

ساق ضجرة تلعب بكرة فضية معلقة بواسطة سلسلة بذراع الأريكة .
 — دع هذا ، هل تسمع ؟ دعه ا جاءني صوت « سناوت » عالياً .
 رأيت جانب رأسه . لم أسمع بقية كلماته . وضع يده على السماعه لكنني
 رأيت حركة شفثيه .

— لا أستطيع القدوم إليك . فيما بعد ، بعد ساعة . وأطفأ الشاشة .
 عقلت السماعه . وسألت هاري بلا مبالاة :
 — من تحدث إليك ؟
 — إنه ... سناوت . سييرنيتيك . أنت لاتعرفينه .
 — أيدوم ذلك طويلاً ؟ هل سيدوم طويلاً
 — ضجرت ؟

وضعت أول جزء من المستحضر في شريط الميكروسكوب النيتروني .
 وضغطت بالتتابع على أزرار المفاتيح الملونة . سمعت أزيزاً صمماً لجال القوى .
 — لاجال للتسلية هنا . إن كانت صحبتي المتواضعة لاتكفيك فهذا أمر
 سيء .

كنت أحدثها وأنا في حالة من الشرود واضعاً فواصل كبيرة بين الكلمات .
 وفي نفس الوقت كنت أسحب بيدي الرأس الأسود الكبير الذي يلمع في
 داخل العدسة . العينية للمكروسكوب . وأضغط بعيني على واقية العين
 البلاستيكية المرنه . تحدثت « هاري » بشيء لم أسمعه . كنت أشاهد من بعيد
 ما يشبه صحراء مترامية الأطراف مطلية بهريق فضي ، توضع فيها تلال
 صخرية مسطحة تبدو متشققة ومضمحلة مغطاة بشيء سديمي . هذه هي
 الكريات الحمراء . وضحت الصورة دون أن أرفع عيني عن العدسة غصت
 قدر استطاعتي في أعماق الفضة الملتهبة . في نفس الوقت كنت أدفع بيدي

اليسرى ذراع التسوية للطاولة . وعندما وقعت الكرة الشبيهة بمجلود في منتصف تقاطع الخطوط السوداء كبرت الصورة . اقتربت العدسة من الخلية المشوهة المقعرة في وسطها والتي بدت كدائرة لفوهة بركان صخرية ذات ظلال سوداء حادة على الحتارات الجانبية . بعد ذلك تحضت الحواف الدائرية من الغارة البلورية لايونات الفضة وابتعدت خارج مجال الميكروسكوب . ظهرت دوائر عكرة كأنها تلمع داخل مياه متألقة ذائبة حتى منتصفها في سلسلة متصدعة زلاية . وبعد أن أوقعت واحدة من تلك القطع الزلاية السمكة في التقاطع الأسود ، ضغطت بسرعة على زر التكبير وبعد ذلك كدت أصل إلى نهاية الطريق في العمق حين غطت ظلال مضاعفة لإحدى هذه الجزيعات العدسة . توضحت الرؤية — الآن !

لكن شيئاً لم يحدث . لم أر البقع النووية المهتزة الشبيهة بالمرق المتواج . توهجت الشاشة بشدة . دفعت الذراع حتى النهاية . تضاعف الأزيز وأصبح حقناً . لم ألاحظ شيئاً . حذرتي رنين الإشارة من عدم احتمال الأجهزة . ألقيت نظرة أخيرة على الفراغ الفضوي وفصلت التيار . نظرت إلى « هاري » . فتحت « هاري » فمها متثابة وحولت تشاؤها برشاقة إلى إبتسامة . سألتني :

— كيف أحوالك ؟

— جيدة جداً . لا أعتقد أن هناك من هو أفضل مني .

كنت أنظر إليها ومن جديد شعرت بحركة التمل على شفتي السفلى . ما الذي حدث ؟ ماذا يعني ؟ كم يبدو هذا الجسد ضعيفاً وهشاً من الخارج . لكنه غير قابل للفناء في حقيقة الأمر . تبين أن أساسه يتكون من ... اللاشيء ! ضربت يدي على غطاء الميكروسكوب الدائري . هل هناك عطل

في الأجهزة ؟ لا تتوضح المجالات ؟ كلا . أعلم أن الأجهزة تعمل بانتظام . لقد تدرجت درجة وراء أخرى . لقد بدا كل شيء كما شاهدته سابقاً في آلاف المستحضرات : خلايا ، خليط زلاي ، جزيئات . لكن الخطوة الأخيرة من السلم لم توصلني لأي شيء .

أخذت دماً من عرقها وسكبته في أنبوبة مستقرة . قسمته إلى دفتين ثم بدأت بتحليله أخذت العملية مني وقتاً أكثر مما توقعت . لقد تناقصت خبرتي . جرت التفاعلات بشكل طبيعي واعتيادي . انتهى رغم أنه

وضعت قطرة حمض مركز على الخرزة الحمراء . صعد دخان من القطرة واكتست بطبقة من رغوة وسخة . التحلل . كحول ميثيلي . بعد ، أكثر ! مددت يدي إلى أنبوبة الاختبار كادت الزجاجة الرقيقة تسقط من يدي عندما أعدت النظر إلى القطرة .

من جديد ظهرت كتلة حمراء — مسودة تحت طبقة الرغوة الوسخة في قعر انبوبة الاختبار. تجددت قطرة الدماء التي احترقت بالحمض ! هذا جنون ! هذا مستحيل !

— كريس ! سمعت صوتاً يناديني من بعيد . الهاتف ياكريس .

— ماذا ؟ آه . نعم . شكراً .

كان الهاتف يرن منذ مدة . لكنني لم أسمعته إلا الآن . رفعت السماعة . — كيلفن .

— « سنوات » . وصلت الخط . نستطيع الآن أن نتحدث .

— أحبيك يادكتور « كيلفن » صدح صوت سارتوريوس الحزين العالي . لقد بدا صوته حذراً متيقظاً وهادئاً من الخارج . كمن يدوس على سقالة خطيرة . أجبته :

— احترامي دكتور « سارتوريوس ».

رغبت في الضحك لكنني لم أكن واثقاً أن أسباب هذا الفرح واضحة في ذهني لأسمع لنفسي بذلك . وماهو الشيء المضحك ؟ كنت أمسك بشيء في يدي : انبوبة الاختبار مع قطرات الدم . هززت الانبوبة . كان الدم متخثراً . أمن الجائز أن كل ما حدث قبل هذا كان مجرد هלוوسة ؟ أمن المحتمل أنه تراءى لي ؟

— أردت إخبار الزملاء عن بعض الأفكار المتعلقة بهذه الفانتومات* كنت مصغ إلى سارتوريوس ولا أستمع في نفس الوقت . كأنه دخل عنوة الى وعي . حاولت أن ابتعد عنه بأفكاري وحدثت في الأنبوبة وإلى الدم المتجمد فيها .

— لندعوهم بالكائنات F قال سنوات بسرعة .

— رائع .

اسود الخط الشاقولي في منتصف الشاشة الذي أشار إلى أنني أستقبل قناتين في وقت واحد . كان على وجهي المتحدثين أن يظهر على طرفي هذا الخط . بقي الزجاج عائماً عدا حاشية تشير إلى وضع التشغيل للأجهزة . لقد غُطيت الشاشات بشيء ما .

— لقد قام كل منا بتجارب مختلفة

من جديد شعرت بالنبرة الخدرة لذلك الصوت الحزين . دقيقة من الصمت . وتابع كلامه :

— اقترح أن نتبادل المعلومات أولاً ، بعد ذلك أستطيع اخباركم بما توصلت إليه شخصياً . هل يمكنك أن تبدأ أولاً يا دكتور « كيلفن » .

* من كلمة فانتوم . (الشبح) .

— أنا ؟

فجأة شعرت بنظرة « هاري » وضعت الانبوبة على الطاولة بدون اهتمام فتدحرجت إلى أسفل المسند الزجاجي . جلست دفعة واحدة على كرسي مرتفع بثلاثة أرجل بعد أن سحبته بقدمي . أردت الاعتذار أولاً لكنني لسبب لا أعرفه أجبت :

— حسناً . محادثة قصيرة . ممتازة ! قمت بأشياء قليلة هي مستحضر كحولي واحد . وتفاعلين . تفاعلين صغيرين . ولدي انطباع أن ...

لهذه اللحظة لم يكن لدي تصور عما سأقوله . بغتة انطلق لساني : — كل شيء عادي . تبدو المسألة مموهة . يغلفها قناع . يبدو الأمر كنسخة نموذجية حسب بعض المعطيات . إنه إعادة صياغة وإنتاج أوضح وأدق من النسخة الأصلية . هذا يعني أننا نجد عند الانسان نهاية البذرة ، نهاية تركيبة الانشطار . أما هنا فيقودنا الدرب لأبعد من ذلك بفضل استخدام تركيب نووي أدق . وسأل سارتوريوس :

— حالاً . حالاً . كيف تفهم ذلك ؟

لم يقل سنوات أية كلمة . كانت أنفاسه المسموعة من خلال السماعة وحدها تشاركنا محادثتنا . نظرت هاري إليّ . أدركت أنني نطقت كلماتي الأخيرة بكثير من التوتر . وعندما عدت لحالتي الطبيعية تفوقعت على الكرسي وأغمضت عيني . كيف أشرح لهم بشكل أوضح ؟

— إن الذرات تشكل العنصر النهائي في تركيب أجسادنا . أفترض أن الكائنات /ف/ مركبة من جزيئات أدق من الذرات العادية . أصغر بكثير . وسأل سارتوريوس دون أن يدهش :

— من الميزونات مثلاً ؟

— كلا ليس من الميزونات ... كان بالامكان اكتشافها فاستطاعة الأجهزة عندي هنا في الأسفل تصل حتى عشرة أس ناقص عشرين أنغستروم* هل هذا صحيح ؟ ومع ذلك لا يلاحظ شيئاً حتى في أقصى درجات التكبير . هذا يعني ليست ميزونات ربما نترونات .

— كيف تتصور ذلك ؟ من المعلوم أن النظام التروني غير مستقر
— لا أعرف لست فيزيائياً . من الممكن أن يمنحهم الاستقرار مجال قوى آخر . أنا لا أفهم شيئاً في هذا المجال . على كل حال إن كانوا مركبين مما أفترضته فهذا يعني أن بناءهم يتألف من جزيئات أصغر بعشرة آلاف مرة على الأقل من الذرات . وهذا ليس كل شيء . إن كانت الجزيئات الزلائية والحلايا مصنعة مباشرة من هذه « الميكروذرات » فيجب أن تكون أصغر حجماً بطبيعة الحال . كذلك يجب أن تكون الكريات الدموية ، لكن شيئاً من هذا لا يلاحظ . انطلاقاً من ذلك يمكن أن نستنتج أن كنه البنية الحقيقية المسؤولة عن أداء وظائف « الزائر » يغوص في الأعماق السحيقة الصعبة الإدراك .

خرج صوت « سنوات » شبيهاً بالصراخ :
— كيلفن !

توقفت مرتعباً . قلت كلمة « زائر » ؟ نعم . لم تسمع هاري ذلك . حتى لو سمعت ذلك فلن تفهم شيئاً . كانت تسند رأسها على يديها وتنظر من خلال النافذة . كان جانب وجهها الرقيق النظيف يرسم على خلفية الشفق الأرجواني . خرسست السماعة صرت أسمع أنفاساً قادمة من بعيد .
دمدم « سنوات » : حديثك فيه شيء من الصحة .

— نعم . ممكن — أضاف سارتوريوس — لكن هناك شيء يخالف ذلك .

* أنغستروم : أسم لعالم سويدي (١٨١٤ — ١٨٧٤) وهي وحدة قياس تعادل جزءاً من عشرة مليارات من المتر . ويرمز لها (Å). تستخدم في العدسات لقياس الأمواج الضوئية ، كذلك تستخدم في الفيزياء النووية .

فالحيط لا يتألف من جزيئات كيلفن المفترضة . يتألف من جزيئات عادية .
وعلقت على كلامه :
— لكنه قادر على تشكيلها .

شعرت بخمول مفاجيء . لم يكن هذا الحديث في مكانه بل لم يكن
ضرورياً .

تمم « سنوات » : هذا يفسر مقاومتهم اللاعتيادية . وقدرتهم على إعادة
توالدهم . ربما كان مصدر الطاقة يقبع هناك . في العمق . إنهم لا يحتاجون
للطعام

— اسمحوا لي بكلمة . صاح سارتوريوس .

إنه لا يطاق ! خاصة أنه لم يتخلص من دوره الذي يتظاهر به .

— أريد الحديث عن الحثيات . عن الأسباب . عن أسباب ظهور الكائنات
/ف/ . اسأل نفسي من أي شيء تظهر الكائنات /ف/ ؟

هم ليسوا بشراً ، ليسوا نسخاً لأنسان محدد ، بل إظهار مادي لما يحتويه
دماغنا نسبياً عن انسان محدد .

أدهشتني دقة تعريفه . هذا السارتوريوس . ليس غيبياً بغض النظر عن عدم
ارتياحي له .

— هذا صحيح — قلت لهما — وهذا ما يفسر ظهور كائنات محددة ...
وليس آخرين . لقد وقع الاختيار على أشد الآثار قوة في الذاكرة ، تلك المعزولة
عن البقية ، رغم عدم امكانية فصلها كلياً عن البقية . وأثناء صناعة النسخة
يمكن أن تتداخل في تركيبها بقايا آثار أخرى ، وتواجدت صدفة قربها . لهذا
يظهر القادم معرفة أكثر من تلك التي كانت تملكها ، وباعادة التكوين
— كيلفن ! صرخ سنوات من جديد .

أدهشني أنه كان يتعقب عدم حذري من بعض الكلمات . يبدو أن سارتوريوس لا يخافها ، هل يعني ذلك أن ضيف سارتوريوس أقل وعياً من ضيف سنوات ؟ خلال لحظة تصورت قرماً أبلهاً يعيش قرب الدكتور العالم « سارتوريوس » .

— نعم ، نعم لاحظنا ذلك — قال في هذه اللحظة — والآن فيما يتعلق بظهور الكائنات ... لقد ولدت فكرة إقامة التجربة علينا بالذات . ربما كانت في غاية البشاعة . عندما تجري أبحاثاً فإننا ندرس النتائج ونتعلم من الأخطاء قبل كل شيء . ولهذا الشكل نكرر البحث بعد إجراء بعض التصليحات عليه . هذا أمر لا يحتاج للمناقشة . أما هذه الكائنات فتظهر في كل مرة دون أن تتم عليها أية تصليحات ، تأتي دون أن تزود بأسلحة إضافية ضد ... محاولتنا للتخلص منها ...

وعلقت قائلاً : باختصار لا توجد حركة وظيفية في العلامة المصححة العائدة كما حدد الدكتور « سنوات » . ماذا نستنتج من ذلك ؟ — فيما يتعلق بالتجربة فهذا يعني خلافاً لا مثيل له في أية علاقة كانت . المحيط .. دقيق جداً . وهذا ما يظهر من طبقتي تصميم الكائن /ف/ لدرجة أنهم يتصرفون كما لو كانوا حقيقة ويفعلون ... لم يتخلص من حرجه .

— كما يفعل الأصليون . أكمل سنوات جملة سارتوريوس . — نعم الأصليون . وفي حال تأزم الوضع بما لا يتناسب مع ... هذا ... الأصلي الوسط . يتدخل شيء يشبه « تشغيل الوعي » للكائن /ف/ وعندئذ يبدأ القيام بأفعال مختلفة عن طبيعة الانسان . — هذا صحيح ، لكننا لانقوم الآن إلا بوصف السلوك المختلف لهذه لهذه الكائنات . ليس أكثر من ذلك . وهذا لن يجدينا نفعاً .

— لست واثقاً من ذلك . دمدم سارتوريوس .

أدركت فجأة سبب عدم ارتياحي له . لم يكن يتحدث بل كان يخطب كما كان يفعل في مناقشات المعهد . ربما لا يستطيع القيام بذلك بنحو آخر . — هنا تدخل في اللعبة مسألة الفردية ، وليس لدى المحيط أي تصور عن هذا المفهوم . هذا ما يجب أن يكون ، يترأى لي ، وأرجو المعذرة يا زملاء . انه بالنسبة لنا ، هذا هو الجانب المزعج في التجربة الذي يفلت منه كلياً ، لأنه يقع خارج حدود ادراكه .

وسألته : ألا تعتقد أن هذا عمل مقصود ؟
أذهلتني هذه الفكرة . وبعدما فكرت فيها قليلاً ، اعترفت إنه لمن المستحيل استثناءها .

— نعم . شخصياً لا أومن بوجود أي عذر أو شماته أو رغبة بتجريحنا بشكل حساس كما يفعل الزميل « سناوت » .

— أنا لا أنسب إليه أية أحاسيس إنسانية أو مشاعر — لأول مرة أخذ « سناوت » دفعة الحديث — لكن هل يمكنك أن تفسر سبب تلك العودة الدائمة ؟

— من الجائز أن هناك آلة مرتبطة تعيد صنع المجموعة نفسها كاملة مثل اسطوانة . قلت ذلك برغبة واضحة لازعاج سارتوريوس .

وخرج صوت الدكتور الحزين :

— أرجوكم الابتعاد عن المهاترة يا زملاء . لم أخبركم بعد بكل شيء ، أعتقد أن اخباركم مسبقاً عن حالة تجاربي مازال عملاً مبكراً ، لكن نظراً لأهمية الحالة الخاصة أقوم بذلك كاستثناء . لدي انطباع أن الحقيقة تكمن في فرضية الدكتور كيلفن . أقصد فرضية التصميم النتروني ... اننا لانعرف مثل هذه

الأنظمة إلا نظرياً . ولم نفترض عدم إمكانية استقرارها . هنا تنبعث فر
وهي القيام بتدمير مجال القوى الذي يمنح هذا النظام الاستقرار ...
لاحظت أن الستارة التي تغطي شاشة سارتوريوس بدأت تتحرك
شق في أعلى الشاشة ظهر من خلاله شيء متحرك زهري اللون . وفي
الغطاء الأسود عن الشاشة .
ارتفع صوت سارتوريوس في السماع :
— ابتعد ! ابتعد

ولم يبق بين يدي الدكتور سارتوريوس المتصارعة شيء كبير ذه
القرص . انطفأت الأجهزة قبل أن أدرك أن ذلك القرص الذهبي
سوى قبعة قش
— سنوات ؟ خاطبته بعد أن استنشقت الهواء .
— نعم كيلفن . أجابني صوت السيبرنيتيك المتعب .
في هذه اللحظة أدركت أنني أحبه ، ولم أعد راغباً بالتعرف إلى
— يكفي لنا لهذا اليوم ؟
— اعتقد ذلك — أجبته — اسمع . تعال إلي . إلى حجرتي إن است
حسناً ؟ أضفت مسرعاً قبل أن يضع السماع .
— اتفقنا — قال سنوات — لكنني لا أعرف متى .
عند هذا انتهت محادثتنا .

الغولة

أيقظني ضوء في منتصف الليل . نهضت متكئاً على مرفقي ، ووضعت يدي على عيني . كانت هاري جالسة قرب قوائم السرير ترجف تحت غطاءها الأبيض منكمشة على بعضها وقد غطى شعرها الفاحم وجهها وتبكي من دون صوت .

— هاري .

تقلصت أكثر .

— هاري ... ما بك ؟

جلست على الفراش . لم أصبح بعد تماماً . كنت أخلص من كابوس شاهده منذ قليل . دفعتني بمرفقها .

— حبيبي .

— لا تتكلم بهذه الطريقة .

— ما الذي حدث يا هاري ؟

كان وجهها مبتلاً من الدموع . كانت قطرات دمعها الشبيهة بدموع الأطفال تسيل على خديها وتلمع في حفرة ذقنها و من ثم تنسكب على الفراش .

— أنت لا تحبني ؟!

— من أين جئتني بهذه الفكرة ؟

— سمعت .

شعرت ببرد يلفح وجهي .

— ما الذي سمعت ؟ لم تفهمي . كان ذلك مجرد ...

— كلا . لا . قلت . لقد قلت أنني لست أنا . لأذهب . أذهب . كنت ذهبت ، لكنني لا أستطيع . لا أعرف كيف ! . أريد ولا أقدر . أنا هكذا ...
دنيئة !

— طفلة !!!

— جررتها نحوي . ضغطت عليها بكل قواي . قبلت يديها وأصابها المألحة المبتلة بالعرق ، وأعدت تكرار بعض العهود والأقسام وطلبت منها السماح ، وقلت لها أن ذلك مجرد حلم مفرز وغبي . هدأت هاري قليلاً وكفت عن البكاء والتفتت إلي .

— كلا ، لا تقل ذلك ، لا داع ، أنت لي لكن ليس بهذا الشكل ...
— أنا لست ...

خرجت الكلمات مني كغيب .

— نعم . أنت لا تحبني . دائماً أشعر بذلك وأتظاهر أنني لا ألاحظ . ظننت أن ذلك مجرد تخيل ... لا إنك ترى نفسك بشكل آخر . أنت لا تعاملني بشكل جدي . كان حلماً ، وكنت أنا من شاهدته في حلمك . دعوتني باسمي .
أنت تقرف مني . لماذا ؟ لماذا ؟

هويت على أقدامها واحتضنتها .

— يا طفلة ...

— لا . لا أريد سماع هذه الكلمات ، كلا لا أريد . هل تسمع ؟ لست بطفلة . أنا ...

انفجرت باكية وغطت وجهها بملاءة السرير . نهضت واقفاً . سمعت حفيف الهواء البارد الذي يدخل من فتحات التهوية . بدأت أتوجس . ارتديت ثوب النوم وجلست على طرف السرير . لامست بيدي كتفها .
— هاري ! اصغ إلي يا هاري . سأقول لك شيئاً . سأقول الحقيقة ... نهضت

بطيء على ساعديها وجلست . لاحظت نبض وريدها تحت جلد عنقها الرقيق .
تجلد وجهي من جديد . شعرت كأنني داخل براد . رأسي فارغ تماماً .
— الحقيقة ؟ كررت كلمتي بصيغة السؤال .

لم أجيبها في الحال وشعرت باختناق في حنجرتي . لقد تعاهدنا على ذلك .
لم يكن أحدنا يتجرأ على الكذب عندما ينطق أحدهما بكلمة الحقيقة . آنذاك كنا
نتعذب من الطهارة الفائقة معتقدين بسذاجة أن ذلك سينقذنا . قلت جاداً :
— كلمة شرف . هاري ...

بقيت تنتظر .
— أنت تغيرت أيضاً . نحن جميعاً نتغير . أنا ... ليس هذا ما أردت قوله .
الواقع ... يبدو أن السبب الذي نجهله سوياً ... هو نفسه الذي يمنعك من
هجري . هذا شيء جميل لأنني لا أستطيع ، أنا أيضاً ...
— كريس !

حملت هاري وهي ملتحفة بملاءة السرير وبدأت أدايعها جيئة وذهاباً داخل
الحجرة . نظرت في وجهي ... وقالت :

— كلا . أنت لم تبدل أنا التي تبدلت . ما الذي يحدث معي ؟ أيمكن ذلك ؟
نظرت إلى الشكل المثلثي الأسود الذي شكل فراغاً في الباب المحطم والذي
نقلت البارحة مساءً قطعه إلى المستودع . « علي أن أبدل الباب » . فكرت
بذلك وأجلست هاري على السرير .

وسألتها وأنا أفق قرب السرير ويديا مسبلتين :

— هل تنامين في أي وقت من الأوقات ؟

— لا أعرف .

— كيف لا تعرفين ؟ فكري بالأمر يا عزيزتي .

— أعتقد أنني لا أنام نوماً حقيقياً . ربما كنت مريضة . كل ما أفعله هو أن

أتمدّد بهذا الشكل وأفكر . وهذا ...

ارتعشت من جديد .

— ما بك ؟ سألتها بهمس وشعرت بانقطاع حبابي الصوتية .

— أفكار غريبة . لا أعرف من أين تأتيني هذه الأفكار .

« عليّ أن أكون هادئاً حتى أسمعها » فكرت بذلك وتبّيات لسماع كلماتها
كمن يتبّيات لتلقي ضربة قوية وسألتها :

— هل تأتيني بمثل ؟

هزت رأسها بتراخ . — هذا يشبه ... مثل ... حول ...

— لا أفهم ...

— كأن الأفكار ... أبعد من ذلك بكثير . ليست من داخلي ... كأنها ...

لا أستطيع التعبير ، لا أجده الكلمات المناسبة ...

— ربما تحلمين — رميت بهذه الكلمات وتنفست الصعداء ... والآن أطفئي

النور . لن يكون لدينا منغصات حتى الصباح . صباحاً سنهتم بالجديد منها إن

شئنا . موافقة ؟

امتدت يدها نحو مفتاح الكهرباء ، وخيم الظلام في الحجرة . تمددت داخل

الفراش البارد ، شعرت باقتراب أنفاسها الحارة . أخذتها في صدري .

— أقوى — همست . ثم أضافت بعد صمت طويل :

— كريس !

— ماذا !

— أحبك .

أردت أن أصرخ .

صباح أحمر ، وقرص الشمس الهائل يقف في أسفل الأفق . وجدت رسالة

ملقاة على عتبة الغرفة . مزقت الظرف . هاري تستحم وأنا أسمع غناءها . بين

الفينة والأخرى كانت تنظر من هناك وقد التصق شعرا المبتل على جسدها . اقتربت من النافذة وقرأت : « كيلفن . لقد بدأنا . أخذ سارتوريوس الطاقة الفعالة على عاتقه . يعتقد أنه قادر على إلغاء استقرار النظام النيتروني . إنه بحاجة لكمية ضئيلة من البلازما كمادة أولية لإجراء التجارب . يقترح أن نخرج في جولة استكشافية لتجلب شيئاً من البلازما في الحاوية . افعل ما تراه مناسباً ، فقط أخبرني عن قرارك ، ليس لدي رأي في هذا الخصوص . أعتقد أن رأسي فارغ من أية أفكار على الإطلاق . أريد منك أن تفعل ذلك لسبب واحد . سيعد ذلك خطوة نحو الأمام . مع أنها ليست خطوة صائبة ، وإلا لن يبقى لنا سوى أن نحسد غياريان . »

هوريك (سنوات)

ملاحظة : أرجوك أن لا تأتي إلى محطة الإرسال . افعل ذلك من أجلي ؟
« الأفضل أن تتصل بي » .

شعرت بانقباض في قلبي عندما قرأت الرسالة . أعدت قراءتها مرة ثانية . ثم مزقتها ورميت قصاصاتها في البالوعة . بدأت أبحث عن لباس لهوري . شعرت بالخوف . هل سيحدث كما فعلت معها في المرة الأولى . لكنها لم تعرف شيئاً ، وإلا لما فرحت عندما أخبرتها أنني سأخرج إلى الفضاء في رحلة استكشافية ، وطلبت منها أن ترافقني . تناولنا إفطارنا في المطعم الصغير (مع ملاحظة أن هاري بلعت الأكل بصعوبة كبيرة كما في السابق) ثم ذهبنا إلى المكتبة . أردت إلقاء نظرة على بعض الدراسات المتعلقة بمسائل المجالات والأنظمة النيترونية ، قبل أن أنفذ طلب سارتوريوس . وقررت في داخلي أن أراقب عمله عن كثب

دون أن أحدد كيف سأقوم بذلك . حطرت في ذهني فكرة مفادها : أن هذا المدمر النيتروني غير الموجود حالياً يمكنه أن يحرق سناوت وسارتوريوس . وآنذاك سأنتظر مع هاري مدة « تنفيذ العملية » في مكان ما في الخارج . في الصاروخ مثلاً . عملت بعض الوقت بالدليل الالكتروني الكبير . طرحت عليه أسئلة أجاب عليها إجابات مختصرة على قصاصات من الورق « لا توجد معلومات في الأرشف » . أو كان يقترح علي الغوص في أعماق أعمال فيزيائية مختصة لا أعرف من أي جانب أقرب منها . لسبب مجهول لم أرغب بمغادرة هذا المكان الدائري الكبير ذي الجدران الملساء المليئة بالخزائن التي تكسد عليها عدد لا يحصى من الأفلام الدقيقة والكتابات الالكترونية .

تقع المكتبة في منتصف المخططة . لا نوافذ لها . إنها النقطة الأكثر عزلة داخل المخططة الفولاذية . من يعلم ؟ . ربما شعرت بالراحة فيها لهذا السبب . بغض النظر عن فشلي الذريع في أبحاثي . تمشيت في هذه القاعة الضخمة حتى وقفت أمام خزانة كبيرة مليئة بالكتب يلامس طرفها العلوي سقف القاعة . كانت مجموعة الكتب الكبيرة هذه مشكوك في قيمتها العلمية . احتفظوا بها كتعبير عن واجب الاحترام نحو ذكرى الباحثين السولاريين الأوائل . احتوت المكتبة على أكثر من ستائة مؤلف كلاسيكي تبدأ من ملاحظات وأبحاث غيزيه التي شاخت وفقدت أهميتها . سحبت كتاباً شعرت بثقله فوراً وجلست على أريكة اتصفحه . وجدت هاري لنفسها كتاباً أيضاً . استطعت قراءة بعض الأسطر من كتابها من خلف كتفها . كان كتاباً نادراً يعود تاريخه إلى رحلة الاستكشاف الأولى . ويعد كملكية شخصية لغيزيه نفسه واسمه « الطبخ الكوكبي » . راقبت هاري وهي تقرأ بانتباه طريقة إعداد المأكولات الملثمة لظروف رواد الفضاء القاسية ، دون أن أتفوه بكلمة . ومن ثم عدت إلى كتابي المستقر على ركبتني . « عشرة أعوام من دراسة سولاريس » . لمؤلفه غيزيه . لقد نشر هذا

العمل في سلسلة « سولاريسين » . ولأجزائه من الجزء الرابع وحتى الثاني عشر أهمية خاصة .

لم يكن غيزيه يمتلك خيلاً واسعاً . مع ملاحظة أن هذه الخاصية لا يمكنها إلا أن تسيء إلى بحاثه سولاريس ، لأنني أعتقد أن الخيال والقدرة السريعة على تكوين الفرضيات لا يشكل خطورة في أي مكان .

أخيراً ، أعتقد أن كل شيء يمكن حدوثه على هذا الكوكب . إن وصف الأشكال المتكونة من البلازما لا نظير له ودقيق بشكل مطلق . مع أنه لا يتعرض للتدقيق بسبب عدم تكرار المحيط لعمليات ارتقائه ونشوئه إلا في حالات نادرة . إن ما يدهش مراقبها أول مرة ، هو مقاساتها الضخمة والغازها المحيرة . ولو أن هذه العمليات ظهرت في مكان آخر وبقياسات أصغر لاعتبروها « نتائج للطبيعة » أو أحداثاً تجري صدفة كلعبة القوى العمياء . إن العلماء من الدرجة الوسط والعلماء الكبار يعتبرون ضعفاء أمام تشكيلات سولاريس المختلفة واللامنقطعة ، والتي لا تسهل بدورها عملية الاتصال بهذا المحيط الحي والشاذ . لم يكن غيزيه من هذا الصنف أو ذاك من العلماء . كان مجرد مُصنّف متحذلق من نوعية أولئك الرجال الذين يخفون وراء هدوئهم الخارجي اندفاعاً للعمل لا حدود له يطغى على كافة أمور حياتهم . ظل غيزيه يستخدم اللغة الأدبية طالما استطاع أن يسخرها لوصف تلك الظواهر . وعندما امتنعت هذه اللغة عن الانصياع لأفكاره بدأ يستخدم كلمات جديدة كثيرة لا تتناسب كثيراً في وصف تلك الظواهر التي تحدث عنها ، مع ملاحظة هامة ، هي أنه لا يوجد أي اصطلاح علمي يمكنه تكوين تصور دقيق عما يحدث على سطح سولاريس . وتبدو اصطلاحات غيزيه مثل: « الأشجار الجبلية » ، « المتطاولات » ، « الأحذب » ، « العمود الفقري » ، « المتسارعات » ، « المتأثلات » ، و

« المقلدات » ، و « اللامتناهات » ركيكة لدرجة فظيعة . بيد أنها تشكل تصوراً عن سولاريس حتى لأولئك الذين لم يشاهدوا سوى صور باهتة وأفلام ناقصة عن الكوكب . لا شك أن هذا المصنف الأخلاقي قد ارتكب إنمماً كبيراً بحق الكثيرين بسبب متهاته هذه . من المعلوم أن أي إنسان ، ومهما كان شديد الحذر ، فإنه يبدع فرضيات حول أي موضوع حتى لو لم يكن يعرف عنه شيئاً . لذلك اعتقد غيزيه أن « المتطاولات » تشكل الظاهرة الأساسية ، وقارنها بضخامة وتدفق وهول أمواج البحار الأرضية . إن كل من يتمتع جيداً في الجزء الأول من مؤلفاته يلاحظ أنه كان يدعوها في بادئ الأمر « بالمتدفقات » . أصيب هذا المُتَطَرِّ المؤمن بمركزية الأرض بالعجز ، ولولا ذلك لاختلطت عليه كافة الأمور .

إذا ما بحثنا على سطح الأرض عن نظائر لوصف هذه التشكيلات ، فإنها تفوق بمقاييسها وادي كولورادو الكبير * . وهي على شكل كتل تعلوها طبقة من رغوة هلامية كثيفة (مع العلم أن هذه الرغوة تتجمد في قطع مسننة هائلة سريعة الانكسار ، وإلى تخريجات ذات خلايا ضخمة ، حتى اعتقد بعض العلماء أنها تشكل « الهيكل العظمي المتنامي » .

تقع المادة الرئيسية تحت القشرة مباشرة ، وهي أكثر مطاطية ، وتبدو كعضلة متوترة . ومع ذلك مثل عضلة . تتصلب هذه العضلة على عمق عشرات الأمتار لتصبح صلبة كالصخر مع محافظتها على ليونتها . أما « المتطاولات » فتمتد على طول كيلومترات عديدة من بين الأغشية المشدودة على التضاريس الغربية الأشكال والتي تتعلق بها الهياكل العظمية . تبدو المتطاولات كأشياء مستقلة . تشبه بشكلها الخارجي كتلاً اسمنتية جبارة ابتلعت جبالاً بأكملها . وهي تقوم

* اسم واد يقع في الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم)

الآن بعملية الهضم . وتنبه أعضاء جسدها المشدود الشبيه بسمكة بواسطة حركات بطيئة متذبذبة . هكذا يبدو شكلها الخارجي من على متن أجهزة الطيران .

في حال اقترابك منها ، أي عندما تصبح « ضفتي الوادي » على ارتفاع مئات الأمتار ستبدو الكتل الاسمنتية كأنها تمتد إلى أفق الفضاء في حركة دورانية تسبب الغثيان . وتدرج تدريجياً أنك تقع فوق مركز القوى الفعالة ، تلك القوى الداعمة لمنحدرات السائل الكريستالي المتصاعدة إلى السماء رويداً رويداً . غير أن ما يسد حاجة الرؤية لا يكفي حاجة العلم .

مرت أعوام كثيرة سادت فيها مناقشات عديمة الجدوى ، لمعرفة ما يجري في نوى « المتطاوولات » ، تلك الملايين التي تغضنها الرحاب اللامتناهية للمحيط . ساد اعتقاد أن هذه « المتطاوولات » ما هي إلا أعضاء المحيط تجري فيها عملية تبادل المواد مثل عمليات التنفس ونقل المواد الغذائية وأشياء أخرى لا يعرفها إلا المهتمكين في قراءة كتب المكتبات .

انهارت الفرضيات الواحدة وراء الأخرى بفضل آلاف الأبحاث الدقيقة والمغامرة أحياناً . هذا فيما يخص « المتطاوولات » فقط . مع أن أشكالها بسيطة ومستقرة للغاية . (كانت تستمر في أشكالها عدة أسابيع أحياناً . وهذا يشكل ظاهرة استثنائية للغاية) .

أما الشكل الغامض والمذهل الذي كون امتعاضاً حاداً لمن راقبه فكانت « المقلدات » ويمكن القول أن غبزيه ولع بها ونذر نفسه لدراستها ووصف وشرح جوهرها .

في تسميته هذه ، حاول غبزيه أن يعكس أهم ميزة فيها تأثير الإنسان . هذه الخصوصية التي تظهر في سعيها الدائم لتكرار تكوين الأشكال المحيطة بها بغض

النظر عن قربها أو بعدها عنها .

في أحد الأيام الرائعة ظهرت تحت سطح المحيط دائرة عريضة ملساء بنهايات ممزقة قائمة اللون كأنها طليت بالقار . بعد مرور عدة ساعات من الزمن . بدأت الدائرة تنقسم إلى مقاطع . تتجزأ بدورها إلى أجزاء أخرى وهي تصعد في نفس الوقت إلى سطح المحيط . يستطيع كل من يرى هذه الظاهرة أن يقسم أن ما يراه ما هو إلا صراع حاد و قوي ، لأن فوهات البراكين الممتدة الشبيهة بشفاه معوجة ، كانت تسرع إلينا ، مع عدد لا يحصى من الأمواج الدائرية التي تتكدس فوق عمق الطن الأسود المتأرجح والمتمدد ، لتتصب واقفة ، ومن ثم تنهار من جديد إلى الأسفل . وكل انهيار يعادل مئات آلاف الأطنان من البلازما يرافقه لثوان عديدة وعد لزج . أريد القول رعد شبيه بحركة المضغ . وكل ذلك يجري ضمن مقاييس هائلة . بدأت هذه الغولة الفاتنة تتراجع إلى الأعماق . كانت كل ضربة من هذه الضربات المتتالية تيمعها وتحيلها إلى ندف متجزئة متعلقة كأنها أجنحة مبتلة . وتبتعد العناقيد المستطيلة لتزرع في عقود طويلة تنصهر مع بعضها لتعوم نحو السطح جارة معها قرص الأم المحطم الذي يبدو وكأنه يتعلق بها . في الوقت نفسه تتابع الأمواج الدائرية انهيارها بدون كلل من الأعلى لتغطس في الأعماق أكثر وأكثر .

كانت هذه اللعبة تستمر أحياناً ليوم وأحياناً أقل .

أطلق الطبيب غيزيه اسم « المقلدين الخدج » على هذه الحالة . وكأنه يملك معلومات دقيقة عن الهدف النهائي لكل جائحة من هذه الجوائح . ألا وهو ولادة « مقلد كامل » — بمعنى تكوين مستعمرة بوليبيية * لمتناميات بيضاء (عادة

* بوليب . من الكلمة الاغريقية (رجل PUS عديد POLY) أي متعدد الأرجل . وتعني شكل حيوان يجتر في حالة الخلوس . ولي معناها الطبي ، هي عارة عن نموات شاذة على شكل حراثيم أو فيروسات تنمو على قشرة ملساء مثل الأنف ، الرحم . (المترجم)

يكون حجمها أكبر من مدينة أرضية) — بهدف محاكاة الأشكال المحيطة بها .
وهنا من الطبيعي جداً أن يظهر اختصاصي سولاريسي جديد . إنه إيفينس الذي
أقر بالطور الأخير لهذا الانتكاس والتحول والانطفاء ، لكن بأشكال مختلفة ،
يبدو أن ظهورها مرتبط بمدى تفرع أجزائها وتحررها من السلطة « الأمومية » .
لكن غيزيه الذي كان حذراً مثل ثملة تزحف فوق شلال متجمد في وصفه
للتشكيلات السولاريسية الأخرى ، كان واثقاً من نفسه في وصف هؤلاء
المقلدين . حتى أنه وضع أنظمة لبعض مراحل تكوين المقلد وذلك حسب درجة
نموه وتكامله .

يبدو للمراقب من علو . أن المقلد يشبه المدينة . وهذا خطأ ناتج من البحث
عن مثيل له في الظواهر المعروفة . إذ تحاط كافة الأماليد مع قممها — عندما
تكون السماء صافية — بطبقة من الهواء الحار . مما يسبب في تكوين ذبذبة
وهمية ، وإلى تبدل في الأشكال التي يصعب تحديد ملامحها بطبيعة الحال .

يبدأ التفاعل عند مرور أول سحابة . تنفصل الطبقات وتندفع إلى الأعلى
قشرة متطاولة شبيهة بالقرنبيط تكاد تنفصل كلياً عن أساسها . سرعان ما
يشحب لونها . وبعد دقائق معدودة تقلد شكل السحابة المارة بدقة متناهية .
ويلقي هذا التشكيل ظلالاً حمراء وتبدل قمم المقلد من لحظة لأخرى ، مع
ملاحظة أن حركة الغيمة المقلدة تكون دائماً في الاتجاه المعاكس لحركة الغيمة
الحقيقية . أظن أن غيزيه يتبرع بيده مقابل أن يعرف سبب حدوث ذلك .

هذه الأعمال « الفردية » ليست ذات شأن قياساً بالنشاط العفوي للمقلد
« المثار » من ظهور المواد والتصاميم التي يجلبها القادمون إلى سطحه من الأرض .
إنه يعيد تصميم كل ما يقع حوله ضمن إطار يتراوح قطره بين ١٢ — ١٥ كيلو
متر . في غالبية الأحيان يكون المقلد أشكالاً مكبرة . وأحياناً يشوهد صانعاً

أشكالاً كاريكاتورية . أو يبالغ في تبسيطها وخاصة أثناء تقليد الآليات . طبعاً ، يستخدم المقلد لصناعة هذه الأشياء نفس الكتلة التي فجرها المحيط ، التي سرعان ما تصبح بيضاء اللون .

تتعلق هذه الكتلة في الهواء بدلاً من أن تسقط . وتلتحم حبالها السرية المتقطعة مع القاعدة التي تسير عليها ببطء وفي نفس الوقت تتشنج ليكبر حجمها . أو تنفجر لتكوّن برشاقة تصاميم معقدة . وبفس السرعة تلك تتكون العارضة أو الدقل .

تجدر الإشارة إلى أن المقلد لا يعير اهتمامه للناس ، والادق ، لا يعير اهتمامه للكائنات الحية مثل النباتات التي أحضرها العلماء الدؤوبون إلى سولاريس بهدف إجراء التجارب عليها ، لكنه يقلد بسرعة ، المونيكان * والدمية ، والكلب البلاستيكي ، أو الشجرة البلاستيكية . إنه يقلد كل شيء مصنوع من أية مادة كانت .

يجب الأخذ بعين الاعتبار أنه نادراً ما يخضع المقلد لأمنيات الخبراء على سطح سولاريس . فهو يغيب ويظهر من وقت لآخر . أما المقلد الناضج فله « أيام عطلة » إن صح التعبير . لا يقوم أثناءها بأي فعل سوى أن ينبض ببطء . مع أخذ العلم أن نبضه لا يلاحظ بالعين المجردة . لأن إيقاع مرحلة واحدة من نبضاته يستغرق مدة ساعتين . لقد استخدمت أساليب تصوير سينمائية خاصة للتأكد من صحة هذه الظاهرة .

في مرحلة السكون هذه تسهل عملية دراسة المقلد الشيخ ، لأنه يكون مغموراً في المحيط مستنداً على القرص . وتعلو فوقه الأشكال التي تقدم دعامة متينة للأرجل .

* المونيكان : هي القلائل البلاستيكية التي تلبس وتوضع في علات الألبسة والأزياء .

طبعاً ، يمكن الوصول إلى نوى المقلد في أيام عمله . بيد أن درجة الرؤية في هذه الحالة تقترب من الصفر بسبب إطلاق أماليد الكتلة المختصة بالتقاليد لسوسينزيونات * غراونية منفوشة شبيهة بالثلج . تصعب مراقبة هذه الأشكال من مسافات بعيدة لصغر أحجامها . فهي لا تزيد عن حجم الجبال الأرضية . إضافة لذلك يصبح الأساس « الفعال » في المقلد وحلياً من الثلج اللزج الذي يتحول بعد ساعات إلى قشرة قاسية أطرى بقليل من الخفان .

أخيراً ، من السهل أن يتوه الملاح من دون تجهيزات خاصة في متاهات الهياكل الضخمة التي توحى لنا بأشكال أعمدة مهشمة ، أو نوافير مياه حارة ، هذا ما يحدث أثناء سطوع نور الشمس ، ذلك النور الذي لا يستطيع أن يتسرب عبر غيوم الكتلة التي تطلق في الفضاء « انفجارات كاذبة » طوال الوقت .

إن مراقبة المقلد في أيامه السعيدة (والأصح إن قلنا السعيدة للعلماء) يصبح مصدراً لتسجيل انطباعات لا تنسى ، في هذه الأثناء يعاني المقلد من « تحليقاته الابداعية » عندما تبدأ النتائج المضادة للطبيعة بالظهور . عندئذ يكون المقلد أشكاله الخاصة الشبيهة بالأشكال المحيطة به . أحياناً يكون أشكالاً في غاية التعقيد ، وأحياناً يقوم بعمله « كعمل روتيني » . وهكذا يمكنك أن تسخر ساعات طويلة من سعادة هذا الفنان التجريدي ، ومن الاحباط الذي يصيب العالم الذي يحاول عبثاً أن يدرك أي شيء مما يدور حوله .

أحياناً تظهر للمقلد أخطاء طفولية واضحة المعالم . ويقع أحياناً في انحرافات بارموترية ، إذ تبدو الأشياء التي صنعها متفخخة بشكل واضح مثل الفيل . ومن الجلي أن المقلدين العجز كثيراً ما يصنعون أشياء مثيرة للضحك الحقيقي .

* Suspensio : كلمة لاتينية تستخدم للتعبير عن نظام مشنت يتألف من قسمين مواد سائلة ترتفع عليها مواد قاسية صلبة . (المترجم)

انكب العلماء في سنوات بحوثهم الأولى على دراسة المقلدين ، معقدين أنهم يشكلون مراكز المحيط السولاريسي من أجل تجسيد أمنية اللقاء بين حضارتين . وسرعان ما تبين وهم هذا الحديث عن اللقاء ، لأن الأشياء كلها كانت تنتهي بزيف الأشكال كما تبدأ . لذلك لم يتوصلوا إلى معرفة أي شيء .

يوماً بعد يوم بدأ العلماء يتوجهون في أبحاثهم اليائسة إلى تقمص الآلهة في أشكال إنسانية أو حيوانية ، تلك الأشكال التي كانوا يشاهدونها في الإبداعات المختلفة للمحيط الحي و يرون فيها « أعضاء مفكرة » . أو « نهايات » . أما العلماء من أمثال مارتينس وإيكوناي فرأوا فيها « متسارعات » أو « أعمدة فقرية » مثل غيزيه . غير أن هذه الرؤية التي تعتبر هذا الشواظ الشمسي للمحيط الحي الذي ينطلق في الفضاء بارتفاع يصل إلى ثلاثة كيلومترات مجرد « نهايات » ، هي أشبه برؤية براكين الكرة الأرضية ، كألعاب جمبازية .

إن مُصَوِّر (أطلس) الأشكال المتوالدة من المحيط الحي تتكرر باستمرار على سطحه بحيث يمكنك خلال يوم واحد أن تتعرف على عشرات ، بل مئات الأشكال التي تحتاج لأكثر من ثلاثمائة تسمية على سبيل المثال .

أما الشيء اللاإنساني بتاتاً ، بمعنى عدم وجود شبيه له على الإطلاق مما رأيته العين البشرية على الأرض فهي « المتأثرات » حسب مدرسة غيزيه . وأصبح واضحاً أن المحيط لا يخفي أية أفكار عدوانية ، ولا يقوم بأية أفعال من هذا القبيل . ولم يهلك في لجة البلازما إلا من أراد ذلك متقصداً ، (وهنا لا أتحدث عن الحوادث المؤسفة الناتجة عن تحطم جهاز التنفس أو المكيف) . حتى أنه يمكن اختراق الأنهار الأسطوانية « للمتطاولات » والجذوع الغريبة « للأعمدة الفقرية » الناتجة بدون ثقة بين السحب ، وذلك بالمرور فيها على متن طائرة - أو أي جهاز طيران آخر ، من دون أن يتعرض أحد لأي نوع من أنواع الخطر ،

إذ تقوم البلازما بإفراغ الطريق أمام الجسم الغريب بسرعة تساوي سرعة الصوت في فضاء كوكب سولاريس ، شاقة — إن أجبروها على ذلك — نفقاً عميقاً حتى على سطح المحيط . (مع أخذ العلم أن الطاقة المستخدمة لهذا الغرض هائلة جداً)

حافظ العلماء الذين درسوا المتائلة بحذر شديد على أسس القواعد الأمنية أثناء عملهم في تقدمهم أو تراجعهم ، تلك القواعد الشكلية والمعروفة لدى أطفال الأرض . وقد نفذها أولئك العلماء الذين اخترقوا أعماق المتائلة لأول مرة .

لا يمكن تفسير هذا الرعب الذي تولده تلك العلاقات من خلال شكلها الخارجي على الرغم من أن أشكالها تولد كوابيس مرعبة . على الأرجح يتولد الرعب من لا استمرارية الأشياء وعدم استقراريتها ، حتى أن عملية مخالفة القوانين الفيزيائية تتم في داخل هذه العلاقات . هذا ما دفع العلماء للاعتقاد بأن المحيط الحي ما هو إلا كائن عقلائي .

تظهر المتائلة بغثة ، ويشبه تشكلها عملية انفجار . يبدأ المحيط باللمعان وكأن عشرات الكيلومترات المربعة من سطحه مغطاة بالزجاج مع ملاحظة هامة أن درجة لزوجته وإيقاع توجّه لا يتبدلان .

نادراً ما يحدث أن تتكون « المتائلة » في مكان القمع الذي امتصته « المتسارعة » . بعد مضي بعض الوقت تصبح الغيوم زجاجية وتنطلق إلى أعلى على شكل فقاعات غريبة . تتشوه أحياناً ، تتحطم في أحيان أخرى ، وتنعكس فيها السماء بأكملها من شمس وغيوم وأفق .

لا مثيل للعبة الألوان هذه ، من انطفاء الضوء أحياناً ، أو انكساره في أحيان أخرى ، خاصة تلك المؤثرات الضوئية الحادة النابعة من « المتائلة » التي تظهر

مبل غياب الشمس في الأيام الزرقاء . في هذه الأثناء يتولد انطباع أن الكوكب يلد في كل لحظة كوكباً آخر أكبر منه حجماً بمرتين . يخرج النموذج بصعوبة من الأعماق ويبدو براقاً من ألسنة النار . وعندما يصل إلى القمة يتصدع إلى قطاعات شاقولية . لا يعد هذا التصدع انهياراً ، إذ تمتد هذه المرحلة الجديدة التي أخذت تسمية لا تتناسب معها « مرحلة الكوكب الزهري »، تمتد إلى عدة ثوان . تبدأ هذه القناطر الصاعدة إلى السماء فوراً بتشكيل حبال قصيرة تجري في داخلها مئات العمليات .

بعد مضي بعض الوقت تبدأ « المتائلة » بعرض أكثر خواصها إثارة ، إذ تبدأ بصنع نماذج ، و الأدق إن قلنا ، تبدأ بمخالفة قوانين الفيزياء . وتجدر الإشارة أنه لا توجد متائلتان متشابهتان في وقت واحد ، لأن هندسة كل واحدة منهما ، تعتبر بمثابة اختراع جديد للمحيط .

بعد ذلك تبدأ المتائلة بصنع ما يسمى عادة « بالآليات الفورية » في داخلها ، مع أن هذه التصاميم لا تشبه في أي من وجوهها الآلات التي ابتكرها الإنسان ، والحديث يدور هنا نسبياً عن الهدف الضيق للفعل الذي يبدو « ميكانيكياً » . تشكل النوافير الصاعدة من الأعماق أروقة ثخينة ، أو دهاليز تتفرع في كافة الاتجاهات ، كما تشكل أغشية نظام الحبال المتقاطعة على السطح والمتعلقة بالقبب .

تثبت المتائلات صحة تسميتها لأن تركيبة كل قطب من قطبيها تتناسب كلياً مع تركيبة القطب المقابل حتى في دقائق الأشياء .

بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة يبدأ هذا التشكيل الهائل الغوص في المحيط . أولاً يبدأ بانحناء محوره الشاقولي من ثمانية إلى إثنتي عشر درجة .

تختلف المتائلات في أحجامها . منها الكبيرة ومنها الصغيرة ، ولكن حتى

المسحوخ منها ، تعلو فوق سطح المحيط أكثرو من ثمانمائة متر بعد أن تغوص فيه ، ويمكن مشاهدتها من مسافة عشرات الكيلومترات .

تندعم خطورة التحليق داخل المتماثلات بمجرد وصولها إلى حالة التوازن وذلك بعد أن يتوقف الهيكل عن الغوص ويعود إلى وضعه الشاقولي . وتبدو قمة المتماثلة أكثر إثارة للعلماء . إنها مثل قبعة قطبية ناعمة تحيط بالفضاء المحرم مثل شبكة نوافذ وأفاق وحُجَرٍ داخلية . عموماً تبدو هذه المرحلة كنموذج لمعادلة صعبة ذات مجاهيل ثلاثة .

من المعلوم أنه يمكن التعبير بلغة الهندسة العالية عن أية معادلة كانت ، كما يمكن بناء جسم هندسي يكافؤها . من خلال هذا المفهوم يمكننا اعتبار المتماثلة قريبة من مخاريط لوباتشيفسكي * ، ومن منحنيات ريمان ** السلبية . إنها قريبة بعيدة بسبب تعقدها الذي لا يوصف . على الأرجح تتكون المتماثلة من عدد كبير من الكيلومترات المكعبة كنموذج لنظام رياضي متكامل ، مع ملاحظة هامة أن هذا النموذج يعد بمثابة معادلة من أربعة مجاهيل ، لأن زوائد المعادلة تنعكس زمنياً أيضاً ، وذلك أثناء جريان التبدلات فيه .

طبعاً ، كانت أبسط فكرة لتفسير هذه الظاهرة ، هي النظر إليها « كآلة رياضية » للمحيط الحي تصفه بمقاييس تتناسب وعمليات الحسابات الضرورية له والمجهولة الأغراض بالنسبة لنا . والآن لم يعد أحد يؤيد نظرية فيرمونت هذه . ولم يكن هناك أي عجز في محاولاتها تكوين أي شيء قريب أو مرئي من نماذج

* لوباتشيفسكي . بيكيتا إيفانوفيتش لوباتشيفسكي (١٧٩٢ — ١٨٥٦) كان عميداً لجامعة قازان من عام ١٨٢٧ — ١٨٤٦ . نشر اكتشافه عامي ١٨٢٩ — ١٨٣٠ . لم يحظ اكتشافه باعتراف معاصريه . كان اكتشافه نفساً للهندسة الاقليدية التي سادت مدة ألفي عام . تسمى هندسته . بهندسة لوباتشيفسكي م .

** بيرنهار ريمان . (١٨٢٦ — ١٨٦٦) عالم رياضيات ألماني شهير م .

المتاثلات . وكل ذلك لم يثمر عن شيء .

المتاثلات فريدة من نوعها ، كما هي فريدة كافة العمليات التي تجري في داخلها . أحياناً يتوقف الهواء عن إصدار الأصوات . أحياناً تكبر أو تصغر عوامل الانكسار ، وتظهر تبدلات في إيقاعية التجاذب إقليمياً ، وكأن للمتاثلات قلب جاذبي . ومن وقت لآخر كانت بوصلات العلماء تبدأ ذبذبة جنونية تظهر وتختفي معها طبقات الأيونات العالية ... يمكننا الحديث مطولاً عن هذه الظواهر مع ملاحظة هامة أنه في حال الكشف عن أسرار المتاثلات فستبقى اللامتاثلات ...

لقد قاست الرحلات الاستكشافية مئات الكيلومترات من أعماق المتاثلات . ونشروا أجهزة تسجيل وكاميرات سينمائية أتوماتيكية ، وسجلت العيون التلفزيونية للأقمار الاصطناعية عملية انبعاث ونمو واندثار التشابهات والمتطاولات . وامتلات المكاتب ورفوف الأرشيف بالمعلومات التي يصعب الحصول عليها من دون دفع مبالغ كبيرة أحياناً . وقتل سبعمائة وثمانية عشر إنساناً أثناء الجوائح التي لم يستطيعوا الخروج منها بعد أن حكمت العمالقة عليهم بالموت . مات من بينهم مائة وستة أشخاص في حادثة واحدة شهيرة ، لأن غيزيه نفسه مات فيها بعدما أصبح عجوزاً بعمر يناهز السبعين عاماً . كذلك هلك تسع وسبعون شخصاً في ألبستهم المدرعة مع آلاتهم وأجهزتهم وقد التهمهم انفجار طمي وحلي خلال ثوان قليلة ، كما أسقط هذا الانفجار برشاقته سبعا وعشرين شخصاً متبقين كانوا يخلقون في طائراتهم العادية منها والمروحية فوق مكان الأبحاث . يقع مكان تلك الأبحاث على نقطة تقاطع الخط المتوازي الثاني والأربعين مع خط الزوال التاسع والثمانين ، وهي معلمة على الخارطة « بمقبرة المائة والسته » . هذه النقطة موجودة على الخارطة لا يميزها أي شيء عن باقي نقاط المحيط .

لأول مرة في تاريخ أبحاث سولاريس ارتفعت أصوات آنذاك تطالب بتنفيذ الضربات النووية . هذا شيء أبشع من عملية انتقام ، لأن الحديث يجري عن تدمير شيء لا نفهمه . أثناء مناقشة هذا الاقتراح هدد تسانكين الذي عين صدفة رئيساً للمجموعة الاحتياطية لغيزيه ، بأنه سيفجر المحطة بنفسه ومن معه من المتبقين والبالغ عددهم ثمانية عشر شخصاً في حال الموافقة على قرار باستخدام الأسلحة النووية . لهذا الوقت لم يعلن رسمياً عن تأثير هذا الانذار بالانتحار على نتائج الاقتراح . يمكننا افتراض ذلك وحسب .

لقد مضى ذلك الزمن الذي كانت فيه أعداد كبيرة تشارك في الرحلات الاستكشافية المتوجهة إلى سولاريس . وكانت المحطة المصنوعة على شكل قرص قطره مائتي متر ، مع أربعة مقاسم في المركز واثنين في الجوانب عبارة عن تصميم هندسي بمقاييس يمكن للأرض أن تفخر بصناعتها لولا قدرة المحيط على بناء تصاميم تفوقها حجماً بملايين المرات وخلال ثوان قليلة . والآن ، تحوم هذه المحطة فوق المحيط على ارتفاع يتراوح بين ٥٠٠ — ١٥٠٠ م ، بسبب القوة الجاذبة الجارية في حركة تحول الطاقة . ومحطة سولاريس مزودة لإضافة للأجهزة الاعتيادية التي تزود بها الأقمار الاصطناعية والمحطات المتجهة للكواكب الأخرى — مزودة بمحطات رادارية خاصة جاهزة لتشغيل استطاعة إضافية عند أصغر تبدل يطرأ على حالة سطح المحيط . — وعندما ظهرت أولى علامات ولادة غولة جديدة ارتفع القرص الفولاذي إلى الطبقة الطخورية .

لقد فرغت المحطة من الناس تماماً من ذلك الوقت الذي كفت فيه الأجهزة الاوتوماتيكية عن العمل لسبب لا أعرفه حتى هذا الوقت . سابقاً كان بإمكانك أن تتجول في المستودعات السفلية من دون أن تصادف شخصاً غريباً ، أما الآن فقد أصبح المرور فيها شبيهاً بمن يمر على مستودعات سفينة عائمة دون هدف

بعد أن تحطمت محرقاتها وهلك طاقمها .

عندما أعدت الجزء التاسع من رسالة غيزيه العلمية إلى مكانه ، تراءى لي أن القولاذ المغطى بطبقة سميكة من البلاستيك قد اهتز تحت أقدامي . تسمرت في مكاني . لم يتكرر الارتجاج . كانت المكتبة منعزلة عن جسم المحطة ولا يمكن لهذا الارتجاج أن يصيبها إلا نتيجة عملية إطلاق صاروخ . أعادتني هذه الفكرة إلى الواقع، لم أتخذ قراراً بعد حول تنفيذ أو عدم تنفيذ رغبة سارتوريوس . إن تظاهرت بالموافقة على خططه ، فكل ما سأفعله هو إطالة الأزمة في أحسن حال لا غير ، وكنت على ثقة أن الوضع سينتهي بالتصادم لأنني قررت بذل كل جهودي لانقاذ هاري . أصبح الأمر متعلقاً بمدى نجاح سارتوريوس . الفارق واضح تماماً بين قدراتنا ، لصالحه — فهو فيزيائي ويدرك أبعاد المشكلة أفضل مني بعشر مرات . ولم يعد لي أمل إلا في المسائل الصعبة جداً التي طرحها المحيط أماننا ، على الرغم أن الأمر يبدو متناقضاً . قضيت ساعة كاملة في استعراض الأفلام الدقيقة . محاولاً استنباط أي شيء منها أستطيع فهمه من ذلك البحر الجنوني من الرياضيات التي كانت تتحدث بلغة العمليات النترونية الفيزيائية . أصبت باليأس وخاصة أن الفرضيات المعقدة الشيطانية للمجالات النيترونية كانت خمسة كاملة ، وهي إشارة واضحة إلى عدم صحة أية واحدة منها . أخيراً وجدت شيئاً يشد من عزمي . سجلت بعض المعادلات . وفي هذه اللحظة سمعت قرعاً على الباب .

اقتربت بسرعة وفتحت الباب ووقفت في مدخله . ظهر سنوات أمامي بوجهه اللامع من العرق . الدهليز خلفه فارغ تماماً .
— آه ، هذا أنت — وفتحت ردفة الباب — أدخل .
— نعم ، هذا أنا .

كان صوته متحشرجاً وانتفخت عيناه . كان يرتدي سترة مطاطية لامعة مضادة للاشعاعات ، ذات حمالات . تحت السترة سرواله الملطخ بالبقع . تجولت عيناه في أرجاء القاعة الدائرية المضاءة أرجاؤها بإضاءة متساوية في التوزيع . توقفت عيناه عن التجوال حينما اصطدمتا بهاري الواقفة قرب الأريكة . تبادلنا نظرات سريعة . اسدلت جفناي . انحنى سناوت لها برشاقة . قلت بلغة المجاملة :

— هذا هو الدكتور سناوت ، هذه زوجتي يا سناوت .
— أنا ... عضو بسيط في الطاقم . لذلك ... — فترة صمت . اقترب الخطر . — لذلك لم تسنح لي الفرصة للتعرف إليك ...

ضحكت هاري ومدت له يدها . صافحها بخشوع . رفت عيناه عدة مرات ثم جمد في مكانه ينظر إليها حتى سحبه من كتفه .
— اعذريني — خاطبها سناوت . — أريد أن أتحدث إليك يا كيلفن ...
— طبعاً . أجبته بلغة اجتماعية لبقة .

بدا ذلك كمشهد من كوميديا مبتذلة . لم يكن هناك مخرج آخر .
— عزيزتي هاري . أرجو أن لا تعيرنا اهتمامك . سنتحدث قليلاً عن أعمالنا .
أخذت سناوت من مرفقه وجلسنا على الأرائك الصغيرة في الجهة المقابلة للقاعة . جلست هاري على الأريكة التي كنت جالساً عليها ، لكنها أدارتها بحيث تستطيع أن ترانا بمجرد أن ترفع رأسها عن الكتاب . سألته بصوت خافت :
— وماذا بعد ؟

— انهكت ، — أجابني بهمس يشبه الصفير . لو روى لي أحد هذه القصة بهذه البداية لكنت ضحكت تماماً ، لكن الاحساس بالفكاهة كان معدوماً . لقد عشت من يوم البارحة ما يعادل عامين يا كيلفن .. عامين ليسا سيعين ، وأنت ؟

— لا بأس ... — أجبته بعد لحظة ، لأنني لم أعرف ما أقوله . شعرت في هذه اللحظة بالخشية منه . بالأحرى بالخوف مما جاء من أجله .

— لا بأس ... كرر سنوات كلمتي بنفس اللهجة — هكذا إذن ؟

— عما تتحدث ؟ — تظاهرت أنني لا أفهم شيئاً .

جحظت عيناه المليعتان بالدم والحنى نحوي حتى شعرت بحرارة أنفاسه .

— سنوفق يا كيلفن . لن أستطيع الاتصال مع سارتوريوس . فقط أعرف ما كتبه لك . لقد أخبرني بذلك بعد مؤتمرنا القصير ...

— هل أشغل بذلك الهاتف المرئي ؟

— كلا . تسمع لديه رنات صغيرة متقطعة . يبدو أنه يفعل ذلك خصيصاً .

أو ... — وهوى سنوات بقبضة يده كأنه يحطم شيئاً .

تأملته بصمت .

— كيلفن ؛ لقد جئت إليك من أجل ... — ولم ينهي جملته — ماذا تريد أن تفعل ؟

أجبته بهدوء

— أتقصد تلك الرسالة ؟ أستطيع فعل ذلك ، ولا أرى مانعاً ، وخاصة أنني جئت لهذا الهدف ، أريد أن أفهم ...

— كلا ، أنا لا أتحدث عن ذلك ...

— كلا ؟ سألته متظاهراً بالدهشة . — إذن أنا مصغ إليك .

— سارتوريوس — بدأ يتمتم بعد فاصل قصير — يعتقد أنه وجد الطريق ...

هذا ... لم يرفع سنوات عينيه عني . جلست هادئاً وأنا أحاول أن لا تظهر على وجهي أية تعابير خاصة .

— أولاً ، تلك القصة ، قصة أشعة روننتجن الذي نفذها غيباريان .. هل تذكرها ؟ يمكننا تطويرها .

- أي منها ؟
- لقد أرسلنا حزمة من الأشعة إلى المحيط ، فقط طورنا توترها بقوانين مختلفة .
- أعرف ذلك . لقد أجرى نيلين مثل هذه التجارب وعدد كبير من التجارب الأخرى .
- صحيح . لقد استخدمنا إشعاعات شديدة بدل تلك الإشعاعات الخفيفة التي استخدمت سابقاً . لقد غرسنا في المحيط كل ما نملكه . الطاقة بأكملها .
- هذا خرق لمعاهدة الأربعة لمنظمة الأمم المتحدة ، ومن الممكن أن يؤدي إلى نتائج وخيمة .
- لا داعي للسخرية يا كيلفن . تعرف جيداً أن المسألة فقدت أهميتها ، فلم يعد غيباريان من بين الأحياء .
- أها ، فهمت ، لعل سارتوريوس يريد أن يرمي كل شيء عليه ؟
- لا أعرف . لم أتحدث معه حول ذلك . وهذا ليس ذو شأن . يعتقد سارتوريوس أن « الضيف » يظهر حالما ينتهي الإنسان من نومه أي في لحظة استيقاظه ، كما يفترض أن المحيط يأخذ منا وصفة إنتاج « الضيف » أثناء الحلم ، ويظن أن أهم حالة بالنسبة للمحيط هي عندما نكون في حالة الحلم — بالضبط . لذلك نراه على هذه الشاكلة . يطمح سارتوريوس أن ينقل إليه حالتنا في وقت الاستيقاظ ، أي أن يوصل إليه أفكارنا في حالة اليقظة ؟ هل تفهم ؟
- بأية وسيلة ؟ بالبريد ؟
- ستجد وقتاً آخر للمزاح . سنطور حزمة الشعاع بتيار من دماغ أحدنا .
- توضحت الفكرة في ذهني الآن .
- تقول بتيار من دماغ أحدنا . هذا يعني من دماغي أليس كذلك ؟
- نعم ، لقد فكر بك .
- أشكره من كل قلبي .

- ما قولك في ذلك ؟
- صمت . ونظر إلى هاري المنهمكة في القراءة . ثم نقل نظره إلى . شعرت أن لون وجهي يشحب ولا أستطيع إيقاف ذلك .
- ما قولك ؟ كرر سنوات سؤاله .
- هزرت كتفي .
- أعتقد أن التعاليم الرونتجنية عن عظمة الإنسان ما هي إلا هراء . ألا توافقني في ذلك ؟
- نعم .
- هذا رائع جداً — ابتسم وكأنني نفذت رغبته — هذا يعني أنك ضد القصة بأكملها ؟ لقد حاصرني في المكان الذي أراده ، ولا أعرف كيف تم له ذلك .
- صمت . وماذا يمكنني قوله ؟
- ممتاز . لدينا مشروع آخر . إعادة توليف جهاز روشيه .
- الحول ؟
- نعم . لقد أنهى سارتوريوس حساباته الأولية . هذه حقيقة ، إنه لا يتطلب استطاعة قوية . سيعمل الجهاز مدة لا محدودة مشكلاً مجالاً مضاداً
- إن ... انتظر ! كيف تتصور ذلك ؟
- مسألة بسيطة . سيكون مضاداً للمجال النيتروني . إن من يتعرض للدمار هي الأنظمة النيترونية . هل تفهم ؟
- ابتسم ابتسامة رضا . جلست فاغراً فمي . غابت ابتسامته تدريجياً .
- تفحصني بنظراته . تجهم وجهه . انتظر قليلاً ثم تابع :
- إذن سنلتي مشروع « الفكرة » جانباً ، أما الثاني فسارتوريوس منكب عليه طوال الوقت . سندعوه بمشروع « الحرية » .

أغمضت عيني لحظة . بدأت أحسب بسرعة : سنوات ليس فيزيائياً . أقفل سارتوريوس الهاتف المرئي أو حطمه . حسن جداً . قلت له بهدوء :
 — كنت سميته تسمية أدق لو قلت « المجزرة » ...
 — كنت جزاراً . ربما لم تكن ؟ والآن سيكون هذا شيء آخر كلياً .
 لن يظهر « الزوار » . ولا أية كائنات F . ولا شيء آخر . ستبدأ لحظة
 الاندثار في لحظة بدء التكوين المادي .
 — هذا شيء لا معقول . أجبته بشيء من الريبة وهزئت رأسي وضحكت .
 تمنيت أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان . — هذه ليست دغدغة — بل الاحساس
 الغريزي للبقاء . لا أريد الموت يا سنوات .
 — ماذا ؟ ..

نظر إلي بتوجس وظهرت الدهشة عليه . أخرجت من جيبتي ورقة مطوية ،
 تلك التي سجلت عليها المعادلات .
 — لقد فكرت بذلك . هذا سيدهشك . أنا أول من فكر بالفرضية النيترونية .
 أليس صحيحاً ؟ انظر . يمكننا تهبيج المجال المضاد ، وهذا لا يعد خطراً على المادة
 العادية . هذه حقيقة . بيد أن الطاقة الفائضة التي ستتححر عند انهيار النظام
 النيتروني في لحظة عدم الاستقرار تقدر بـ 10^9 إيرغ على كل كيلو غرام من
 الكتلة الساكنة ، وبذلك يمكننا الحصول من خمسة إلى سبعة على عشرة ضرب
 تسعة من أجل كل كائن من كائنات F . هل تدرك ماذا يعني ذلك ؟ هذا
 يعادل انفجار إعصار صغير داخل المخططة .

— ماذا تقول ؟ على ... سارتوريوس أن يأخذ في حسابه ...
 — ليس بالضرورة — أجبته بابتسامة شريرة — المسألة أن سارتوريوس من
 تلاميذ مدرسة فريزر — وكابولي . وبرأي المذكورين فإن الطاقة بأكملها في وقت
 الانهيار تتحرر على شكل إشعاعات مضيئة ، وهذا يعني حدوث بريق شديد

الوهج ربما لن يكون خطيراً . بالأحرى لن يكون مدمراً . هناك فرضيات أخرى حول المجال النيوتروني . حسب كاي وأفالفو وسيون فإن طيف الشعاع أوسع بكثير ويمكنه أن يكون فعالاً مثل الأشعة الشديدة الوطأة . طبعاً من الجميل أن يخلص سارتوريوس لأساتذته ويؤمن بهم وبنظرياتهم ، لكن هناك نظريات أخرى . هل تفهم ما أردت قوله ؟ وهنا حاولت إطالة كلماتي بعدما لاحظت وقوعها عليه . إن فعل ما فعله ، فمن الأرجح أنه اتبع المنهج الأمثل لذلك . بكلمات أخرى : ستكون أفعاله بمثابة البرهان الدامغ في صالح المدارس الأخرى — أي تلك المدارس المضادة له .

— أرني هذه الورقة يا كيلفن ...

أعطيته الورقة . نظر إليها متأملاً محاولاً أن يفهم ما خططت عليها .
— ما هذا ؟ وأشار بأصبعه .

أخذت الورقة منه .

— هذا حجم نقل التغييرات المفاجئة .

— أعطني كل ما سجلته ...

— ولماذا تحتاجها ؟ وعرفت بما سيجيب .

— سأريها لسارتوريوس .

— كما تريد . أجبته بلا مبالاة . تستطيع أن تأخذها . فقط عليك أن تعرف أن أحداً لم يثبت ذلك من خلال التجارب ، فهذه التصاميم ليست معلومة لدينا بعد . سارتوريوس يثق بفريزر . وأنا أجريت الحسابات حسب طريقة سيون . سيقول سارتوريوس أنني لست فيزيائياً . وسيون كذلك ليس فيزيائياً ، برأيه على الأقل . هذه مسألة تحتاج للجدل . وأنا لا أوافق على خوض مناقشة معه أضمنحل من خلالها لصالح أبحاث سارتوريوس . أستطيع إقناعك أما هو فلا أستطيع . ولن أحاول .

- لقد انكب على ذلك . ماذا تريد أن تفعل الآن ؟ ...
- كان صوته من دون لون . احدودب واختفت انتعاشاته . لا أعرف هل وثق بي أم لا . أصبحت لا مبالياً نحوه .
- أفعل ما يفعله أي إنسان ييغون قتله .
- سأحاول أن أتصل به . ربما فكر ببعض الاجراءات الأمنية — تتم سنوات ورفع عينيه باتجاهي . — اسمع ، وإن تم الأمر رغم ذلك ؟ .. المشروع الأول .
- آ ؟ سيوافق سارتوريوس . على الأرجح . هي ... على كل حال مجرد فرصة .
- هل تثق بذلك ؟
- كلا — أجب فوراً — لكن ... أين الإساءة في ذلك !
- لم أرغب في إعطاء الجواب مباشرة ، لأنني كنت بحاجة لذلك . لقد وقع غريمي في لعبة المماثلة . وقلت له :
- سأفكر في الأمر .
- وقال سنوات وهو ينهض وقد سمعت صرير مفاصل عظامه :
- حسن . سأذهب الآن . هل ستضع مخططاً دماغياً ؟ ومسح سترته بأصابعه محاولاً إزالة البقع الصغيرة عنها .
- حسن .
- ودون أن يعير أدنى اهتمام لهاري (التي كانت جالسة تنظر بصمت إلينا والكتاب على ركبتيها) توجه نحو الباب . نهضت بعدما انغلق الباب .
- مسدت ورقة المعادلات التي كنت أمسكها بيدي . كانت معادلات حقيقية . لم أزيّف فيها شيئاً . غير أنني أشك في أن يوافق سينون مع ما طورته فيها . في الأغلب لن يوافق . انتابني الرعدة . اقتربت هاري ولاستها بيدي .
- كريس .
- ماذا تريد يا عزيزتي ؟

- من كان ذلك الشخص ؟
- لقد قلت لك . إنه الدكتور سناوت .
- أي نوع من الرجال هو ؟
- لا أعرفه إلا قليلاً . لماذا تسألين ؟
- كانت نظراته ...
- ربما أعجب بك ...
- كلا — هزت برأسها نفياً — لم تكن نظراته من هذا النوع . لقد نظر إلي وكأنه ...
- ورفعت عينيها ثم أخفضتهما فوراً .
- لنذهب من هنا .

سائل الأوكسجين

- لا أعرف كم أمضيت من الوقت في الحجرة المظلمة مستنداً بخمول على لوحة الساعات المضاءة . سمعت صوت أنفاسي ودهشت لشيء ما مع أنني كنت لا مبالياً ، ربما كنت تعباً جداً . ملت على جانبي ، كان السرير عريضاً بشكل غريب . شعرت بحاجة لشيء ما لا أعرفه . حبست أنفاسي وتسمرت في مكاني . عم الهدوء . لم أسمع صوتاً . هاري ؟ لماذا لا أسمع صوت أنفاسها ؟ بدأت أبحث عنها بيدي داخل الفراش . وجدت نفسي وحيداً . هاري . أردت أن أصرخ ، سمعت وقع أقدام . كانت وقع أقدام شخص ثقیل قادم مثل ...
- غيباريان ؟ قلت بصوت هادئ .
- نعم . هذا أنا . لا تشعل الضوء .
- لكن ..
- لا داعي لذلك . هذا أفضل لنا .
- لكنك سبق ومت !
- هذا أمر لا أهمية له . ألا تعرف صوتي ؟
- نعم لماذا فعلت ذلك ؟
- الظروف . لقد تأخرت أربعة أيام . لو وصلت قبل ذلك ، ربما لما تجرأنا . أرجو أن لا تلوم نفسك . لم تعد الحالة سيئة بالنسبة لي .
- هل أنت حقيقي ؟

- أها ، أنتحسب أنك تراني في الحلم ، كما فكرت برؤيتك هاري ؟
- أين هي ؟
- لماذا تعتقد أنني أعرف ؟
- تخمنت .
- احفظ ذلك في قلبك . لفترض أنني مكانها .
- لكنني أريد منها أن تكون معنا أيضاً .
- هذا مستحيل .
- لماذا ؟ اسمع: إنك تعرف جيداً أن حقيقة الأمر — أنك لست أنت — أنت أنا ولا غير .
- كلا . أنا حقيقة . وإن أردت أن تكون متحذلقاً ، تستطيع أن تقول أنا في واحد آخر . دعنا لا نضيع الوقت .
- هل أنت ذاهب ؟
- نعم .
- هل ستعود هاري ؟
- هل تريد ذلك ؟ ومن هي بالنسبة لك ؟
- هذا من شأني .
- هل تخاف منها ؟
- كلا .
- وتقرّف منها ...
- ماذا تريد مني ؟
- عليك أن تشفق على نفسك لا عليها . ستبقى هاري في العشرين من عمرها
- لا تتظاهر أنك لا تعرف ذلك !
- لا أعلم كيف هدأت أعصابي فجأة واستمعت إليه بدم بارد . تراءى لي

- أنه يقف قريباً من قوائم السرير . ومع ذلك لم أر شيئاً في هذا الظلام .
وسألته بهدوء :
— ماذا تريد ؟
ربما أدهشته نغمة صوتي . صمت دقيقة :
— استطاع سارتوريوس إقناع سناوت من أنك خدعته . والآن سيخدعك .
سيظاهران أنهما يولفان أجهزة رونتجنية ، وفي حقيقة الأمر سركبان محول
المجالات .
— وأين هي ؟
— ألم تسمع ما قلته لك ؟ لقد حذرتك .
— أينها ؟
— لا أعرف وتذكر : ستحتاج للسلاح . لا تستطيع الاعتماد على أحد .
— أستطيع الاعتماد على هاري .
وسمعت صوتاً ضعيفاً قصيراً . لقد ضحك .
— طبعاً تستطيع . إلى حد ما . في آخر المطاف تستطيع أن تفعل ما فعلته من
قبلك .
— أنت لست بغياريان .
— نعم ؟ ومن أكون إذن ؟ ربما كنت حلمك ؟
— كلا . أنت لعبتهم ولا تعرف ذلك .
وكيف عرفت من أكون ؟
حيرني سؤاله . أردت النهوض ، ولم أستطع . هس غياريان بشيء ما ،
لم أفهم كلماته . كان صوته يائساً ضعيفاً ، ثم صدح من جديد قوياً ...
استيقظت .
أخذت شهيقاً كسمكة تعاني من رعشات الموت . كان الجو دافئاً . هذا

حلم . كابوس . والآن ... « معضلة لا أستطيع حلها . سنلاحق بعضها بعضاً . كثير من الحيوانات تستخدم طريقة اختيارية لتقوية قدراتها العقلية . إن البحث عن تعليل ذلك أشبه بتقمص الإله لأشكال بشرية . وهناك حيث لا يتواجد البشر ، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى تعليل . ولكي نتابع تنفيذ مخطط أبحاثنا ، علينا أن نحطم أفكارنا الخاصة ، أو أن نحطم التجسيد المادي لها . ليس بمقدورنا أن نفعل الشيء الأول ، والثاني أشبه بالانتحار ... »

استمعت في الظلمة إلى ذلك الصوت الوديع . صوت غياريان الذي عرفته فوراً . مددت يدي إلى الأمام . كان الفراش فارغاً . جاءتني فكرة « أنني استيقظت الآن من أجل الحلم التالي » ، وصرخت :
— غياريان ؟ انقطع الصوت إلى نصف كلمة . اهتز شيء ما بهدوء . شعرت بلفحة ناعمة .

— ماذا بعد يا غياريان ؟ — تمتمت وأنا أئنس . هل ستلاحقني من حلم لآخر ، أتعرف ... وشعرت بحركة غريبة .
— غياريان ! كررت نداي بصوت أعلى .
سمعت صرير نوابض السرير . ثم همساً :
— هذا أنا يا كريس ...

— أهذه أنت يا هاري ... وأين غياريان ؟
— كريس ... لكنه أنت ... أنت بنفسك من قال إنه مات ..
— يستطيع أن يحيا في الحلم .

لم أكن واثقاً أنني رأيته في الحلم . لقد جاء بنفسه وتحدث إلي .
كنت نعساً للغاية « ان كنت نعساً — يعني أنني نائم » . فكرة جنونية أخرى . لامست بشفتي كتف هاري البارد ، وتمددت بالشكل الذي أرتاح فيه أكثر . أجابني بشيء ما ، غير أنني أصبحت في عالم النسيان .

صباحاً استرجعت في الحجرة المضأة بنور الشمس الحمراء كل ما حدث ليلة البارحة .

حسناً ، حلمت أنني تحدثت مع غياريان ، وماذا بعد ؟ سمعت صوته ، أقسم أنني سمعت صوته ، ومع ذلك لا أذكر شيئاً مما قاله .

لم يكن ذلك حديثاً ، بل تقريراً . كان صوت خرير الماء من صنوبر الحمام مسموعاً . هاري تغتسل . نظرت تحت السرير لأخذ المسجل الذي تركته منذ فترة هناك . لم أجده في مكانه . ناديت هاري .
— هاري .

ظهر وجهها المبتل من خلف الخزانة .

— ألم تقع عينك صدفة على المسجل تحت السرير ؟ مسجل صغير ،
— كانت هناك كثير من الأشياء — وضعتها كلها على ذلك الرف .
وأشارت إلى رف الأدوية قرب الخزانة واختفت داخل الحمام .
قفزت من مكاني . لم أجده المسجل هناك .

— لا بد أنك شاهدته ، — قلت لهاري التي خرجت من الحمام .
لم تجبني بشيء — وراحت تسرح شعرها أمام المرأة . لاحظت شحوب وجهها ، وكان في عينيها اللتين التقت نظراتهما بعيني من خلال المرأة شيء من الحذر .

— هاري ، بدأت الحديث من جديد مثل حمار ، — لم أجده المسجل على الرف .
— ألا تريد أن تقول لي شيئاً أكثر أهمية .
— اعذريني — أنت محقة . هذه سخافة .

لم يعد ينقصني شيء سوى أن أبدأ الشجار معها . ومن ثم ذهبنا لتناول الإفطار . لم تكن هاري على عادتها في هذا اليوم . بيد أنني لا أستطيع تحديد الفارق . كانت طوال الوقت تحديق بعينيها دون أن تسمعني وكأنها غائبة في

لجة أفكارها . مرة واحدة لاحظت بريق عينيها عندما رفعت رأسها .
 — ما بك ؟ — أخفضت صوتي حتى بدا مثل همس — هل تبكين ؟
 — أوه . دعني وشأني . هذه ليست دموع حقيقية .

ربما كان عليّ أن لا أتمتع بهذه الكلمات ، ولم أخشَ شيئاً كما أخشى
 « الأحاديث الصريحة » مع ملاحظة أن ما يدور في رأسي شيء مختلف تماماً ،
 ولم أفعل شيئاً سوى أنني حلمت بمغامرات سنوات وسارتوريوس . بدأت أفكر
 بإيجاد السلاح الملائم على متن المحطة . لم أفكر باستخدامه . أردت حيازته .
 قلت لهاري أنني أريد إلقاء نظرة على المستودعات . انطلقت ورأى صامتة .
 بحثت في العلب ، فتشت الصناديق ، وعندما نزلت إلى آخر درجة في
 المستودعات ، لم أستطع مقاومة رغبتني في إلقاء نظرة على البراد . لم أرغب أن
 تدخل هاري ، لذلك فتحته وتفحصت المكان برمته . كان الكفن القاتم مرتفعاً
 يغطيه شيء طويل . وصعب عليّ من المكان الذي وقفت عليه أن أرى هل
 السوداء تتمدد عليه أم لا . تراءى لي مكانها السابق فارغاً .

لم أجد شيئاً مناسباً ، كان مزاجي عكراً ، فجأة لاحظت أنني لا أرى
 هاري . مع ملاحظة أنها جاءت في نفس اللحظة — تأخرت في الدهليز —
 لكن كان عليّ أن ألاحظ مجرد محاولتها للتأخر ولثوان قليلة عني . ومع ذلك
 ثابرت كأبله ، أو ببساطة كأني اغتظت من أحد مجهول . شعرت بألم يصيب
 رأسي ، ولم أجد مسحوقاً مناسباً ، وغضبت غضب مئة شيطان وقلبت محتويات
 الصيدلية رأساً على عقب . لم أرغب بالذهاب مرة ثانية إلى غرفة العمليات .
 نادراً ما أتصرف بهذا الغباء كما في هذا اليوم . كان ظل هاري يتحرك جيئة وذهاباً
 في المكتب ، ويحتفي أحياناً لثانية . بعد الظهر تناولنا الغداء — (مع ملاحظة
 أنها لم تأكل شيئاً ، فتناولت طعامي دون رغبة ولم أحاول إقناعها بتناول الطعام ،

وهذا ما أدى إلى ازدياد ألم رأسي) — جلست هاري قرني ومدت يديها . سألتها
آلياً :

— وماذا بعد ؟ ما بك ؟

تناهى لي صوت طرقات خفيفة أتية عبر المواسير . من المحتمل أن
سارتوريوس يعمل في أجهزة التوتر العالي . رعبت بالصعود إلى الطابق العلوي .
فجأة أدركت أن هاري ستذهب معي . ان كان ذهابها إلى المكتبة مقبولاً فإن
ذهابها إلى مكان الآليات غير مقبول وسيوجه لي سناوت ملاحظات شديدة
اللهجة . وهمست :

— كريس ! كيف هي أحوالنا ؟

أطلقت زفيراً رغم إرادتي . من الصعب وصف ذلك اليوم باليوم السعيد .

— في أحسن حال . عما تتحدثين من جديد ؟

— أريد التحدث معك .

— أنا مصغ .

— ليس بهذا الشكل .

— كيف ؟ تعرفين أنني أشعر بألم في رأسي ولدي كثير من الأعمال ...

— بعض الأمنيات يا كريس .

أجبرت نفسي على الابتسام وارتسمت على وجهي ابتسامة صفراء .

— نعم يا عزيزتي ، تحدثي .

— هل ستقول لي الحقيقة ؟

رفعت جفني . لم ترق لي هذه البداية .

— ولماذا أكذب ؟

— ربما لديك سبب للكذب . سبب وجيه . إن كنت لا تستطيع فعل ...

عموماً أرجو أن لا تخدعني .

بقيت صامتاً .

— سأذكر لك شيئاً — وعليك أن تجيب . حسن ؟ ستكون الحقيقة ، بغض النظر عن أي شيء .
لم أنظر إلى عينيها . بحثت هاري عن نظراتي . تظاهرت أنني لا ألاحظ ذلك .

— لقد ذكرت لك أنني لا أعرف منشئي . ربما كنت تعرف أنت . انتظر .
لم أنه حديثي بعد . ربما كنت لا تعرف . إن كنت تعرف ولا تستطيع أن تقول ذلك الآن فهل تستطيع ذكر ذلك لي مستقبلاً ؟ هذا ليس حلاً سيئاً ، فأنت تقدم لي فرصة على كل حال .

أحسست بتيار مياه باردة انسكب فوقتي . تلعثمت كلماتي :

— ماذا تقولين يا طفلة ؟ أية فرصة ؟

— كريس ، بغض النظر عما أكونه ، فأنا لست طفلة . لقد وعدت . قل .
شعرت بضيق في أنفاسي من كلماتها « بغض النظر عما أكونه » لم أستطع سوى النظر إليها وهز رأسي بغباء كأنني أقيه من كلماتها .

— لقد شرحت لك ، وأنت لست قرداً . يكفي أن تقول أنك لا تستطيع .
أجبتها بصوت متحشرج :

— أنا لا أخفي شيئاً .

— حسناً . ونهضت .

أردت أن أقول شيئاً . شعرت أنني لا أستطيع تركها على هذه الحالة . لكن الكلمات تعثرت في فمي .

— هاري ...

وقفت قرب النافذة . كان المحيط الأزرق القائم ممتدداً تحت السماء العارية .

— هاري ، إن كنت تفكرين أنني ... هاري أنت تعرفين أنني أحبك ...
 — تحبني ؟
 اقتربت منها . أردت أن أشدها إلى صدري . لم تسمح لي فأبعدت يدي .
 — كم أنت طيب ... تحبني ؟ أعتقد أنك تريد أن تضربني .
 — عزيزتي هاري !
 — لا ، لا ، من الأفضل أن تسكت .
 اقتربت من الطاولة وبدأت بجمع الصحون . نظرت إلى الصحراء الزرقاء .
 استقرت الشمس ، وتموجت ظلال المحطة العائمة الكبيرة فوق أمواج المحيط .
 انزلق صحن من يد هاري وسقط على الأرض . سمعت خرير مياه صنوبر
 المغسلة .
 تحول اللون الأشقر المحيط بأطراف السماء إلى لون ذهبي أحمر وسخ . آه ،
 لو أعرف ما أفعله ! لو أعرف ! فجأة حلت السكينة . كانت هاري تقف قربني
 من الخلف .
 — لا . لا تستدر — قالت هامسة — لست مذنباً في شيء يا كريس . أعرف .
 لا تعذب نفسك . مددت يدي لها . ابتعدت عني ورفعت كدسة من
 الصحون ... وقالت :
 — مؤسف . لو ينكسروا ، لحطمتهم ، لكسرتهم جميعاً !
 توقعت أن ترمي الصحون جميعاً على الأرض . لكنها تفرستني ثم
 ضحكت :
 — لا تخف . لن أمثل عليك أفلاماً .
 استيقظت في منتصف الليل متوتراً ، متحفزاً من دفعة تلقيتها . جلست على
 السرير . كان شعاع أملس يخترق الظلام المخيم في الغرفة قادماً من الدهليز عبر
 شق الباب المفتوح . تناهت إلى مسامعي ضربات صماء مبهمة . كان شيئاً ضخماً

يضرب خلف الجدار يرافقه أزيز سام .
لمعت في ذهني فكرة « أن نيزكاً اخترق الدرع . وهناك أحد ما ! » ثم
سمعت شخصاً حاداً .

استيقظت . أنا في المحطة ولست في الصاروخ ، وهذا الصوت المرعب ...
قفزت إلى الدهليز . شاهدت باب الخبر مفتوحاً على مصراعيه والضوء يلعب
في داخله . هرعت . لفحني تيار هواء بارد . كان البخار المتكاثف يحول
الأنفاس إلى ندف ثلجية وسحابة بيضاء تحوم فوق جسد مغطى بثوب الحمام
يتحرك بصعوبة . إنها هاري . بالكاد ميزتها في هذا الضباب الثلجي . قفزت
نحوها ، أمسكتها لسعني ثوبها . كانت تتحسرج . حملتها إلى الدهليز بمحاذاة
الباب . لم أعد أشعر بالبرد ، إذ كانت أنفاسها الساخنة مثل النار والمتصاعدة من
فمها كغيوم من الضباب تلسع كتفي .

مددتها على الطاولة ، ومزقت ثوبها عند الصدر . نظرت لحظة إلى وجهها
المعوج المرتجف . تجمد الدم حول فمها الفاجر ، وصبغة سوداء غطت شفاهها ،
وتنف جليد كريستالي تلمع على لسانها .

سائل الأوكسجين . كان سائل أوكسجين المخبر معبأ في قوارير ديوار :
رفعتها وشعرت أنني أضغط على زجاج مقرقش . كم تستطيع أن تشرب ؟ كم
تريد ؟ قصبات الرئة محروقة ، الحنجرة ، الرئة . إن تأثير سائل الأوكسجين
أشد من الحمض المكثف . أنفاسها تشبه صريراً جافاً مثل ورقة تتمزق . اختفت
أنفاسها . عيناها مغلقتان . إنها تحتضر .

ألقيت نظرة على الخزائن الزجاجية المليئة بالمعدات والأدوية . ترى هل تحتاج
إلى إدخال أنابيب التنفس إلى رئتيها ؟ أم إلى الحنجرة ؟ لم يعد لديها رئة ! لقد
احتترقت . الدواء ؟ كم من الأدوية ! الرفوف مليئة بالعلب والزجاجات المتعددة

الألوان . حشرجتها تملأ الغرفة . ما زال البخار يتصاعد من فمها .
الثيرموفور ...

بدأت أبحث عنه ، وقبل أن أجده ، خلعت باب الخزانة الآخر ، ورميت
الحقن ... والآن المصل أين المصل ؟ في المعقم ... لم أستطع جمعه بيدي
المنشغلتين . أصابعي صلبة ولا تنصاع لإرادتي . بدأت بجنون أضرب المعقم
بيدي دون أن أشعر بذلك ، لم أشعر سوى بوخز ضعيف .
تحشرجت المتمددة بقوة . قفزت نحوها . كانت عيناها مفتوحتين .

— هاري !

لم يكن همساً ، بل لم تخرج الحروف من فمي . كان وجهي غريباً كأنه
مصنوع من الجص . كان شعرها المبتل من الثلج الذائب ملتصقاً على جلد
رأسها ، وأضلعها تهتز اهتزازاً عنيفاً وهي تنظر إلي .

— هاري !

لم أضف شيئاً . وقفت كجذع شجرة مع يدي المتخشبتين . بدأت شفتاي
وقدماي وجفناي تلتهب أكثر فأكثر دون أن أشعر بذلك . سألت قطرة على
خدها من حرارة الدماء ، ورسمت خطاً معوجاً . رجف لسانها لحظة ثم اختفى .
ما زالت تتحشرج .

أخذت معصمها بيدي . لم أشعر بنبضها أبداً . رفعت الثوب عنها ووضعت
أذني على جسدها البارد المرعب . سمعت من خلال أزيز شبيه بضجيج الحريق
ضربات مجنونة تتكرر بسرعة عالية بحيث لا يمكن قياسها . كنت أجلس
القرفصاء مغمضاً عيني عندما شعرت بشيء يلامسني إنها أصابع يدها تداعب
شعري . نظرت في عينيها .

— كريس . قالت متحشرجة .

أمسكت يدها ، وردت على لطافتي بأن عصرت يدي حتى كادت

تخطمها ، ولع بياض عينيها بين جفنيها ، وتحشرجت حنجرتها وارتج جسدها وهي تنقياً . ارتفعت عن الطاولة فاصطدم رأسها بطرف القمع الخزفي . سندتها وحاولت تثبيتها على المنضدة . كانت تفلت من يدي في كل تشنج يصيبها . تصيب العرق من جسدي خلال لحظة . أصبحت ساقاي رخوتين . حاولت أن أجلسها عندما كفت عن التقيؤ . راحت تستنشق الهواء بنحيب . فجأة التفت عيناها على وجهها المدمى .

— كريس — وتلعثمت — كم .. كم سيستمر ذلك ؟

من جديد بدأ جسدها يتقلص — وظهرت رغوة على شفيتها مزقها القيء الذي اندفع من فمها . أمسكت بها بكل قواي . سقطت على ظهرها واصططكت أسنانها حتى كادت تختنق .

— لا . لا . لا . رددت مع كل زفير من أنفاسها الذي كان يبدو الأخير ولا ريب . عادت تنقياً مرة أخرى ، ومن جديد بدأ يرتعش جسدها بين ذراعي وهي تستنشق الهواء في لحظات الاستراحة القصيرة مما أدى إلى بروز أضلاعها بروزاً تاماً . أخيراً غطى جفناها عينيها الناعستين ، وخمدت . ظننت أنها النهاية . حتى أنني لم أمسح الرغوة الوردية عن فمها . وقفت أنظر إليها منحنيّاً عليها مستمعاً إلى دقات جرس كبير بعيد ، وانتظرت نفسها الأخير لأقع على الأرض وأستريح . غير أن أنفاسها استمرت ولم تعد تتحشرج تقريباً . فجأة تحرك صدرها في إيقاع قلب نابض بعدما كان يبدو كهضبة ثابتة . وقفت محدودباً . بدا وجهها يتورد . لم أفهم حتى ذلك الوقت شيئاً . فقط شعرت بالعرق يتصبب من راحة كفّي ، وتحيلت أنني أصبحت أصماً ، وأن شيئاً مطاطياً ملاً أذني . بقيت اسمع ذلك الجرس الذي تحول إلى صوت أصم متصدع . رفعت حاجبيها . التقت نظراتنا .

« هاري » أردت مخاطبتها ، ولم تخرج الكلمة من فمي ، كان وجهي أشبه

بوجه الأموات وعليه قناع ثقيل بحيث لا أستطيع سوى النظر كأنتي من دون فم .

تجولت بعينيها في أرجاء الغرفة ، وتحرك رأسها . كان الهدوء مخيماً تعكره نقاط مياه تخرج من صنوبر بإيقاع رتيب في عالم بعيد لا أعرفه . نهضت هاري واستندت على مرفقيها . ثم جلست . تراجعت القهقري . بدأت تراقبني . — ماذا ، — سألت هاري — ماذا بك ؟ ألم ... تقدر ؟ لماذا ؟ .. لماذا ترمقني بهذه النظرات ؟

وصرخت فجأة

— لماذا تنظر إلي بهذا الشكل ؟

— حل السكون من جديد ! نظرت إلى يديها . حركت أصابعها .

— هذا ... أنا ؟

— هاري ، ناديتها بحركة من شفاهي فقط .

— هاري كررت وهي ترفع رأسها وزحفت على الأرض ببطء ثم وقفت . ترنحت في مشيتها ، ثم اعتدلت ، وخطت عدة خطوات . كانت تفعل كل شيء وهي تنظر إلي دون أن تراي .

— هاري ؟ — كررت ذلك مرة أخرى — لكن ... أنا ... لست بهاري .

فمن أكون ؟ هاري ! وأنت ؟ وأنت ؟

فجأة اتسعت عيناها وبرقتا ، وارتسمت على شفيتها ظلال ابتسامة وغمرت وجهها سعادة مصحوبة بذهول غريب .

— كريس ! ممكن أن تكون أيضاً ؟ ! أليس جائزاً أن تكون أنت الآخر كذلك ؟

بقيت صامتاً مستنداً إلى الخزانة التي دفعني الرعب إليها .

سقطت يداها .

— لا ، لا . أنت تخاف . اسمع ، لا أطبق الصبر أكثر من ذلك . هذا لا يجوز .

لم أعرف شيئاً . أنا الآن ... لا أفهم شيئاً . هذا مستحيل ؟ — أنا — وضغطت
 يديها النحيلتين على صدرها . — لا أعرف شيئاً سوى ... سوى هاري ! هل
 تعتقد أنني أظاھر بذلك ! لا . لا أظاھر . نعم ، نعم لا أظاھر .
 تحولت كلماتها الأخيرة إلى نحيب وسقطت على الأرض باكية . لقد حطم
 صراخها شيئاً ما بداخلي فوجدتني أقفز نحوها وأمسكتها من كتفها .
 ابعدتني كأنها تدافع عن نفسها وهي تبكي دون دموع وتصرخ :
 — دعني ! دعني ! إنك تقرف مني ! أعرف ! لا أريد ذلك ! لا أريد ! أنت
 ترى أنني لست أنا ، لست أنا ، لست أنا ، لست أنا ...
 — اخرسي ! صرخت وأنا أهزها من كتفها . كنا نصرخ سوياً دون أن ندرك
 ذلك ونحن جالسان القرفصاء . ترنخ رأسها وهي تضرب به كتفي ، شدتها إلى
 صدري بكل قواي . تسمرنا في مكاننا ونحن نلهث . كانت قطرات الماء تسيل
 من الصنبور .
 — كريس ... قالت بصعوبة وهي تضغط برأسها على صدري . قل لي ما
 يتوجب عليّ فعله كي لا أكون يا كريس ...
 — كفي عن ذلك !
 رفعت رأسها ونظرت إلي .
 — كيف ؟ ألا تعرف كيف ؟ ألا تستطيع إيجاد طريقة ؟ وسيلة ؟
 — هاري ...
 — أردت ... كنت أعرف . لا . لا . دعني . لا أريد منك أن تلمسني .
 تقرف مني .
 — هذا ليس صحيحاً !
 — تكذب ! يجب أن يكون ذلك مقرفاً بالنسبة لك . أنا ... أنا بذاتي ...
 آه لو أستطيع . لو أستطيع فقط ...

- لقتلت نفسك ؟
- نعم .
- أنا لا أريد ذلك ، هل تفهمين ؟ لا أريد ذلك . أريدك أن تكوني معي هنا .
- ولا أحتاج لشيء آخر .
- التهمتني عيناها الواسعتان الكبيرتان .
- كم تكذب . قالت هاري ببطء شديد .
- تركها ونهضت واقفاً . جلست هاري على الأرض .
- أخبريني ، ما الذي أستطيع فعله لتصدقيني ، لتصدقني ما أفكر به ؟ مع أنني أقول الحقيقة ولا شيء آخر .
- أنت لا تستطيع ذكر الحقيقة ، فأنا لست بهاري .
- من أنت إذن ؟
- سكتت طويلاً ، ورجف صدغها ثم نكست رأسها وهمت :
- هاري ... لكن ... لكن أعرف أن هذا ليس حقيقة . فأنت لم تحبني هناك ... من قبل ...
- نعم . تلك غير موجودة . ماتت . أما هنا فأنا أحبك . هل تفهمين ؟
- هزت رأسها .
- أنت طيب . أتمنى أن لا تعتقد أنني لا أقدر ما فعلته . كل ما فعلته حسن .
- لكنك هنا لا تستطيع فعل شيء . منذ ثلاثة أيام لم أكن أعرف شيئاً عندما جلست قربك على السرير صباحاً وانتظرتك حتى تستيقظ .
- تملكني شعور وكأن ذلك جرى منذ وقت بعيد جداً . تصرفت بدون عقل . اختلطت في رأسي الأمور . لم أفهم ما جرى سابقاً ، وما الذي سيجري فيما بعد . لم أندش من شيء . كأنني مخدرة أو معتلة منذ فترة طويلة . حتى أنني فكرت أنني مرضت فعلاً وأنت لا تريد إخباري بذلك ، ثم جاءت بعض

التفاصيل الصغيرة التي أجبرتني على التفكير . توضحت لي بعض الأمور بعد حديثك مع ذلك الرجل . ما اسمه ؟ ، آه سنوات . ولم ترغب أن تشرح لي شيئاً ، عندئذ نهضت ليلاً واستمعت إلى الشريط المسجل . كذبت عليك مرة واحدة لا غير ، وهي أنني أخفيت المسجل فيما بعد . كريس من كان ذلك المتكلم . ما اسمه ؟

— غياريان .

— نعم ، غياريان . عندئذ عرفت كل شيء . ومع ذلك لم أفهم شيئاً . إنني أقول الحقيقة . لم أعرف سوى شيء واحد ، وهو أنني لا أستطيع ... أنا لن ... سيستمر الوضع على هذه الشاكلة ؟ بلا نهاية ؟ لم يتحدث عن ذلك أبداً ، ومن الجائز أنه تحدث ، لكنك استيقظت فأطفأت المسجل . سمعت ما فيه الكفاية لأدرك أنني لست إنساناً ، بل مجرد أداة ولا غير .

— ماذا تقولين ؟

— نعم أداة لدراسة انفعالاتك ، أو شيئاً من هذا القبيل ، ولدى كل واحد منكم كائن ... مثلي . كائن مبني على الذكريات أو الخيال ... المنقبض . شيء من هذا القبيل . مع ملاحظة أنك تعرف ذلك أكثر مني . لقد نطق بأشياء مرعبة لا مثيل لها ، ولو لم يكن ما ذكره يتطابق كلياً مع ما يحدث معي لما صدقت ما يقوله .

— ما الذي يتطابق ؟

— أقصد ، أنني لا أحتاج للنوم . وأن عليّ أن أكون دوماً ملازمة لك . البارحة صباحاً فكرت أنك تكرهني ، لهذا لم أكن سعيدة . أية غيبة ! لكن قل ، قل بنفسك ، هل يمكنني أن أتصور لم يكرهها ؟ لكن كيف تحدث عنها ! عندئذ أدركت أنني ومهما فعلت فلن يتغير شيء ، شئت أم أبيت سيكون بالنسبة لك مجرد تجربة . بل أبشع من ذلك ، لأن أداة التجربة ميتة ، من دون دماء ،

مثل حجر بامكانه أن يسقط ويقتل . لم أتصور أن أداة يمكنها أن تعشق وتتمنى الخير . أريد أن أحدثك عما كان يدور في خلدي بعدما أدركت كل شيء ، بعدما استمعت لذلك التسجيل . ربما سينفعل حديثي هذا . حتى أنني حاولت أن أسجل بصوتي ...

— لذلك أشعلت الضوء ؟ سألتها بصوتي المنهك من ضغط حنجرتي .

— نعم . لكنني لم أصل لشيء . لأنني كنت أبحث في ذاتي ... عنهم ، عن الشيء الآخر مثل بلهاء . تراءى لي أن تحت جلدي لا يوجد جسد بل شيء آخر ... وأني مجرد ... فقط من خلال شكلي الخارجي ... لأخذك . هل تفهم ؟

— نعم ، أفهم .

— عندما أبقى ساهرة طوال الليل وحدي ، فإن أفكاري تذهب بعيداً جداً . في اتجاه غريب ، تعرف ...

— أعرف ...

— أحسست بقلبي ، وفهمت لماذا أخذت دماً مني . أية دماء لدي ؟ قل لي ، قل لي الحقيقة . تستطيع أن تقولها الآن .

— مثل دمي تماماً .

— أحقاً ؟

— أقسم لك .

— ماذا يعني ذلك ؟ هل تعلم أنني فكرت أن هناك شيئاً خيفاً في داخلي ، وإن كان فعلاً فيجب أن يكون صغيراً جداً ، طبعاً لا أعرف أين . والآن أعتقد أن ذلك كان مجرد مراوغات من قلبي ، لأنني كنت خائفة مما عزمت على تنفيذه ، بدأت أبحث عن مخرج آخر . كريس ، إن كان دمي عادياً ... إن كان كل شيء كما تقول ، فإنه ... لا . هذا غير ممكن . كنت فارقت الحياة — أليس

صحيحاً ؟ إذن لا بد من وجود شيء آخر . أين ؟ ربما في الرأس ؟ غير أنني أفكر بشكل عادي تماماً ... ولا أعرف شيئاً — وان كنت أفكر مثله فعلي أن أعرف كل شيء وفوراً ، وأن لا أقع في حبك ، بل أظهار ولا غير ، وأعرف أنني أظهار ... أرجوك يا كريس أن تشرح لي كل ما تعرفه . ربما سنحت لنا فرصة لأن نفعل شيئاً ؟

— ما هو الشيء الذي سنفعله ؟
بقيت صامته .

— هل تريد الموت ؟
— أعتقد ذلك .

خيم الصمت من جديد . كنت واقفاً قرب هاري الجالسة ، أنظر إلى القاعة الفارغة وإلى لوحات التجهيزات المطلوبة بالميناء ، وإلى الأدوات اللامعة المنتشرة في كل مكان ، وكأنني أبحث عن شيء ضروري للغاية ولا أجده .
— هاري ، هل أقول لك شيئاً ؟
بقيت ساكته تنتظر .

— هذه حقيقة . أنت لست مثلي تماماً . هذا لا يعني أنك أسوأ . على العكس . مع ملاحظة أنك تستطيعين أن تفكري بما شئت . بفضل ذلك الفارق بقيت على قيد الحياة .

ظهرت على وجهها ابتسامة طفولية بائسة .

— هل يعني ذلك أنني ... لن أموت ؟
— لا أعرف . في كل الأحوال ، أنت قابلة للبقاء أكثر مني .
— هذا مرعب .

— ربما اختلف الأمر عما نتخيله .
— لكن ، ألا تحسدني ... ؟

— هاري ، هذه مسألة تتعلق بالهدف ، هذا ما أظنه إن لم أخطئ التعبير .
أتفهمين ، إن هدف وجودك على متن المحطة مبهم ، كما هو مبهم الغرض من
وجودي أيضاً . إنهما سيتابعان تجربة غيباريان ، ويمكن أن يحدث كل شيء ...
— أو لا شيء ...

— أو لا شيء . وأضيف لك أنني لا أرغب بحدوث أي شيء . لا أقول ذلك
من خوفي (مع أنه يلعب دوراً) ، بل لأن ذلك لن يثمر عن شيء . أنا على
ثقة من ذلك ولا غير .

— لن يثمر عن شيء . لماذا ؟ الحديث يدور حول هذا ... المحيط .
وارتعشت .

— عن إقامة الصلة . نعم . إنهما يعتقدان أن ذلك أمر بسيط . إن إقامة الصلة
تعني تبادل المعلومات ، والمفاهيم والنتائج ... وإن لم يكن هناك شيء تتبادله ؟
إن لم نر الفيل عبارة عن بكتيريا كبيرة ، فلا يمكننا أن نتصور المحيط عبارة
عن دماغ كبير . طبعاً يستطيع الطرفان القيام بأفعالهما . وكنتيجة لأحدهما ،
أنظر إليك الآن وأحاول أن أشرح لك ، إنك بالنسبة لي أغلى من العشرين سنة
الفائتة والتي قضيتها في دراسة سولاريس ، وأنني أريد البقاء معك . ربما كان
سبب ظهورك هو مجرد تجربة لي ، أو خدمة ، أو أبحاثاً ميكروسكوبية أو ربما
تعبيراً عن الصداقة ، أو ضربة دنيقة ، أو سخرية ، أو كل ذلك مجتمعاً —
والاحتمال الأرجح ، لسبب لم أذكره بعد ولا أعرفه . ويبقى التساؤل
الأساسي ، ما دام الأمر كذلك فهل علينا أن نشغل أنفسنا بمآرب والدينا *
بغض النظر عن اختلافهما الكبير ؟

* المقصود هنا : الأرض وسولاريس (المترجم)

ستقولين أن مستقبلنا مرتبط بآريهما . أتفق معك في هذه النقطة ، فأنا لا أستطيع أن أتوقع ما سيحدث ، كما أنت ، ولا أعدك أنني سأحبك دوماً . لن يدهشني أي شيء آخر بعدما شاهدته اليوم . لربما تحولت غداً إلى قنديل بحر أخضر، هذا شيء لا يتعلق بنا . سنكون معاً في الأمور المتعلقة بنا وحدنا . وهل هذا قليل ؟

— اسمع — قالت هاري — هناك شيء آخر ... أنا ... أشبهها أم تشبهني
لهذه الدرجة ؟
— كانت تشبهك جداً ، أما الآن فلا أعرف .

— من هي ؟ ...
ورمقتني بعينها الواسعتين .
— لقد حجبتها .
— هل أنت واثق أنك لا ... بل لي ؟ لي ؟
— نعم . لك . لا أعرف . أخاف أن تكوني الحقيقية ، عندئذ لن أستطيع أن أحبك .

— لماذا ؟
— لأنني قمت بعمل مرعب .
— معها ؟
— نعم ! عندما كنا ...
— لا تتحدث .
— لماذا ؟
— لأنني أريد منك أن تعرف أنني — لست هي .

المحادثة

بعد عودتي في اليوم الثاني من الغداء ، وجدت قصاصة ورق تركها لي
سناوت على الطاولة قرب النافذة ، جاء فيها أن سارتوريوس قد توقف عن العمل .
في تجميع المحول وسيحاول لآخر مرة أن يؤثر على المحيط بواسطة حزمة شعاع
كبيرة . قلت لهاري :

— عزيزتي ، علي أن أذهب إلى سناوت .

كان الشروق يلهب فوق المحيط ويقسم الغرفة إلى قسمين . وقفنا في الظل ،
وكان كل ما يقع خارج نطاق الظلال يبدو وكأنه صنع من النحاس ، بحيث
لو سقط كتاب من على الرف لسمعت طنينه .

— سنتحدث عن التجربة . لا أعرف كيف ستم . كنت أفضل ، هل
تفهمين ..

— لا تشرح لي يا كريس . أنا بنفسني أريد ذلك ، شرط أن لا تطيل غيابك
عني .

— أعتقد أنني سأكون مضطراً للخوض في غمار مناقشة طويلة : اسمعي ، إن
رغبت تستطيعين الذهاب معي وانتظاري في الدهليز !

— حسناً . وإن لم أصبر ؟

— كيف يحدث ذلك ؟ سأنتها وأضفت فوراً : لا أسألك من الفضول .
أنفهمين ؟ إن عرفت ذلك فربما تستطيعين مقاومته .

— أنا خائفة ... — أجابت وشحب لونها قليلاً . غير أنني لا أستطيع البوح

بما أخافه ، لأنني شخصياً لا أخاف ، بل ... أن أختفي . أشعر بالخجل في اللحظة الأخيرة ولا أستطيع تفسير ذلك، ومن ثم أعود لأصبح عادية . لذا أعتقد أنني مريضة ... — أنهت حديثها بكلمات هادئة ثم ارتعشت .
— ربما يخامرك مثل هذا الشعور على هذه المحطة اللعينة . سأبذل ما في وسعي لنغادرها في أقرب فرصة .

— أعتقد أن ذلك ممكن ؟

— وما المانع ؟ فأنا لست مرتبطاً بها ... مع ملاحظة أن هذا الأمر يتعلق أيضاً بما سنقرره مع سنوات . كيف تفكرين ؟ هل تستطيعين البقاء وحدك طويلاً ؟ هذا أمر يتعلق ... قالت بصوت خافت ونكست رأسها — إن كنت أسمع صوتك فربما أستطيع مقاومة نفسي .

— من الأفضل ألا تستمعي إلى حديثنا . لا أطلب ذلك بهدف إخفاء الأمور عنك ، بل لأنني لا أعرف ما سيقوله سنوات ...
— لا داع لذلك . أفهم . حسن . سأقف بحيث لا أسمع سوى صوتك . هذا يكفيني .

— إذن سأتصل به من المخبر . سأدع الباب مفتوحاً .

هزت برأسها موافقة . خرجت إلى الدهليز عبر الجدار الملون بالأحمر . تراءى لي أن لون الدهليز أحمر مع أن المصاييح كانت مضاءة . كان باب المخبر الصغير مفتوحاً . وكانت قطع وعاء ديوار المتناثرة على الأرض في أسفل الاحتياطات الكبيرة من سائل الاوكسجين هي الأثر الوحيد المتبقي من ليلة البارحة . أضيئت الشاشة الصغيرة حالما رفعت السماعة وطلبت الرقم . بعد ذلك انشطر الشريط المزرق الذي كان يغطي زجاج الشاشة الأبرد ، وظهر سنوات جالساً على كنبه مرتفعة مستنداً على يده ونظر مباشرة في عيني . وسمعت صوته :

- أهلاً بك .
- قرأت رسالتك . أود التحدث إليك . هل أستطيع القدوم إليك .
- تستطيع . الآن ؟
- نعم .
- تفضل . هل ستكون معك ... ألن تكون وحدك ؟
- وحدي .
- اتخذ وجهه البرونزي المحروق النحيل بتجاعيده الحادة على جبينه تعابير ذات معان عديدة . كان يبدو من خلال الشاشة المدببة مجلسه المواربة أشبه بسمكة غريبة تعيش في حوض ماء .
- إذن ، انتظرك .
- لنذهب ياعزيزي — قلت بصوت مصطنع طيب وأنا أدخل الغرفة من خلال رسومات الظلال التي لم أر بعدها سوى خيال هاري .
- انقطع صوتي . كانت تجلس متفوقة على الأريكة متشبثة بمساندها . ربما سمعت صوتي متأخراً ، أو لم تستطع أن تخفف من وضعيتها المرعبة لتأخذ وضعها الطبيعي . إن ما شاهدته خلال ثانية كاف لأنصبر كيف كانت تصارع تلك القوة الغريبة الداخلية والتي اختفت فجأة ، فانتابني موجة غضب جنوني أعمى مصحوبة بشعور من الشفقة .
- مشينا سوياً في الدهليز . مررنا قرب جزء من المحطة مطلي بميناء متعدد الألوان ليعطي جواً من التجدد في هذه القمرة المعدنية وذلك حسب آراء مصمميهِ . ومن بعيد شاهدت باب محطة الاتصالات مفتوحاً ، تسلسل من خلاله حزمة ضوء أحمر ملساء طويلة : هذا يعني أن نور الشمس قد وصل هذه الناحية . ألقيت نظرة على هاري التي لم تحاول حتى أن تبتسم . لاحظت طول الطريق كيف كانت تستعد لتقاوم نفسها . لقد غير هذا الجو المتوتر من تعابير

وجھها الذي شحب لونه ، كأنه أصبح أصغر مما كان عليه . وقفت بعيداً عن الباب بضعة خطوات . التفتُ نحوها فدفعتني برؤوس أصابعها . تراءى لي في تلك اللحظة أن كل مخططاتي والمحنة وسنوات ضييلة قياساً بذلك العذاب الذي كان عليها أن تتحملة .

رأيت نفسي سفايحاً ، وأردت أن أعود إليها عندما غمرت حزمة ضوء عريضة ظلال إنسان . أسرع في خطواتي ودخلت الغرفة . كان سنوات يقف قرب العتبة وكأنه قادم للملاقاة . كانت الشمس الحمراء تلتهب خلف ظهره مباشرة مشكلة هالة أرجوانية تظهر من شعره الشائب . وقفنا صامتين بعض الوقت ننظر إلى بعضنا . بدا وكأنه يدرس تعابير وجهي . لم أستطع رؤية وجهه المعمي بالنور . مررت قربهِ ووقفت قرب المنضدة التي كانت تلوح عليها قضبان الميكروفونات المرنة ، التفت سنوات ببطء وراح يراقبني بهدوء ورسم على فمه تلك التصغيرة التي كانت تبدو أحياناً مثل ابتسامة وأحياناً كتعبير عن الإرهاق . اقترب سنوات من الخزنة المعدنية دون أن يرفع بصره عني ، تلك الخزنة المليئة بالقطع الاحتياطية العديدة لأجهزة الاتصال والمعدات والبطاريات الحرارية ، ثم جر الأريكة وجلس مستنداً إلى الباب المطلي بالميناء . تحول الصمت الذي كنا نحافظ عليه إلى شيء غريب . ركزت انتباهي إلى سكينه الدهليز حيث بقيت هاري ، لكنني لم أسمع أي صوت من هناك .

سألته :

- متى ستكون جاهزاً ؟
- يمكننا أن نبدأ اليوم ، لكن التسجيل يحتاج لبعض الوقت .
- التسجيل ؟ هل تعني البرنامج ؟
- نعم . لقد وافقت على ذلك . أم أنك غيرت رأيك ؟
- كلا ، أبداً .

- أنا مصغ — قال سنوات بعدما أصبح الصمت قاتلاً .
- أصبحت تعرف ... عني . — أخفضت صوتي حتى الهمس . ورفع سنوات حاجبيه .
- نعم ؟
- تشكل لدي انطباع أن دهشته لم تكن حقيقية ، فلماذا يتظاهر بذلك ؟
- لم تعد لدي رغبة بمتابعة الحديث لكنني استطعت التغلب على ذاتي . « ليكن ذلك وفاء مني ، إن لم يكن هناك سبب آخر » .
- بدأت تخمن ذلك بعد محادثتنا في المكتبة ، ثم راقبتني وقارنت الأشياء ببعضها ، بعد ذلك وجدت مسجل غياريان واستمعت إلى شريط التسجيل .
- لم يبدل من وضعيته ، وظل مستنداً إلى الخزانة واشتعلت النار في عينيه .
- كنت أرى الدهليز وأنا أقف قرب المنضدة . فتكلمت بصوت خافت جداً .
- ليلة البارحة حاولت الانتحار بسائل الأوكسجين عندما كنت نائماً .
- سمعت حفيفاً ، شبيهاً بحفيف ورقة في مصدر الريح . تسمرت مصغياً لما يجري في الدهليز . كان مصدر الصوت قريباً . صاصاً شيء مثل فأر . فأر ! ما هذه السخافة ! لا وجود للفئران هنا . نظرت إلى سنوات من تحت حاجبي .
- أستمع إليك . — قال سنوات بهدوء .
- طبعاً لم تستطع القيام بذلك . على كل حال هي تدرك من تكون .
- سألني بسرعة :
- لماذا تخبرني بذلك ؟
- لم أعرف ما أجيبه في بادئ الأمر .
- أريد أن تتخذ وجهتك .. أن تتفهم الوضع ..
- لقد حذرتك .
- وارتفع صوتي رغماً عن إرادتي :

— هل تقصد أنني أعرف ...

— كلا . طبعاً لا . لكنني شرحت لك كيف تجري هذه الأمور . إن كل « زائر » في لحظة ظهوره هو مجرد شبح خارج الذكريات والأشكال المشوهة التي يستمدّها الإنسان من ... آدمه ، ويكون في تلك اللحظة فارغاً تماماً . بقدر ما يتعايش معك فترة أطول بقدر ما يصبح إنساناً أكثر . وبالتالي يحوز على استقلاليتّه ، طبعاً ضمن حدود معينة ، لذلك بقدر ما تستمر هذه الحالة ، بقدر ما يصعب ...

لم ينه عبارته ، ورمقني بنظرة خاطفة وقال بمرارة !

— هل تعلم كل شيء ؟

— نعم لقد كلمتك .

— كل شيء ؟ أتعلم أنها جاءت قبل هذه المرة إلى المحطة وأنتك ...

— لا .

ضحك ساخراً .

— اسمع يا كيلفن ، إن كان الأمر قد وصل إلى هذا الحد فما الذي ستفعله ؟

هل ستغادر المحطة ؟

— نعم .

— معها ؟

— نعم .

صمت مفكراً بجوابي . كان صمته يتضمن شيئاً آخر . ترى ما هو ؟ من جديد سمعت تلك الصأصأة آتية من خلف الجدار الرقيق .

تلملم سناوت في مكانه :

— ممتاز . لماذا تنظر بهذه الطريقة ؟ هل تعتقد أنني سأقف في وجهك ؟ كلا

يا عزيزي . تستطيع أن تفعل ما تشاء وإن أضفيتا طابع الحذر على عملكما

فستبدوان بمظهر لائق . لست عازماً على إعاقتك ، كل ما أريد أن أقوله : أنك تتصرف كإنسان في وضع لا إنساني . ربما يبدو لك الأمر جميلاً ، لكنه بدون فائدة ، مع أنني لست واثقاً من جمالية ما ستفعله . وهل يمكن للحماسة أن تكون جميلة ؟ والقضية ليست هنا . إنك ترفض متابعة بقية التجارب وتريد مغادرة الحطة معها ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— هذا يبدو بحذ ذاته بمثابة تجربة أيضاً . هل فكرت بذلك ؟
ما هو قصدك ؟ هل هي ... تستطيع ؟ إن كانت معي فإني لا أرى ...
صرت أتكلم ببطء ومن ثم توقفت . تنفس سناوت بهدوء .
— نحن هنا ننفذ سياسة طويلة الأمد يا كيلفن ، وفي أسوأ الاحتمالات نعرف ذلك على الأقل ، بيد أننا لا نباهي بها .

— أنا لا أتباهى بشيء .

— حسن لا أريد إزعاجك . اسحب كلامي فيما يخص النبالة . لكن السياسة الطويلة الأمد تبقى في مكانها وأنت تنفذ هذه السياسة في صيغة خطيرة . إنك تخدع نفسك وتخدعها لتخدع نفسك من جديد . إنك على علم بشروط استقرار الأنظمة المبنية على المادة النيترونية ؟

— كلا . وأنت لا تعرف أيضاً . هذا ما لا يعرفه أحد .

— طبعاً . لكن هناك شيء معلوم ، إن هذا النظام لا يستقر ولا يتواجد إلا بفضل تيار لا ينقطع من الطاقة . لقد شرح لي سارتوريوس هذا . وهذه الطاقة تولد دوامة تثبت المجال . لهذا أتساءل هل المجال مجرد غطاء خارجي بالنسبة « للزائر » ، أم أن مصدر هذا المجال يقع في داخله . أتفهم الفارق بين الأمرين ؟
— نعم إن كان خارجياً و ... هي ... مثل ...

— ستينار . سينهار نظام تكوينها في حال ابتعادها عن سولاريس . نحن

لا نستطيع تأكيد ذلك ، وأنت من أجرى التجربة . فالصاروخ الذي أطلقته لا يزال يدور في المدار . لقد انتهزت فرصة فراغ وحددت عناصر حركته . وأنت تستطيع أن تحلق وأن تخرج بنفسك إلى المدار وتقرب من الصاروخ لتتأكد مما حصل ... مع المسافرة فيه .
وصرخت لي وجهه .

— هل جنت ١؟

— أهذا رأيك ؟ ولنفترض ... حسن هيا بنا نعمل لإعادة الصاروخ إلى مكانه . فما رأيك ؟ هذا عمل سهل للغاية . تستطيع بواسطة أجهزة التحكم عن بعد إخراج الصاروخ عن مداره و ...
— كفى .

— لا توافقني على ذلك أيضاً ؟ هناك طريقة أخرى بسيطة جداً ولا تحتاج إلى عودة الصاروخ إلى المحطة . ولماذا نعيده ؟ لندعه يدور كما يشاء ولنجري اتصالاً لاسلكياً معها ، وستجيبنا إن كانت حية ...

— لكن ... لقد انتهى الأوكسجين هناك منذ فترة بعيدة .
خرجت الكلمات مني بصعوبة .

— إنها لا تحتاج للأوكسجين . تعال لنجرب .

— سنوات ... سنوات ...

— كيلفن كيلفن ... قاطعني متأثراً — فكر أي إنسان أنت . من تريد أن تسعد ؟ أن تنقذ ؟ نفسك ؟ تنقذها ؟ هل تريد إنقاذ تلك التي ما زالت تحلق في الصاروخ أم هذه التي معك الآن ؟ وهنا الشجاعة لا تكفي لإنقاذ الاثنين معاً . ها أنت ترى بنفسك إلى أي شيء يقودك هذا الأمر ! أقول لك ولاخر مرة ، لا يقع الوضع هنا ضمن المقاييس الأخلاقية .

فجأة سمعت ذلك الصوت من جديد ، كأن أحداً يخربش بأظافره على

الجدار . اعترتني لا مبالة سلبية . شعرت كأنني أنظر إلى هذا الوضع وإلى شخصينا من مسافة بعيدة جداً ، من خلال منظار أستخدامه مقلوباً رأساً على عقب ، وبدا الأمر ضئيلاً مضحكاً لا قيمة له .

— حسناً ، إذن قل لي ماذا أفعل ؟ هل أبعتها ؟ وغداً ستظهر مثلها ، أليس كذلك ؟ وستكرر المسألة ؟ هذا ما سيحدث كل يوم ؟ وإلى متى ؟ ولماذا ؟ وما فائدة ذلك ؟ ما فائدة ذلك بالنسبة لك وللمحطة ولسارتوريوس ؟

— لا ، عليك أن تجيب أولاً على سؤالي . هل ستطير معها وستكون ، لنقل شاهداً على التبدلات التي ستطرأ عليها . سترى بعد دقائق ...

— ما الذي سأراه . أعجوبة الأعاجيب ؟ الشياطين ؟ ماذا ؟

— لا ، سترى سكرات موت حقيقية . هل أنت واثق من عدم موتها ؟ أصدقك القول أنهم يموتون أيضاً ... ما الذي ستفعله آنذاك ... هل ستعود لتأخذ الاحتياطية ؟

— كفى !!! صرخت في وجهه وشدت على قبضتي .

رمقني بنظرة متساحمة من عينيه المتسعيتين .

— آها . يجب أن أتوقف ؟ هل تعلم لو أنني في مكانك لقطعت هذا الحديث . من الأفضل أن تفعل شيئاً آخر . مثلاً أن تجلد المحيط بالسوط . ما الذي يعذبك ؟ إن كان ... — حرك يده بحركة وداع مبالغ فيها ، ثم رفع رأسه إلى السقف كمن يراقب شيئاً طائراً . ستكون دنيئاً ؟ أما هكذا — فلا . ألا تعد دناءة أن تبترسم في الوقت الذي ترغب فيه أن تعوي ، وأن تتظاهر بالهدوء والسعادة في الوقت الذي تريد ضرب رأسك بالحائط ؟ وما الذي ستفعله إن كان الوضع لا يسمح إلا أن تكون بهذا الشكل ؟ ستهجم على سناوت المذنب في كل شيء ، أليس كذلك ؟ وأضيف لك ، أنك أبله يا عزيزي ...

— أنت تصف نفسك — تتممت ونكست رأسي — أنا أحبها .

- من تحب ؟ ذكرياتك ؟
- كلا . أحبها . لقد رويت لك ما أرادت أن تفعله . هذا أمر لا يفعله إلا قليلون ... من الناس الحقيقيين .
- ها أنت تعترف بنفسك .
- لا تتصيد كلماتي بالمعنى الحرفي لها .
- حسن . وهكذا فهي تحبك إذن . وأنت تريد أن تحبها . ألا يعد ذلك أمراً واحداً .
- أنت مخطيء .
- كيلفن . مع أنني لا أستلطف هذا الحديث ، لكنك أنت من تحدثت عن أفعالك الودية . تحب . لا تحب . وهي جاهزة لتقدم لك حياتها . وأنت أيضاً . هذا شيء مؤثر جميل جداً ، بل رائع . كل ما تريده في غاية الروعة . لكن لا مكان هنا لكل ما تذكره . لا . هل تفهم ؟ . لا . أنت لا تريد أن تفهم . هذه قوى ليست تحت سيطرتنا . وأنت تدور في حلقة مفرغة لا مخرج منها ، وهي تشكل جزءاً من هذه العملية . تشكل مرحلة . تكرر نفس الإيقاع . إن كانت ... إن جاءتك كشيء يقوم بأفعال مرعبة لما تأخرت لحظة ومن دون أية ذبذبة في العمل على التخلص منها . أهذه حقيقة أم لا ؟
- حقيقة .
- ربما ... لهذا السبب تبدو في صورة ليست موحشة ؟ أهذا ما سيكبل يديك ؟ وعن هذا الموضوع يدور الحديث ، أي كي تبقى يداك مكبلتان !
- هذه نظرية يمكن إضافتها لتلك الملايين المحفوظة في المكتبة . دعك من هذا يا سناوت . إنها ... لا . لا أريد الحديث معك حول هذا الموضوع .
- حسناً . أنت من بدأ الحديث . لكن فكر جيداً في جوهر الأمر . إنها ليست أكثر من مرآة ينعكس فيها جزء من دماغك . إن كانت رائعة فذلك يعود إلى

ذكرياتك الجميلة عنها . أنت من قدم الوصفة — الحلقة . لا تنسى ذلك .
 — ما الذي تريده مني ؟ أن ... أن أبعداها ؟ لقد سألتك ولم تجبني .
 — سأجيبك الآن . فأنا لم أطلب منك إقامة هذا الحوار ، ولم أ تدخل في
 شؤونك . لم أأمرك بشيء ، ولم أ منع عنك شيء ، حتى لو كنت أستطيع فعل
 ذلك ، فلن أفعل . أنت من جاء وصرح بكل شيء ، فهل تعرف لماذا ؟ كلا .
 إنك تفعل ذلك لترفع عن نفسك المسؤولية ، لترميها عن كاهلك . إني أدرك
 هذا الثقل يا عزيزي ! نعم ، نعم ، أرجو أن لا تقاطعني ! فأنا لن أقف في
 وجهك على الرغم من أنك تريد ذلك . ستحطم رأسي إن وقفت في طريقك .
 وسيكون آنذاك حساب لك معي ، حساب مع أعمى من دمك ولحمك
 وستشعر بنفسك أنك إنسان . أما هكذا ... فلن تحل العضلة ولذلك
 تجادلني ... أما حقيقة الأمر فإنك تجادل نفسك ! قل لي أيضاً أنك ستحزن
 كثيراً لو اختفت فجأة ... لا ، الأفضل أن لا تقول شيئاً .
 — إذن اسمع ! لقد جئت من شعوري بالوفاء نحوكما ، ولأخبرك أنني عازم على
 مغادرة المحطة .
 هذا ما قلته لسنوات لأصده هجومه ، ومع ذلك بدت كلماتي غير مقنعة ، وهز
 سنوات كتفيه .
 — من المحتمل أن تبقى على رأيك . لقد تحدثت معك لسبب ، هو أنك تحلق
 بعيداً بأفكارك ، والسقوط ... أنت تعرف ماذا يعني ... أصعد غداً في التاسعة
 صباحاً إلى الطابق العلوي ، إلى سارتوريوس ... هل ستأتي ؟
 — إلى سارتوريوس ؟! — تعجبت . — إنه لا يسمح لأحد بالدخول إليه .
 — لقد جهزت الأمور عنده . نحن لا نتحدث عن هذا الموضوع . وأنت ...
 أمر آخر كلياً . هذا لا يهم . هل ستأتي غداً ؟
 — حسناً سآتي .

نظرت إلى سنوات . اختفت يده اليسرى خلف الخزانة . بدا الأمر كأنه صدفة . متى انفتح الباب ؟ ربما جرى ذلك منذ فترة طويلة أثناء ذلك الحديث الذي أزعجني ، لذلك لم أنتبه له . كان وضعه لا طبيعياً ، كأنه .. يخفي شيئاً هناك . أو أن أحداً يمسك بيده . مررت لساني على شفاهي :

— مابك يا سنوات ؟

— اخرج — خاطبني سنوات بصوت هادئ خافت . — اخرج . خرجت وأغلقت الباب المضاء بهالة حريق أحمر . كانت هاري جالسة على الأرض على بعد عشرة خطوات من الباب ، ملتصقة بالجدار . قفزت واقفة عندما شاهدتني .

— هل ترى ؟ — قالت ورمقتني بعينها البراقنتين . — لقد فعلتها يا كريس ... أنا سعيدة جداً . ربما ... ربما سنتخلص من ذلك ...

— آ . ربما . أجبها بذهول .

عدنا إلى حجرتنا ، وكاد رأسي ينفجر لكثرة محاولاتي معرفة سر تلك الخزانة الغبية . هل يعني أنه خبأ فيها ... ؟ وحديثنا ...

بدأت وجنتاي تلتهبان حتى أنني فركتهما . ما هذا الجنون ؟ هل اتفقنا في شيء ؟ لم نتفق . الحقيقة أنه غدا صباحاً ...

غمرني الرعب فجأة ، كان رعباً شبيهاً برعب آخر ليلة . مخطط دماغي ... التسجيل الكامل لكافة العمليات الدماغية ، سيرسل إلى الأسفل كحزمة أشعة متذبذبة . إلى أعماق هذا المجهول الهائل اللامحدود . مثلما قال سنوات :

« ستحزن جداً إن اختفت فجأة ، أليس كذلك ؟ » المخطط الدماغية . هذا يعني تسجيلاً كاملاً لعمليات العقل الباطني أيضاً . أيتحمل أنني رغبت أن تموت ، أن تختفي ؟ إن لم تكن لدي مثل هذه الرغبة لكنت ذهلت من بقائها على قيد الحياة بعد محاولتها الفظيعة بالانتحار . ترى هل أنا مسؤول عن أفكار الباطنية ؟

وإن كنت لست مسؤولاً عنها فمن المسؤول ؟ .. أية حماقة ؟ من أجل أية شياطين وافقت على أن يأخذ مخطط ... مخطط دماغي ... طبعاً أستطيع إلقاء نظرة تمهيدية على التسجيل ، لكن لن أتجرأ على قراءته . هذا شيء لا يستطيع أن يفعله أحد . الأخصائيون وحدهم القادرون على تحديد الأفكار التي وردت في رأس من يسجلون مخطط دماغه ، وهم في نفس الوقت غير قادرين على تحديدها إلا بخطوطها العريضة . مثلاً هم يستطيعون معرفة أن ذلك حلّ لمسألة رياضية ، لكنهم غير قادرين على تحديد تلك المسألة . ويؤكدون أن تحديد ذلك مستحيل ، لأن تخطيط الدماغ هو عبارة عن تسجيل — تم مصادفة — لخليط من العمليات المتعددة والكبيرة والمستمرة في الوقت نفسه ، يحتوي جزء منها على « بطانة » نفسية . أما العقل الباطني ؟ فهم يرفضون حتى مجرد الحديث عنه ، وكيف لهم أن يقرأوا ذكريات انقضت أم لم تنقض لشخص محدد ... لكن لماذا أخاف بهذا الشكل ؟ لقد قلت لهوري في هذا الصباح أن التجربة لن تجدي نفعاً إن كان أخصائيو الجملة العصبية غير قادرين على قراءة التسجيل فكيف لهذا السائل الهائل الأسود المرعب الغريب أن ...

لا أعلم كيف دخل إلى أعماقي ليقبس ذاكرتي ، وكيف وجد المكان المؤلم فيها . كيف أرتاب في ذلك . لقد استطاع من دون أية مساعدة ومن دون أن يستخدم أية « إرساليات شعاعية » الدخول إلى المحطة ويعبر درعها المحصن بجدارين . ومن ثم يجديني داخلها ، ثم يغادرها حاملاً معه الغنيمة ... — كريس ؟ نادتنى هاري بهدوء .

وقفت قرب النافذة مثبتاً ناظري في العتمة المتكاثفة . إن اختفت بعد ذلك فهذا يعني أنني أردت ذلك ... بمعنى أنني قتلتها . هل سأصعد إليهما ؟ لن يستطيعا أن يجبراني . وماذا أقول لهما . هذا — لا ، لا أستطيع . إذن عليّ أن أكذب ، أن أمثل من جديد وباستمرار . وهذا ناتج

عن احتمال وجود أفكار وأهداف وآمال مرعبة مجرمة في داخلي ولا أعرف عنها شيئاً . أنا إنسان خرج ليتعرف على عوالم أخرى ، على حضارات أخرى ، دون أن يدرك تماماً مخايبه الداخلية ، دون أن يدرك أزقته وآباره وحواجزه وأبوابه القائمة . هل أخونها من أجلهما ... لحجلي منهما ؟ هل أخونها لأن شجاعتي لا تكفيني ؟

— كريس ... خاطبتني بصوت هامس .

شعرت بذلك أكثر مما لو كنت سمعت وقع أقدامها وهي تقترب دون جلبة . تظاهرت أنني لم ألاحظ شيئاً . رغبت بالبقاء وحدي في تلك اللحظة . كنت بحاجة لذلك . لم ألتخذ قراراً بعد ولم أصل لنتيجة . وقفت دون حركة أنظر إلى الظلام الذي بدأ يحيم على السماء رويداً رويداً وإلى النجوم التي بدت كظلال شفافة لنجوم الأرض ، وترعرعت ثقة عمياء لا مبالية في الفراغ الذي حل مكان الأفكار المتلاحقة المجنونة ، وهناك اخترت طريقي في أعماق وعي الذي لا أصل إليه وتظاهرت أن شيئاً لم يحدث ، ولم تكن لدي القوة الكافية لأحتقر نفسي .

التجربة

— ما بك يا كريس ، هل تعاني من أجل تلك التجربة ؟ ارتعشت من صوتها .
 بقيت متمدداً عدة ساعات في الظلام دون نوم . لم أكن أسمع حتى أنفاسها .
 كنت ضائعاً في متاهات أفكار لي الليلية الشفافة اللامعقولة ، والتي كانت
 تكتسب من جراء ذلك أهمية جديدة ، ولذلك نسيت وجودها .

— ماذا ... كيف عرفت أنني لست نائماً ؟ خرج صوتي خائفاً .
 — من إيقاع أنفاسك ... — أجابت بصوت خافت خائف . — لا أريد
 إزعاجك ولا أطلب منك أن تجيب إن لم ترغب بذلك ...
 — لا ، ولماذا لا أرغب . نعم هذا من التجربة . لقد خمنت صحيحاً .
 — ما الذي ينتظرونه من التجربة ؟

— إنهما لا يعرفان ما يريدان . لا يعرفان أي شيء . لا يجوز أن نسمي التجربة
 « الفكرة » بل « اليأس » . إنهما يحتاجان الآن لشيء واحد : إنسان لديه
 الشجاعة ، يأخذ على عاتقه مسؤولية القرار — مع أن الغالبية تنظر إلى هذه
 الشجاعة كجبن عادي ، لأن ذلك يعد تراجعاً . أتفهمين ، استسلام ، هروب
 لا يشرف الإنسان . إنهما يعتقدان أن ما يشرف الإنسان هو غمسه ، طمسه
 وإغراقه في شيء لا يفهمه ولن يفهمه أبداً .

توقفت لحظة ، وقبل أن تنتظم أنفاسي المتسارعة اعترتني موجة غضب
 عارمة .

— طبيعي أن يكون الإنسان العملي أبعد ما يكون عن النواقص . يقولان أننا

سندرك أسرار المادة بدراستنا لهذه البلازما — هذه التشكيلات الحية الطائشة التي تخرج منها وتختفي في كل يوم بغض النظر عن إمكانية إقامة الاتصال معها ؛ يبدو الأمر وكأننا لا ندرك أن ذلك مجرد هراء وكذب ، شبيه بدخولنا إلى مكتبة مليئة بآلاف المجلدات المخطوطة بلغات لا نعرفها بحيث لا نستطيع إلا أن نتفرج عليها وعلى أغلفتها المختلفة الألوان ... وإلا كيف ؟

— هل هناك كواكب أخرى مثل هذا الكوكب ؟
— لا نعلم . من الجائز أن تكون هناك كواكب أخرى ، بيد أننا لا نعرف سواء . وفي كل الأحوال هذه مسألة نادرة للغاية . إنه لا يشبه الأرض . نحن ... نحن عاديون ، نحن مجرد حشائش مزروعة ونفتخر بعاديتنا العامة هذه ، ونعتقد أنها تتسع لكل شيء . هذا هو مخطط الرواد الذين انطلقوا بجرأة وسعادة يحبون العوالم الأخرى ! وماذا يعني العوالم الأخرى ؟ هل سنخضعهم أم سيخضعوننا — لم نفكر بشيء آخر ... آ . حسن ، هذا أمر لا يستحق الحديث عنه .

نهضت واستطعت بطريقة اللمس أن أجد علبة ملساء للمهدئات في الصيدلية وقلت لهاري في هذا الظلام الساكن الذي كان يعكره أزيز مكيف بعيد :
— سأنام يا عزيزي . يجب أن أنام .

شعرت بالارتياح والفتوة عندما استيقظت صباحاً . بدت لي التجربة لا أهمية لها . لم أفهم لماذا أعطيتها كل هذه الأهمية . كذلك لم تقلقني مسألة ذهاب هاري معي إلى المخبر . لقد ذهبت جهودها عبثاً بعد عدة دقائق من خروجي من الغرفة . رفضت بقية المحاولات التي أصرت عليها (إذ وافقت أن أغلق عليها الباب بالفتاح) ونصحتها أن تأخذ معها كتاباً .

لقد أثارني ما سأراه في المخبر أكثر من الاجراءات التي ستم . عدا تلك الثقوب الكبيرة في الرفوف والخزائن (لأن بعض جدران الخزائن قد تطايرت

وتشقق لوح باب إحداها على شكل نجمة متشعبة الرؤوس تشير بدقة إلى صراعات حادة وقعت ثم أزيلت آثارها بسرعة وبدقة . لم يكن باستطاعتي ملاحظة شيء آخر في هذه القاعة المضاءة باللون الأزرق . كان سنوات يتمشى قرب الأجهزة ضابطاً أعصابه واستقبل قدوم هاري كشيء عادي تماماً ، وانحنى لها من بعيد . ظهر سارتوريوس بعدما مسح سنوات جيبني ووجنتي بمحلول فيزيولوجي . دخل سارتوريوس إلى مكان معقم من خلال باب صغير . كان يرتدي مريولاً أبيضاً وسترة دفاعية تصل حتى خديه . القى التحية وكأننا زملاء كنا نعمل سوياً في معهد كبير للأبحاث على الأرض وقد افترقنا البارحة . لاحظت الآن أن تعابير وجهه الميتة ناتجة عن تلك الزجاجات التي يضعها تحت جفنيه بدلاً من النظارات . عقد سارتوريوس يديه على صدره ونظر إلى سنوات الذي بدأ بلف شرائط الدارة الكهربائية على رأسي . تجول بعينه عدة مرات في القاعة ولم يعر انتباهاً هاري التي كانت تجلس على مقعد صغير قرب الجدار متحفزة بائسة تتظاهر بقراءة الكتاب . ابتعد سنوات عن أريكتي . أدركت رأسي المثقل بقطع معدنية وتيارات موصلة لأشاهد عملية تشغيل الأجهزة ، غير أن سارتوريوس رفع يديه بغتة وحدثني بروحانية :

— أرجوك يا دكتور كيلفن أن تكون منتبهاً . لن أمرك بشيء لأن ذلك لن يجدي نفعاً ، فقط أرجوك أن تتوقف عن التفكير بنفسك وعني وعن الزميل سنوات وعن كافة الوجوه الأخرى بهدف إبعاد كافة المصادفات . أرجو أن تركز أفكارك على العمل الذي قدمنا من أجله ، أي على الأرض وسولاريس وعلى الأجيال المتعاقبة من البعثات والعلماء الذين يشكلون وحدة متكاملة ، مع أن حياة بعض الوجوه بداية ونهاية . أن تركز على إصرارنا على إقامة اتصال ذهني ، وعلى التدريب التاريخي الطويل الذي اجتازته البشرية ، وعلى ثقتنا بمتابعة التدريب ، وعلى استعدادنا لمواجهة كافة الصعاب والتضحيات ، وعلى إخضاع كل مشاعرنا

الشخصية في سبيل هدفنا — هذه هي المواضيع التي عليها أن تشغل وعيك .
والحقيقة أن مجرى الأفكار لا يخضع بتاتاً لل رغبات ، لكن مجرد وجودك هنا يؤكد
حقيقة ما أشرت إليه . إن لم تكن واثقاً من نجاحك في إنجاز المهمة فأرجو أن
تخبر زميلنا سنوات ليعيد التسجيل . لدينا كثير من الوقت ...
أطلق آخر كلماته مع ابتسامة شاحبة جافة وهو ينظر إلي بنفس تلك النظرة
الثابتة .

شعرت بأمعائي تنقطع من الأهمية التي أعطاها سارتوريوس لتلك العبارات
التي نطقها بكل جدية . لحسن الحظ قطع سنوات الصمت الذي خيم وقال
وهو يتكئ بمرفقه على جهاز التحكم العالي للمخطط الدماغي الكهربائي بدون
تحفظ أو حذر ، كأنه يستند على ظهر أريكة :

— هل يمكننا أن نبدأ يا كريس ؟

شكرته من قلبي لمخاطبته لي باسمي .

— ممكن أجته وأغمضت عيني .

وغاب القلق الذي كان يسيطر على دماغي حالما وضع سنوات أصابعه على
الأزرار . من خلال رموش عيني شاهدت الضوء الوردي لمصابيح المراقبة على
رصيف الجهاز الأسود . تدريجياً ، غاب شعور عدم الارتياح من ملامسة
الدارات الكهربائية الباردة الرطبة . كنت مثل حلبة رمادية تنقصها الإضاءة ،
وجمهور كبير لا مرئي يراقب هذا الفراغ من علو وقد انتشر حول حلبة مسرح
قديم والصمت يعم المسرح بأكمله ، ذلك الصمت الذي يكبر فيه ازدراء ساخر
لسارتوريوس ومهمته . رويداً رويداً ضعف التوتر الداخلي للمتفرجين .
« هاري » فكرت فيها بحذر مصحوب بقلق مبهم ، بحيث كنت على استعداد
للتراجع فوراً . لم تعارض ذلك نفسي المتيقظة العمياء . لبعض الوقت كنت
مجرد حساسية تامة ، شفقة حقيقية مستعد للتضحية بدون حدود . لقد ملأنتني

هاري من دون أشكال أو حالات وحتى من دون وجه . فجأة ظهر أبو السولاريسين البروفيسور غيزيه من العتمة الرمادية بكل عظمته وتألقه وذلك من خلال شخصية هاري المندثرة البائسة والعاطفية . لم أفكر بالثوران الطبيي ولا بعباب التناة اللذين ابتلعا نظارته الذهبية وشاربيه وشعره الشائب المسرح بدقة . إن ما شاهدته كان صورة لوحة محفورة لوجهه على صفحة الألقاب في بحثه العلمي . كانت صورته مرسومة على خلفية مخططة بخطوط كثيفة رسمها الفنان حول رأسه لتبدو مثل هالة . لم يكن غيزيه يشبه والذي بملاح وجهه ، بل برزائته الأخلاقية القديمة الطراز ، وكان الشبه كبيراً بحيث لم أعد أميز من كان منهما ينظر إلي . لم يكن لأي منهما قبر معروف — وهذه حالة أصبحت اعتيادية ومكررة في وقتنا الحاضر . لهذا لم أعان من هذه المسألة .

اختفت الصورتان من أمامي في لحظة واحدة — لا أعرف كم استغرق ذلك من الوقت — نسيت خلالها كل ما يحيط بي ، المخططة والتجربة وهاري والمحيط الأسود ، وغمرني شعور بالثقة سريع كالبرق من أن هذين الاثنين المفقودين والصغيرين جداً اللذين تحولوا إلى حفنة تراب ضئيلة استطاعا تقويض كافة الصعاب التي اعترضت سبيلهما ، وانطلاقاً من هذا الاحساس الرحب بالهدوء تبعثرت كتلة الجمهور الغامضة التي كانت تحيط بالحلبة الرمادية منتظرة لحظة فشلي الذريع بصمت مطبق . سمعت نقرتين متتاليتين ، وانطفأت الأجهزة وسقط شعاع من النور في عيني . كان سارتوريوس ما يزال على وقفته ينظر إلي متفحصاً . أما سنوات الذي أدار ظهره فقد كان مشغولاً بالأجهزة .

وصدح صوت سارتوريوس الكئيب المقزز :

— دكتور كيلفن هل تعتقد أنك نفذت المهمة ؟

— نعم .

— هل أنت واثق من ذلك ؟ سألني مرة أخرى وملاح الدهشة والارتياح بادية

على وجهه .

— نعم .

استطاعت قناعتني الراسخة . وحدة أجوبتي أن تزيل عنه أهميته الباردة .
— هذا ... جيد . تتم سارتوريوس كأنه لا يعرف ماذا يفعل بي الآن . اقترب
سناوت وبدأ يرفع الأحزمة عني .

نهضت وتمشيت في القاعة ، وعاد سارتوريوس في هذه اللحظة بعد أن غاب
في الغرفة المظلمة حاملاً معه الشريط بعد إجراء عملية الاظهار والتجفيف .
كان التسجيل يمتد بخطوط مهتزة ذات أسنان مضاءة على طول خمسة عشر متراً .
كان شبيهاً بعفن ، أو بخيوط عنكبوت تمتد على الشريط الأسود الأملس .
لم يبق لي شيء أفعله ، لكنني لم أغادر المكان . وضع زميلاي التسجيل في
علبة متأكسدة لجهاز صنع النماذج . نظر سارتوريوس إلى نهاية التسجيل مرة
ثانية . تفرس بتلك الخطوط بارتياب ، كأنه يحاول حل الرموز المسجلة لقراءة
الفكرة .

اقترب سارتوريوس وسناوت من جهاز التحكم وأشغلاه . ظهر جرن في
اللفافات الفولاذية السفلى رافقه صوت خرخرة ضعيف ، وتراكضت أضواء
أنايب المؤشرات الزجاجية العمودية إلى الأسفل مشيرة إلى هبوط الأنبوب الكبير
لجهاز الأشعة إلى البئر العمودية ليتوقف في حنجرته المفتوحة .

تسمرت الأضواء في أسفل تقسيمات المدرج ، وبدأ سارتوريوس بمضاعفة
التوتر . دارت العقارب . بالأحرى المؤشرات البيضاء التي حلت محل العقارب
نصف دورة إلى اليمين . خف الأزيز حتى بات يسمع بصعوبة . ولم يحدث أي
شيء أكثر من ذلك . دارت الملفات بالأشرطة تحت الغلاف ، وكان من الصعب
رؤية ذلك ، أما العداد فراح يدق مثل ساعة ميكانيكية .

كانت هاري تنظر تارة إلي وأخرى إليهما . اقتربت منها . نظرت إلي بيأس .

انتهت التجربة الآن . اقرب سارتوريوس من رأس الجهاز المخروطي الكبير .
— هل نذهب ؟ سألتني هاري بحركة من شفيتها . أشرت برأسي موافقاً .
خرجت ومررت بمحاذاة سارتوريوس دون أن أودع أحداً . لوفعلت ذلك لبدا
الأمر من دون معنى .

كان الغسق يلتهب بجمال خارق خلف نوافذ البهو العالي . لم يكن لوناً
قرمزيّاً عادياً كثيباً متورماً ، بل ظلالاً عائمة مرشوشة بفضة زهرية اللون . ظهر
سواد ثقيل جامد متورم لسطح المحيط اللامتناهي استجابة لهذه الاشراق الدافئة
اللامعة ببريق ليلكي خفيف . فقط بقي أفق السماء أشقر كما هو .

بغثة توقفت في منتصف الدهليز . لم أتصور أنني سأعود وهاري لنغلق
الباب على أنفسنا من جديد في تلك الغرفة الشبيهة بالسجن ، حيث لا نرى
منها سوى المحيط . قلت لهاري :

— هاري أريد ... أريد إلقاء نظرة على المكتبة ، ألا تعارضين ؟
أجابت بشيء من الانتعاش المصطنع :

— أوه ، بكل ارتياح ، سأبحث لنفسي عن كتاب أطلع فيه .
شعرت أن شرحاً قد حدث بيننا منذ البارحة . عليّ أن أكون معها أكثر
طيبة . غير أن خمولاً شديداً غمرني فجأة . لا أعرف طريقة استطيع التخلص
منها .

عدنا إلى الورا . دخلنا إلى الموزع . كانت ثلاثة أبواب تفصلها خزائن ذات
واجهات زجاجية ضخمة تحمي خلفها زهور مختلفة الألوان .

كان الباب المؤدي إلى المكتبة مغطى من جانبه بجلد اصطناعي منتفخ لم
أحاول لمسه من قبل أبداً لأسباب لا أعرفها . كان البرد يعم في الغرفة الدائرية
الكبيرة ذات السقف المرسوم عليه شمس بأسلوب تجاري .

مررت بيدي على أغلفة مجلدات سولاريس الكلاسيكية . أردت أخذ مجلد غريزه ، لكن نظري وقع على مجلد غرافينسكي المهترىء والذي لم ألحظ وجوده في المرات السابقة .

جلست على كنية مريحة . كان الهدوء تاماً . بدأت هاري تتصفح كتاباً خلفي . كنت أسمع حفيفاً رقيقاً من جراء ملامستها لأوراق الكتاب . احتوى دليل غرافينسكي على كافة الفرضيات السولاريسية مرتبة حسب نظام أبجدية الحروف . لقد أدخل هذا المُصنّف الذي لم يشاهد كوكب سولاريس البتة بحوث وبرتوكولات الرحلات الاستكشافية والمقالات المختلفة والمعلومات الأولية في دليله . كما أجرى دراسة مفصلة لأعمال علماء الكواكب الذين أجروا دراساتهم على كواكب أخرى ، وألف مصوراً مخيفاً مليئاً بمعادلات أصبحت تافهة في وقتنا هذا ، وقد حطم بذلك تلك الدقة المعقدة للأفكار الناتجة عن هذه الفرضيات .

لم يعد لهذا الدليل أية قيمة إلا كموسوعة طريفة ، فقد نشر منذ عشرين سنة خلت ، ومنذ ذلك الوقت ولغاية اليوم تكوّم جبل من الفرضيات التي لا يمكن لكتاب أن يضمها بين دفتيه . ولم يعد إلا قليل من أولئك العلماء الذين تحدث عنهم الدليل على قيد الحياة ، بالأحرى لم يعد أي منهم يمارس بنشاط مسائل سولاريس . وبعد مطالعة هذا الدليل الذي احتوى على مختلف التيارات والاتجاهات كثرة ذهنية ، يتشكل انطباع أن إحدى هذه الفرضيات لا بد أن تكون حقيقية ، ولا يمكن للواقع أن يخالف أو يغير هذه الآلاف المؤلفة من المقترحات . لقد قسم غرافينسكي أبحاث سولاريس التي جرت خلال ستين عاماً إلى مراحل . بدأت المرحلة الأولى من لحظة اكتشاف سولاريس . في هذه المرحلة لم يتقدم أي من العلماء بنظرية تعتمد على المعرفة الحقيقية . لقد قرروا

عن طريق « الحدس » وبما يتناسب والمنطق الصحيح اعتبار المحيط كتلة ميتة من المواد الكيميائية تملك القدرة على تشكيل أشكال غريبة بفضل نشاطها « البركاني » . ويستقر المدار المتأرجح نتيجة للعمليات الأتوماتيكية المختلفة ، وهو أشبه برقاص يتمسك بالسطح الخلفي للمتأرجح . والحقيقة أن ماجينو تحدث بعد ثلاث سنوات فقط ولأول مرة عن الطبيعة الحية « للسيارة الهلامية » ، بيد أن غرافينسكي لم يؤرخ مرحلة الفرضيات البيولوجية إلا بعد مضي تسع سنوات ، وذلك بعد أن حازت نظرية ماجينو على أنصار كثيرين . قبل ذلك ظلت هذه النظرية وحدها في الظلام بعيدة عن الأنظار . وفي مرحلة وفرة المعلومات ، أي في السنوات التالية تكونت نماذج جديدة عديدة معقدة ومدعمة بتحاليل بيورياضية للمحيط الحي .

تميزت المرحلة الثالثة بانهار كافة الفرضيات السولاريسية التي استمرت أعواماً كثيرة . وظهرت أعداد كبيرة من النظريات المنافسة بمجد . كان ذلك عصر نشاط كل من بانالمير ، شتروبل ، فريهاوز ، أوسيوفيتش ، وتعرضت مخلفات غيزيه لنقد قاتل . وصدرت أولى المصورات والأطالس والصور المجسمة للمتأملات ، التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين مجرد تكوينات لا يمكن دراستها . لقد حدث هذا الانعطاف بفضل أجهزة الاستشعار عن بعد ، التي أرسلت إلى الأعماق المتدفقة وهي تهدد في كل لحظة بانفجار الجابرة ، عندذاك ظهر أصحاب فرضيات « الحد الأدنى » الذين قالوا ، أنه في حال عدم إنجاز عملية « الاتصال » السيئة الصيت مع « الغول المفكر » فإن دراسة المقلدين والجبال الكروية التي يطلقها المحيط ليلتلعها فيما بعد . تقدم لنا معلومات كيميائية ، وكيمياء — فيزيائية في غاية الأهمية ، وتقدم أيضاً معلومات جديدة عن بنیان الجزيعات الهائلة الخ . آنذاك لم يحاول أحد مجادلة أنصار هذه الأفكار . في تلك المرحلة لم تكن مصورات الأشكال المتحولة ونظرية فرانك البيو بلازمة قد

فقدت أهميتها بعد مع أنها دحضت كنظرية واعتبرت غير صحيحة . مع ذلك بقيت تلك المرحلة تقيم كمثال رائع لقوة المنطق وللسعة الذهنية .

لم تكن مراحل غرافينسكي سوى مراحل الشباب الساذج والعفوية الرومانسية المتفائلة . أخيراً ظهرت أولى الأصوات التشككية بنضوج العلم السولاريسي . من جديد ظهرت نظريات ميكانيكية غروانية عن لا عقلانية المحيط السولاريسي . واعتبرت كافة الأبحاث المتعلقة بإرادة الأمواج الواعية والعمليات الهادفة والأفعال الناتجة عن المتطلبات الداخلية للمحيط مجرد تصورات منحرفة نتجت عن خبل جيل كامل من العلماء . لقد دفع سعيهم الحثيث لنقض تلك التأكيدات القيام بإجراء عمليات تحاليل واعية اعتمدت على كمية هائلة من الوقائع التي جمعها فريق هولدين واوينديس وستوليفي . كان ذلك عصر انتشار وتضخم الأرشفات والميكرو — أفلام ، والألبومات والفهارس . انطلقت البعثات الاستكشافية واحدة تلو أخرى ، وقد جهزت كافة البعثات بأحدث التقنيات من مسجلات آلية ومؤشرات ومسابر ، باختصار جهزت البعثات بكافة التجهيزات التي قدمتها تكنولوجيا الأرض . وقد اشترك أكثر من ألف شخص في بعثة واحدة . وفي الوقت الذي كان إيقاع جمع المعلومات في أشده بدت الفكرة التي غزت العلماء بالأمل ، بدت فكرة عديمة الجدوى . وبدأ العلم السولاريسي ينهار . (هذه مرحلة يصعب تحديدها زمنياً) .

إن تاريخ دراسة سولاريس يرتبط بأسماء رجال فريدين ومشهورين وعظماء ، من ذوي الشخصيات المتميزة أمثال غيزيه وشتروبل وسيفاد الذي كان آخر علماء السولاريسيين ولقد توفي في ظروف محيرة في منطقة القطب الجنوبي للكوكب . مات بشكل غيبي مثل مبتدئ .

لقد توجه بطائرته المحلقة فوق المحيط إلى عمق « المتسارع » .

جرت الحادثة أمام أعين مئات المراقبين — كانت واضحة تماماً — حاول المتسارع أن يخلي الطريق له . ثم تحدثوا عن ضعف أصابه بغتة ، أو عن غيبوبة أو خطأ في التوجه . والحقيقة ، برأيي ، هي أن موته يشكل أول عملية انتحار ، أول انفجار مباغت لليأس . الأول وليس الأخير .

تدريجياً غابت الوجوه العظيمة عن العلم السولاريسي . لا شك أن ولادة رجال عظماء ، من ذوي القدرات الكبيرة مستمر بهذا الشكل أو ذاك ، غير أن اختيارهم لمجال عملهم يختلف من إنسان لآخر . إن انشغالهم أو قتلهم في مجال معين من مجالات العلوم مرهون بتلك الآفاق التي يفتحها أمامهم هذا العلم . إن التقييم المختلف لأهمية كلاسيكي علم السولاريس لا ينفي موهبتهم ، بل يؤكد عبقريتهم .

لقد جذب هذا العملاق الصامت إليه خلال عشر سنوات ، أفضل علماء الرياضيات والفيزياء وأشهر اختصاصيي البيوفيزياء والكهرباء الفيزيولوجية. بعد ذلك بدأ هذا الجيش يفقد قاداته عاماً بعد آخر . لم يبق سوى مجموعة صغيرة لا اسم لها يجمعون الوقائع بصبر وعناد ، إضافة لبعض الذين أجروا كثيراً من التجارب البديعة . ولم تعد هناك رحلات استكشافية ضخمة تغطي الكوكب ، بل تلك المجموعة الصغيرة التي توحد وتجمع الوقائع والظواهر والفرضيات المختلفة . بدأ علم سولاريس ينهار ، ورافقه بشكل متواز ظهور نظريات متعددة تختلف عن بعضها بتفاصيل ثانوية تتحدث عن انقراض وتخثر وموت البحار السولاريسية . من وقت لآخر كانت تظهر أفكار مؤثرة وأخرى خسيصة . بشكل عام اعتبرت هذه الأفكار المحيط عبارة عن مادة نهائية التطور ، أي أن المحيط عاش أعلى مرحلة تنظيمية منذ ألف سنة ثم انهار فيزيولوجياً إلى أقسام عديدة محتضرة لا فائدة منها .

لقد اطلعت على العديد من الأعمال الرائعة لعلماء نفس أوروبيين درسوا ردود فعل الرأي العام خلال فترة زمنية طويلة . وقد سجلوا أقوالاً ساذجة مختلفة ، وآراء اللاإختصاصيين ، ثم أشاروا بدقة إلى الترابط القوي بين تبدلات الرأي العام والعمليات الجارية في نفس الوقت في مجال العلوم .

وهكذا امتدت التغيرات أيضاً إلى المجموعة الإحصائية التابعة لمعهد أبحاث الكوكب . حيث كانت تحدد فيه المساعدة المادية لهذا البحث أو ذاك. ونتج عن هذه التبدلات انخفاض تدريجي في موازنة قواعد ومعاهد سولاريس . كذلك خفضت المعونات المادية للرحلات الاستكشافية المتجهة إلى كوكب سولاريس .

وتلاقت أصوات المطالبين بتقليص الأبحاث مع أصوات المطالبين باستخدام الوسائل الأشد فعالية ، لكن أحداً لم يصل إلى ما توصل إليه المدير الإداري للمعهد العالي لأبحاث الفضاء ، الذي قال أن المحيط لا يتجاهل الناس ، بل ببساطة لا يلاحظهم، مثله مثل فيل ضخم تتنزه على ظهره غملة صغيرة ، ولكي نثير اهتمام المحيط ونلفت نظره إلينا لا بد من التأثير عليه بنبضات أشد ، أي باستخدام آليات ضخمة تغطي الكوكب بأكمله . وقد نشرت الصحف نكتة طريفة بخصوص هذا الحديث ، وهي أن من طالب برصد الأموال اللازمة لهذه البدايات الباهظة كان مدير أبحاث الفضاء وليس معهد أبحاث الكواكب الذي كان يمول أبحاث سولاريس . إنه كرم على حساب الآخرين .

وظهرت فرضيات جديدة ، وانتعشت آراء قديمة دون إجراء أية تغييرات جوهرية ... وفي النهاية بات العلم السولاريسي ضائعاً في متاهات مسدودة . وتكون في هذا الجو من اللامبالاة العامة والركود وإحباط العزائم محيط كبير من الأوراق العقيمة والعديمة الفائدة بحجم محيط سولاريس .

وفكرت « من الجائز أننا وصلنا إلى نقطة العودة » من الممكن أن يتم الرفض أو التراجع الآن أو في المستقبل القريب . ولم أعد أرى في مسألة الاستغناء عن المحطة مسألة مستحيلة أو لا يمكن حدوثها . لكنني لم أكن واثقاً أننا أنقذنا شيئاً بهذه الطريقة . إن مجرد وجود هذا العملاق المفكر لن يدع الناس على راحتهم . حتى لو استطعنا عبور المجرات وإقامة الصلات مع حضارات تعيش فيها كائنات تشبهنا سيبقى سولاريس نداءاً أبدياً موجهاً للإنسان .

أحلام

بعد ستة أيام اضطررنا لإعادة التجربة ، لأننا لم نلاحظ أي رد فعل من جانب المحيط ، مع ملاحظة هامة ، وهي أن المحطة التي بقيت طوال هذه المدة معلقة دون حراك على نقطة تقاطع خط الزوال السادس عشر مع الخط المتوازي الثالث والأربعين ، بدأت تندفع نحو الجنوب ، مع محافظتها على ارتفاع قدره اربعمائة متر عن سطح المحيط — إذ أشارت محطات الرادار وأجهزة التابع اللاسلكية إلى ازدياد نشاط البلازما بشكل ملحوظ في تلك المنطقة .

طوال يومين كاملين ظل النموذج الجديد للبرنامج الدماغي يصطدم عدة ساعات بواسطة أشعة رونتجن بسطح المحيط الذي بقي أملاًساً كلياً .

في نهاية اليوم الثاني اقتربنا من منطقة القطب . كان قرص الشمس الأزرق يغوص خلف الأفق ، وكان النسر الأرجواني في الجهة المقابلة له يعلو حول السحب مشيراً إلى إشراقة الشمس الحمراء .

حالما غربت الشمس الزرقاء في اتجاه الشمال الغربي ، ظهرت « متائلة » أشارت إليها أجهزة الإشارة على الفور . بدت كأنها مطلية بعتمة قرمزية ، وخلفها زهرة زجاجية هائلة تحيطها ومضات كأنها نتجت عن احتكاك البلازما بالسماء . لم تغير المحطة من اتجاهها . بعد ربع ساعة اختفت « المتائلة » العملاقة خلف الأفق بعدما كانت تشع بلون أحمر مرتعش مثل لمبة ياقوتية منطفئة .

مر يومان آخران وكررنا التجربة لآخر مرة ، وبهذا الشكل تكون الأبر الرونتجينية قد زرعت على مساحة كبيرة من سطح المحيط . وظهرت في الجنوب الأرنيديات . كانت واضحة بغض النظر عن المسافة التي تفصلنا عنها وهي ثلاثمائة كيلومتر . والأرنيديات عبارة عن قطعة أرض صغيرة صخرية يابسة ذات ست مرتفعات ، تبدو قممها كأنها مغطاة بالثلوج . والحقيقة هي أنها مغطاة بطبقة عضوية المنشأ تدل على أن هذا التشكيل كان قعر المحيط في غابر الزمن .

غيرنا اتجاهنا نحو الجنوب الشرقي ، سرنا بعض الوقت بمحاذاة سلسلة جبال مغطاة بسحب اعتيادية من سحب اليوم الأحمر . بعد ذلك اختفت الجبال . مضت عشرة أيام على إجراء التجربة الأولى .

لم يجري أي شيء خلال هذه الفترة على سطح المحطة . كانت الأجهزة تكرر بشكل آلي برنامج التجربة الذي رتبته سارتوريوس لمرة واحدة . ولا أعتقد أن أحداً كان يشرف على عمل هذه الأجهزة . في نفس الوقت جرت في المحطة أحداث أكثر مما كنت أتمناه . والحقيقة لا علاقة للناس بها . كنت أخاف من أن يستأنف سارتوريوس عمله في تجميع الحول . عدا ذلك كنت انتظر رد فعل سنوات عندما يعلم من سارتوريوس أنني خدعته ، وذلك بتضخيم الخطر الذي يمكن حدوثه من جراء تدمير المادة النيترونية .

لم يحدث أي شيء وظل الأمر لغزاً يحير في بداية الأمر . طبعاً ، حسب حساب أن يرتب لي مكيدة . ظننت أنهما ينشغلان ببعض التجهيزات . كنت في كل يوم أتفقد الحول المحفوظ في حجرة دون نوافذ تقع تحت المخبر الرئيسي . لم ألتق بأي منهما هناك خلال جولاتي التفقدية . وظل الغبار الذي تجمع خلال هذه الأسابيع فوق الجهاز يشهد أن أحداً لم يمسه .

غاب سنوات عن الأنظار طوال هذا الوقت ولم أعد أحس وجوده مثل

سارتوريوس ذلك الشخص الغامض ، حتى أنه لم يعد يجيب على التلغون المرنى وعلى أجهزة الإرسال . لا شك أن أحدهما كان يوجه حركة المحطة ، ولم أعرف من منهما ، ورغم غرابة الأمر لم أهتم بذلك . عدم استجابة المحيط جعلتني لا مبالياً لدرجة أنني أقلعت بعد يومين أو ثلاثة عن الخوف منهما ولم أعد أحسب لهما حساباً كما نسيت المحيط والتجربة كلياً . أمضيت هذه الأيام في الغرفة أو في المكتبة مع هاري التي تلاحقني كظلي . بدت لي الأمور في غاية السوء ، ورأيت في وضعنا وضع احتضار وعدم استقرار لا معنى له ، لا يمكنه أن يستمر دون أن يصل إلى النهاية . كان علي أن أغير من طبيعة علاقتنا ، أن أحطمها ، لكنني كنت أبعد عني كل أفكار التغيير ولم أكن قادراً على اتخاذ أي قرار محدد .

لا أستطيع وصف تلك الحالة . بلغة أدق ، تخيلت كل ما في المحطة — وخاصة علاقتي مع هاري — يقع في حالة عدم الاستقرار والتوازن . ويكفي أن تمخل بأبسط القواعد حتى ينهار كل شيء . لماذا ؟ لا أعرف . والأغرب أن هاري شعرت بنفس ذلك الشعور ، أي كان شعورها ضمن هذا النطاق . عندما أفكر الآن بذلك أتصور أن شعور عدم الثقة ، ولحظية ما كان يحدث وتلك الارتعاشات المتواصلة كونت واقعاً غمر المحطة بأكملها ، ولا يمكن بأي قوة أخرى إظهار ذلك الواقع من جديد . وهناك لغز آخر . الأحلام . قررت أن أدون محتواها لأنني لم أر مثلها من قبل . ولهذا أستطيع الآن أن أتحدث عنها بالقليل . هذه مجرد مشاهد من أحلام أزيلت عنها حالات الرعب المختلفة .

توغلت وتلويت في جوهر المادة في ظروف غامضة شبيهة بظروف الفضاء حيث لا أرض ولا سماء ، ولا جدران . كان شكلي الخارجي غريباً عني . كأنه نحول إلى قطعة صخرية قاسية ميتة لا شكل لها ، بالأحرى أصبحت القطعة نفسها . في البدء أحاطتني بقع زهرية — شاحبة معلقة في الفضاء ذات خواص

ليست بصرية وتختلف عن الهواء ، إذ كانت الأشياء لا تتوضح إلا عن مسافة قريبة جداً ، والغريب أنها تتوضح بشكل يفوق الحالة الاعتيادية . شكل المحيط الملموس والمادي انطباعاً حسيّاً يفوق انطباع اليقظة . وكنت عندما استيقظ أشعر بإحساس متناقض وهو اعتبار اليقظة ، أي اليقظة الحقيقية ، حلمًا وأنظر إلى ما أراه بعيني المفتوحتين كما أنظر إلى ظلال جافة .

هذه هي الصورة الأولى ، البداية التي ولد منها الحلم . لا أستطيع الحديث إلا عن أبسط الأحلام التي شاهدها . أما بقية الأحلام فليس لها نظير أبداً في الواقع .

رأيت أحلاماً تحولت فيها في العتمة الراكدة الميتة إلى مادة لإجراء البحوث العلمية الهادفة . ولم أشعر بالأدوات التي كانوا يستخدمونها في دراستي . كان تثقيباً وتهشيماً وتدميراً حتى للفراغ التام . الرعب فقط من كان يضع حداً لهذه التجارب المسبرية . إن مجرد تذكر ذلك يجعل نبضات قلبي تزداد خفقاناً لعدة أيام متتالية .

كانت الأيام شبيهة ببعضها ، كأنها مطبوعة ، ومليئة بالقرف المضجر نحو كل شيء ، كانت تزحف بفتور إلى اللامبالاة اللامحدودة .

كنت لا أخاف إلا في الليل ، إذ كنت لا أعرف كيف أنخلص من هذه الأحلام . كنت أسهر مع هاري التي لا تحتاج للنوم أبداً . كنت أقبلها أداعبها وأعرف أنني كنت لا مبالياً نحوها ونحوي . كان رعبي من الأحلام يدفعني لأفعل ما فعلته ، وأعتقد أنها خمنت ذلك على الرغم من أنني لم أتفوه لها بكلمة واحدة عن تلك الكوابيس المرعبة . شعرت في إذعانها إذلال مستمر ولم أستطع أن أفعل شيئاً .

قلت أنني لم ألتق طوال هذه المدة مع سارتوريوس أو سناوت . الحقيقة

أن سنوات كان يخبر عن نفسه برسالة مقتضبة . وعلى الأغلب باتصال هاتفي يجريه بين فترة وأخرى . كان يسألني إن كنت قد لاحظت ثمة ما يمكن أخذه بعين الاعتبار على التجربة التي كررناها كثيراً . كنت أجيبه بالنفي وأطرح عليه السؤال ذاته ويهز رأسه نافياً في عمق الشاشة .

بعد مرور خمسة عشر يوماً من إيقاف التجارب استيقظت منهكاً في وقت أبكر من المعتاد . أنهكتني الكوابيس . كان استيقاظي أشبه بعودة الوعي بعد غيبوبة دامت طويلاً بسبب تناول المخدرات . كانت الستائر مرفوعة عن النوافذ فشاهدت مع أولى خيوط الشمس الحمراء كيف بدأ السهل الميت يثور بشكل يصعب ملاحظته . أصبح لون المحيط الأسود الكثيف باهتاً ، كأنه غطي بغشاوة من الضباب ذي الصلابة المادية . تشكلت مراكز الإثارة في أماكن مختلفة ، وسيطرت تدريجياً حركة مبهمة على أرجاء الفراغ المرئي . اختفي اللون كلياً . حجبت طبقة زهرية — بيضاء من الأعلى ، لؤلؤية — داكنة من الأسفل . خططت الألوان سطح المحيط وقسمت غطاءه المذهل إلى صفوف من الأمواج الجامدة . بعد ذلك اختلطت الأشياء ببعضها ، وسادت سطح المحيط رغوة انبثقت منها فقائع تتطاير في مزق ضخمة إلى الأعلى مباشرة نحو المحطة وحولها . في نفس الوقت ارتفعت في كل الجهات إلى السماء الحمراء الفارغة كتل رغوة مجنحة ذات نموات من على الجوانب امتدت أفقياً . لم تكن تشبه الغيوم أبداً . كان لون الكتل التي حجبتها القرص في الأسفل أسود كالفحم مقارنة بقرص الشمس ، أما بقية الكتل القريبة من مركز الشمس فكانت تختلف ألوانها من واحدة لأخرى . وذلك حسب الزاوية التي تسقط عليها أشعة الشروق . فكانت تشقر وتلتهب بلون كرزي ، مخملي — أحمر . بدت هذه العملية وكأن طبقات دم المحيط تقشرت . تارة يكشف عن سطحه الأسود وأخرى يغطيه بطبقة جديدة من الرغوة . كانت بعض هذه الكتل تتطاير وترتفع حتى نوافذ المحطة

وعلى بعد أمتار قليلة عنها . ولامست واحدة منها زجاج النافذة .
كنت بصعوبة أرى تلك الكتل التي ارتفعت إلى السماء أولاً وابتعدت .
كانت مثل طيور تحلق في البعيد وطبقة شفافة تختفي في نفس الاتجاه .
توقفت المحطة عن الحركة . وبقيت معلقة مدة ثلاث ساعات . لم يتغير
أي شيء . غابت الشمس خلف الأفق . أحاطت العتمة بالمحيط . ارتفع سرب
الأشباح الزهرية الدقيقة عالياً عالياً ، كأنها أوتار غير منظورة وجامدة وعديمة
الوزن . ظل الارتفاع يتعاضم حتى أطبق الظلام كلياً .

ذهلت هاري من حجم هذه الظاهرة الفريدة والفذة . وبدأت لي
كسولاريسي ظاهرة جديدة وغامضة كما كانت بالنسبة لهاري . لم أعلق عليها
أبداً ، مع أخذ العلم أن كل مراقب يستطيع أن يسجل خلال عام واحد ظاهرتين
أو ثلاث ظواهر جديدة تحدث على سطح سولاريس لم تسجلها بعد أية
مصورات أو أطالس . وإن كنت محظوظاً فيمكنك رصد ظواهر أكثر .

كنا شاهدين لظاهرة أخرى في الليلة الثانية وقبل ساعة من بزوغ الشمس
الزرقاء . كان المحيط يلمع مثل الفوسفور . لقد وصفت هذه الظاهرة من قبل .
كان يمكن رصدها عادة قبل ظهور اللامتاثلات ، وبشكل عام يمكن اعتبارها
بمثابة إشارة إقليمية لبدء نشاط البلازما الفعال . ولم يحدث أي شيء حول المحطة
خلال الأسبوعين التاليين .

فقط مرة واحدة ، سمعت في عمق الليل صرخاً حاداً طويلاً وعال بشكل
غريب ، آت من بعيد ، كان بكاءً شديداً لا إنسانياً . عندما استيقظت من
الكابوس لم أكن مقتنعاً من أن ما سمعته كان حلاًفاً فاستلقيت مصغياً فترة طويلة ،
بعد ذلك سمعت أصواتاً مكتومة من الخبير الذي يقع جزء منه فوق حجرتي .
كان الصوت أشبه بحركة من يتدحرج هناك . تراءى لي أن الصراخ يتناهى لي

أيضاً من الأعلى بشكل غامض لأن كلا الطرفين مصفحين بعوازل كثمة للصوت . بقي الصوت المحتضر مسموعاً مدة نصف ساعة . ابتلت من العرق وكدت أفقد عقلي . أردت أن أهرع إلى الطابق العلوي ، فقد مزق الصراخ أعصابي ، هدا الصوت تدريجياً ، ومن جديد لم أعد أسمع سوى صوت ذلك الثقل المتدحرج .

بعد يومين ، دخل سنوات علينا بغتة في المساء . كنا جالسين في غرفة المطبخ الصغيرة . كان سنوات يرتدي بذة أرضية حقيقية بدلت شكله كلياً . بدا أطول من المعتاد . بدا إنساناً جميلاً . اقترب من الطاولة دون أن يلقي علينا نظرة واحدة . انحنى فوق الطاولة وراح يأكل لحماً بارداً من المعلبات مع الخبز دون أن يجلس . انغمست أكمام بذته عدة مرات في العلبة وتلوثت بالدهن . قلت له :
— إنك تلوث ثوبك !

— آه ... م . — تتم بفمه الممتلئ
أكل بنهم شديد ، وكأنه لم يذق الطعام منذ عدة أيام ، ثم صب لنفسه نصف كأس من الخمر شربه دفعة واحدة ومسح شفثيه وأخذ نفساً عميقاً ثم نظر إلينا بعينيه الداميتين ، وقال :

— هل أطلقت سراح لحيتك ؟ آ ...
رمت هاري صحنها في المغسلة وأحدثت ضجة كبيرة . خطا سنوات بخفة على كعبيه . تجهم وجهه وعلته تصعيرة . تخيلت أنه يفعل ذلك متعمداً . نظر إليّ وسألني بتطفل !
— ألا تريد أن تحلق ؟

لم أجب على سؤاله .
— انظر ! لا أنصحك . هو أيضاً بدأ بذلك . توقف عن الحلاقة .
دمدمت قائلاً :

— إذهب ونم .

— ما بك ؟ لسنا مجانين ، فلماذا لا نتحدث مع بعضنا ؟ اسمع يا كيلفن أليس
ممكناً أن ما يتمناه هو الخير لنا جميعاً ؟ ربما يريد أن يسعدنا لكنه لا يعرف السبيل
إلى ذلك ! يقرأ أمنياتنا في أدمغتنا ، لكنك تعرف أن اثنين بالهمة من العمليات
العصبية تقع تحت إشراف وعينا . وبالتالي فهو يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا .
إذن علينا أن نصغي له ، أن نتفق معه ، هل تسمع ؟ ألا تريد و لماذا — ارتعش
صوته — لماذا لا تخلق لحيتك ؟

صرخت به :

— كف عن هذا . أنت سكران .

— ماذا ؟ سكران ؟ أنا ؟ وما الغرابة ؟ هل يمكن لإنسان يجر جر قذارته من طرف
الحجرة لطرفها الآخر ليعرف قيمة ذاته وتريد منه أن يكون صاحباً ؟ لماذا ؟ هل
تثق بالمهمة ؟ آ ، قل لي يا كيلفن . كان غياريان يحدثني عنك طوال الوقت
ولغاية تلك اللحظة التي أطلق فيها سراح لحيته ... أنت فعلاً كما وصفك
غياريان ... لا تذهب إلى المخبر أبداً . ستفقد إن ذهبت شيئاً من خيالك ...
هناك يعمل سارتوريوس على عكس (Au rebours) * فاوست ، إنه يبحث عن
وسيلة ضد الخلود . إنه آخر فرسان الاتصال المقدس ... لم تكن فكرته السابقة
سيئة أبداً — إطالة سكرة الموت ليست سيئة . آ ؟ أليس كذلك agonia
Peypetua ... قش ... قبعات قش ... كيف تستطيع أن لا تشرب يا كيلفن ؟

وتوقفت عيناه الصغيرتان مع حاجبيه المنتفختين على هاري الواقفة قرب
الجدار دون حركة . ثم راح ينشد :

— آه يا أفروديت البيضاء ، يا من ولدت من المحيط . — وغرق في

* على العكس

الضحك . — لقد أصبت الهدف تقريباً .. آ . أليس كذلك يا كيلفن ؟
وتحشرج صوته وسعل .

بدأ هدوئي الذي حافظت عليه طوال هذا الوقت يتحول إلى غيظ بارد .
— كف عن ذلك — همست . — كف عن ذلك واذهب .

— تطردني ؟ أنت أيضاً ؟ ترخي لحيتك وتطردني ؟ لم تعد راغباً بالسماع
لنصائحي . لا ترغب في أن أقدم لك النصيحة كما يفعل رفاق النجوم ؟ هيا
بنا يا كيلفن لنفتح كوى القعر في المحطة ولنصرخ إلى الأسفل . أليس ممكناً أن
يسمعنا ؟ لكن ، كيف نناديه وبماذا ندعوه ؟ فكر . لقد سمينا كافة النجوم
والكواكب . وربما كانت لديهم أسماءهم . ما هذا الاعتصاب ؟ اسمع ، لنذهب
ونصرخ ... سنروي له ما فعله بنا حتى يرتعب بنفسه ... سييني لنا مئاثلات
فضية . وسيصلي لنا برياضياته ويحيطنا بملائكته المدماة وسيصبح عذابنا عذابه
ورعبنا رعبه . وأخيراً سيطلب منا النهاية . لماذا لا تضحك ؟ أنا أفرح ولا غير .
لو كان إحساسنا بالنكته متطوراً في أصلنا ، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه . هل
تعرف ما يريد فعله ؟ يريد إخضاعه ، يريد إخضاع هذا المحيط ، يريد محاصرته
حتى يصرخ بكل جباله فوراً ... أعتقد أن الشجاعة لا تكفيه لمتابعة خطته
ليثبت تلك السلطة المتصلبة التي أرسلتنا إلى هذا الكوكب لنكفر عن ذنوب
غيرنا ! أنت محق ، تخاف ... على ... قبعتك . لن يعرض قبعتك للغير . إن
فاوستنا ليس جريماً لهذه الدرجة ...

صمت . بدأ سنوات يترنح أكثر وأكثر . انهمرت الدموع من عينيه . سألت
على خديهِ وسقطت على بذته .

— من فعل ذلك ؟! من فعل ذلك بنا ؟! غياريان ؟ غيزيه . إنشتاين ؟ بلاتون ؟
أتعرف أنهم قتلة . فكر معي . يمكن للإنسان أن ينفجر داخل الصاروخ مثل

فقاعة ، أو أن يجمد ، أو أن يحترق ، أو أن ينزف دمه بسرعة لا يستطيع خلالها أن يصرخ . وستبقى عظامه فقط تصطدم بالمعدن ، دائرة في مدار نيوتن مع تصليحات أينشتاين . هذه كهوف تقدمنا ! ونحن نعمل لأن هذا درب رائع ... وصلنا ... في هذه الأقفاس . فوق هذه الصحون ووسط الغسالات الأبدية مع أطراف الخزائن الموثقة . نفذنا ... انظر يا كيلفن . لن أثرثر بهذا الشكل إن لم أكن مخموراً . سيقول ذلك أحد ما في نهاية المطاف . من المذنب في هذا كله ؟ أنت جالس هنا كمن يجلس في المسلخ ، وشعرك ينمو ... لأي ذنب ؟ أرجو أن تجيب على نفسك .

استدار وخرج . عند العتبة تمسك بالعضادة كي لا يقع ، وبقي صدى وقع أقدامه مسموعاً فترة طويلة آتياً من الدهليز .

تحاشيت النظر إلى هاري . لكن ، فجأة التقت نظراتنا . أردت أن أقرب منها وأحضنها وأداعب شعرها . لم أستطع فعل ذلك . لم أستطع .

النجاح

مضت أيام الأسابيع الثلاثة التالية شبيهة ببعضها . اليوم يكرر الأمر بدقة . ستائر النوافذ تفتح تارة وتغلق أخرى . في الليل أنقذ من كابوس لآخر وأستيقظ في الصباح لتبدأ اللعبة . أظاهر بالهدوء مثل هاري . كان ملاذنا الأخير في اتفاقنا الصامت ، في كذبتنا المتبادل . تحدثنا مطولاً عن حياتنا المستقبلية على الأرض . تحدثنا كيف سنعيش في مكان قريب من مدينة كبيرة لا نغادر بعدها السماء الزرقاء والأشجار الخضراء . فكرنا سوياً بترتيب منزلنا المستقبلي . رسمنا الحديقة وتجادلنا حول أشياء ثانوية ... مثل السياج ... والمقاعد ... ترى هل كنت أؤمن بذلك ولو لثانية واحدة ؟ لا . عرفت أن ذلك مستحيل . حتى لو استطاعت مغادرة المحطة حية ، فعلى الأرض لا يهبط إلا الإنسان ، والإنسان يعني هويته ، وأوراقه الثبوتية . ستنهي رحلتنا عند أول نقطة تفتيش . سيدؤون الكشف عن شخصيتها . وستعرف على بعضنا . المحطة هي المكان الوحيد الذي نستطيع فيه البقاء مع بعضنا . ترى هل كانت تعلم ذلك ؟ أعتقد أنها كانت تعلم وخاصة بعد الذي حصل .

ذات ليلة شعرت بحركة هاري وأنا نائم . أردت أن أضمها إلى صدري بصمت كعادتي الجديدة ، لأننا لم نعد نشعر بأنفسنا أحراراً إلا والظلام يحيط بنا ، عندها ننسى هذا العالم الذي يحيط بنا دون أن نجد مخرجاً منه . هذا ما كان يؤجل الألم لفترة قصيرة . لم تلاحظ هاري أنني استيقظت . انزلت عن السرير قبل أن أمد يدي . كنت شبه نائم عندما سمعت حفيف أقدامها العارية . شعرت برعب غامض . وهمست :

— هاري . أردت الصراخ ولم أتجرأ . جلست على السرير . كان الباب مفتوحاً وحزمة ضوء آتية من الدهليز تخرق عتمة الغرفة . تخيلت أنني سمعت أصواتاً مكتومة . أكانت تتحدث مع أحداً ما ؟ مع من ؟ . قفزت من السرير والرعب يأكلني . ولم تدعن ساقِي لإرادتي . وقفت لحظة أسترق السمع — كان الهدوء خيماً — عدت بهدوء إلى السرير . فشعرت بالدم يغلي في رأسي . بدأت العد . وعند الرقم ألف انفتح الباب بهدوء . انزلت هاري تحت الغطاء وجمدت كأنها تستمع إلى أنفاسي . حاولت التنفس برتابة .

— كريس ؟ ... همست هاري بهدوء . لم أرد عليها ، فاخفتت بسرعة داخل الفراش . شعرت بها كيف تسمرت مستوية . كنت متمدداً قربها دون حراك . حاولت أن أجد شيئاً أسأله عنها ، لكنني فهمت بعد مضي بعض الوقت أنني لن أكون البادئ . وبانقضاء وقت آخر ، ربما بعد ساعة ، نمت .

كان الصباح طبيعياً . بدأت أراقبها في تلك اللحظات التي لا يمكنها أن تلاحظ ذلك . بعد الغداء ، جلسنا خلف النوافذ المقعرة . كانت السحب القرمزية تلتهب خلفها والمحطة تعوم في وسطها مثل سفينة . كانت هاري تقرأ في كتاب ، أما أنا فكنت في حالة تأمل أشعر فيها ولغاية هذا الوقت بالراحة . لاحظت أنني إذا استدردت قليلاً أستطيع رؤية خيالنا منعكساً في الزجاج بشكل واضح وشفاف . غيرت من وقفتي وسحبت يدي من تحت مرفق اليد الأخرى . لاحظت كيف رمقتني هاري بنظرة سريعة لتتأكد من أنني أراقب المحيط . انحنت فوق ذراع الأريكة ولا مست بشفتيها ذلك المكان الذي لامسته منذ قليل . تابعت جلستي بهدوء غير طبيعي ، أما هاري فنكست رأسها فوق الكتاب .
نحاطبتها بهدوء :

— هاري إلى أين خرجت ليلة البارحة ؟

- في الليل ؟
- نعم .
- لعلك حلمت بذلك ... هذا حلم ولا بد . لم أخرج لأي مكان .
- ربما ، ربما كان حلماً ...
- عند المساء حدثها من جديد عن رحلتنا إلى الأرض . قاطعتني قائلة :
- لا أريد سماع ذلك . لا داع لذلك يا كريس . أنت تعلم ...
- ماذا ؟
- لا ، لا شيء .
- وعندما تمددنا للنوم قالت :
- هناك كأس من العصير على الطاولة ، أعطني الكأس من فضلك .
- شربت هاري نصف الكأس وقدمته لي . لم أرغب بشرب العصير فقالت :
- اشرب نخب صحتي . وضحكت .
- شربت العصير . كان مالحاً قليلاً . لم أعر ذلك انتباهاً كبيراً . سألتها بعدما أطفأت النور .
- عن أي شيء تريد أن نتحدث إن لم نتحدث عن الأرض ؟
- هل ستتزوج إن لم أكن موجودة ؟
- لا .
- أبدأ ؟
- أبدأ .
- لماذا ؟
- لا أعرف . عشت وحيداً مدة عشر سنوات ولم أتزوج . لا أريد الحديث عن ذلك يا عزيزتي ...
- شعرت بدوار في رأسي وكأنني شربت زجاجة خمر على أقل تقدير .

— لا ، ستحدث ، من الضروري أن نتحدث . قل لي هل تتزوج إن طلبت منك أن تفعل ذلك ؟

— أتزوج ؟ ما هذا الهراء يا هاري ، لست بحاجة لإنسان آخر سواك . انحنيت فوق صدري . أحسست بأنفاسها الخارجة من بين شفتيها ، ثم شدتني بقوة إلى صدرها وفارقني النعاس خلال لحظة .

— قل ذلك بصيغة أخرى .

— أحبك .

ألقت برأسها على صدري . شعرت أنها تبكي .

— ما بك يا هاري ؟

— لا شيء ، لا شيء ، لا شيء . رددت كلماتها بصوت اضمحل تدريجياً . حاولت أن أفتح عيني فلم أستطع . لا أذكر كيف جاءني النوم .

أيقظني الضوء الأحمر . كان رأسي ثقيلاً مثل الرصاص وعنقي يابسة كأن فقرائي قد تحطمت . لم أستطع تحريك لساني الخشن الشنيع . « ربما تسمت » فكرت بذلك ورفعت رأسي بصعوبة شديدة . مددت يدي إلى هاري ولا مست فراشها البارد . قفزت من مكاني .

السريـر فارغ . لم تكن في الغرفة . انعكس قرص الشمس متكرراً في النوافذ . قفزت من مكاني . كنت أشبه بمهرج ، وترنحت مثل سكران . وصلت إلى الخزانة مستنداً على قطع الأثاث . لم أجدها في الحمام . كذلك كان الدهليز والخبر فارغين .

— هاري !! صرخت وأنا أقف وسط الدهليز ألوح بيديّ التعبتين .

هاري ... تلعثت منادياً مرة أخرى وأدركت ما حصل .

لا أذكر بدقة ما جرى بعد ذلك . ربما ركضت نصف عارٍ أبحث عنها في أرجاء المحطة ، حتى أنني بحثت عنها في البراد ، وقرعت بيدي الباب المغلق لآخر

مستودع . ربما ذهبت إلى المستودع أكثر من مره . كانت السلام تفرقع تحت أقدامي . وسقطت ، ونهضت ، ومن جديد هرعت إلى مكان غير معلوم ، حتى وجدت نفسي أمام الترس الشفاف حيث يقع المخرج إلى الفضاء ، خلفه : كان الباب مصفحاً على طيقتين . قرعته بكل قواي . صرخت وتمنيت أن يكون ذلك حلاً . وقف شخص قربي بعض الوقت پسندني ، ثم جرتي بنفسه . وجدت نفسي داخل الخبز الصغير في قميص مبتل بالماء المثلجة وشعري ملتصق على جلد رأسي ولساني وأنفي محروقين من الكحول . كدت أختنق وأنا أتمدد على صفيح بارد . شاهدت سنوات في سرواله المبقع يبحث عن شيء لا أعرفه في خزانة الأدوية ، أخرج شيئاً منها . أشياء معينة ، معدات وزجاجات تفرقع بصوت مربع .

فجأة شاهدته أمامي . كان ينظر إلي بانتباه وقد احدودب ظهره .

— أين هي ؟

— لا وجود لها .

— أقصد هاري

— لم يعد وجود هاري . قال سنوات بصوت بطيء معبر بعدما اقترب مني بوجهه . بدا كأنه ضربني ويريد دراسة نتيجة فعله .

— ستعود ... همست وأنا أغمض عيني . لم أشعر بالخوف . لم أرتعد من عودتها الشفافة . لم أفهم كيف يمكنني أن أخاف من ظهورها في أي وقت كان .

— اشرب هذا .

قدم لي كأساً مليئاً بسائل حار . نظرت إلى الكأس . فجأة رشقت السائل في وجه سنوات . تراجع ومسح عيني . عندما فتح عينيه وجدني منتصباً أمامه . بدا صغيراً بحيث لو ...

— إذن أنت ؟

— عن تتحدث ؟

— لا تكذب . تعرف جيداً عن أي شيء أتحدث . أنت من حدثها في تلك الليلة . أمرتها أن تسقني مخدراً ... ماذا فعلت بها ؟ تكلم !!!

بحث عن شيء في صدره . أخرج ظرفاً مطوياً . أخذته منه . كان مغلقاً . لم تكن عليه أية كتابة . مزقته بسرعة . سقطت منه ورقة مطوية أربعة طيات . كانت الكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة شبيهة بكتابة الأطفال . لم تكن الخطوط مستقيمة . عرفت كاتبة هذه الكلمات :

« حبيبي . طلبت منه بنفسه أن يفعل ذلك . إنه طيب . آسفة لأنني خدعتك . لم تكن هناك وسيلة أخرى . استمع إليه . لاتفعل شيئاً سيئاً إليك — من أجلي . كنت طيباً جداً » .

في أسفل الورقة استطعت قراءة كلمة مشطوبة « هاري » . كتبت الكلمة ثم شطبها . هناك حرف آخر لم أستطع تمييزه جيداً أهو H أم K شطبته أيضاً . شعرت بالهدوء . غادرتني الهيستيريا . بيد أنني لم استطع الكلام أو النحيب . همست :

— كيف ؟ كيف ؟

— اهدأ يا كيلفن . فيما بعد .

— أنا هادىء تماماً . تكلم . كيف ؟

— تحويل .

— كيف تم ذلك فالجهاز ؟ ! وأحسست بشيء يقذفني .

— لم ينفعنا جهاز روشيه . قام سارتوريوس بتصميم جهاز آخر . جهاز خاص بعدم الاستقرار . جهاز صغير لا تتجاوز فعاليته دائرة نصف قطرها عدة أمتار . — ما الذي حل بها ؟ ..

- اختفت . ومضة ونسمة هواء . نسمة ضعيفة . لا شيء آخر .
- أتقول أن فعاليته لا تتجاوز الأمتار ؟
- نعم . لم تكن لديه مواد كافية لصنع جهاز أكبر .
- شعرت كأن الجدران تنهار فوقي . أغمضت عيني .
- يا إلهي ، ستعود ، ستعود ...
- لا .
- وكيف لن تعود ؟!
- كلا يا كيلفن . ألا تذكر تلك الرغبة التي كانت تصعد إلى الأعلى ؟ لن تعود وتصعد بدءاً من هذه اللحظة .
- لن تعود أبداً ؟
- أبداً
- أفتلتها ؟
- نعم . وأنت ، ألن تفعل ذلك لو كنت في مكاني ؟ أجب !
- قفزت من مكاني ورحت أسير جيئةً وذهاباً . من الجدار إلى الزاوية . تسع خطوات وأعود . تسع خطوات ذهاباً وتسع إياباً . ثم توقفت أمامه :
- اسمع ، علينا أن نقدم تقريراً . سنطلب الاتصال مع المجلس مباشرة . هذا ما يمكننا أن نفعله . سيوافقون على ذلك . عليهم أن يوافقوا .
- سنستثني هذا الكوكب من معاهدة الأربعة . سيسمحون لنا باستخدام كافة الوسائل . سنحصل على مولدي المادة المضادة . هل تعتقد بوجود شيء يصمد أمام المادة المضادة ؟ لا شيء لا شيء أبداً ، على الإطلاق لا شيء ! كنت أصرخ بانتصار وقد أعمتني الدموع .
- أتريد تدميره ؟ ولماذا ؟
- اتركني وشأني .

- لن أدعك .
- سناوت .
- نظرت في عينيه فأجابني بحركة من رأسه « لا »
- ماذا تريد مني ؟ ماذا تريد ؟
- اقترب من الطاولة .
- حسناً سنكتب تقريراً .
- التفت وبدأت أخطو من جديد .
- اجلس .
- دعني وشأني .
- للمسألة وجهان . الوجه الأول — الوقائع ، الثاني — مطالبنا .
- أمن الضرورة أن نتحدث عن ذلك الآن ؟
- نعم الآن .
- لا أريد . أتفهم ؟ هذا أمر لا يخصني .
- آخر خبر أرسلناه كان قبل وفاة غياريان : يعني قبل شهرين . وعلينا أن نوضح طريقة ظهور ...
- ألن تكف عن الحديث ؟ وأمسكته من صدره .
- تستطيع ضربني ومع ذلك سأتكلم .
- تركته .
- افعل ما تشاء .
- تنحصر القضية أن سارتوريوس سيحاول إخفاء بعض الوقائع . أنا شبه متأكد من ذلك .
- ألسنت متيقناً ؟
- لا لم أعد متيقناً الآن . الأمر لا يتعلق بنا وحدنا . وحول هذه النقطة يدور

الحديث . تبين أن المحيط قادر على القيام بالنشاط العقلاني . وهو يعرف البناء الدقيق لميتابوليزم أجسادنا ...

— ممتاز لماذا توقفت ؟ أجرى سلسلة تجارب علينا . أجرى عملية تشريح نفسية حية معتمداً على معرفتنا التي سرقها من أدمغتنا دون أن يلتفت إلى ما نسعى إليه .
— ليست هذه بوقائع ، ولا يمكن اعتبارها نتيجة يا كيلفن . هذه فرضيات فهو بهذا الشكل أو ذاك التفت إلى هدفه ، إلى ذاك الجزء الخفي والمغلق من وعينا .
يمكن اعتبار ذلك هبة ...

— هبة ! يا إلهي ! وضحكك .

— كف عن الضحك ! صرخ سنوات وأمسكني من يدي .
قبضت على أصابعه وعصرتها حتى قرقت عظامها . جحظت عيناه .
تركته وابتعدت إلى الزاوية وخاطبته ووجهي نحو الجدار :

— سأحاول السيطرة على أعصابي .

— هذا ليس مهماً . ما الذي سنقترحه ؟

— قل أنت . أنا لا أستطيع الآن . هل قالت شيئاً قبل أن ؟..

— كلا لا شيء . أعتقد أن لدينا فرصة الآن .

— فرصة ؟ أية فرصة ؟ لأي شيء ؟ — والتفت إليه وفهمت فجأة ما يقصده .
إنها مسألة الاتصال من جديد ؟ أيعد ما شاهدناه قليلاً ؟ وأنت أيضاً ،
أنت بنفسك ، وكل هذا المنزل المجنون ... الاتصال ؟ لا ، لا ، لا ، افعلوا ذلك
دوني .

— لماذا ؟ سألني بهدوء تام — كنت تنظر إليه كإنسان وبشكل غريزي ، والآن
تكرهه أكثر من أي وقت مضى . تكرهه .

— وأنت ألا تكرهه ؟

— لا . فهو أعمى البصيرة كما تعلم ...

- أعمى ؟ هل هذا ما قلته ؟
- طبعاً . نحن لسنا موجودين بالنسبة له كند لند . إن ما نراه من أجسام ووجوه تعرفنا على أفراد وشخصيات متفرقة . وهذا بالنسبة له مجرد زجاج شفاف . لقد دخل إلى أعماق أدمغتنا .
- حسن ما الذي سينتج عن ذلك ؟ ماذا تريد أن تبرهن ؟ هل تريد أن تبرهن إن كان قادراً على إحياء وخلق إنسان لا يتواجد إلا في ذاكرتي . لقد صنعها شبيهة بها من كل النواحي ، عيناها ، حركتها ، صوتها ... صوتها ...
- تكلم ، تابع كلامك . هل تسمع !؟
- سأحدث ، سأقول ... نعم ، الصوت ... إنه البرهان على مقدرته أن يقرأ فينا كما يقرأ في كتاب . أتفهم ما أريد قوله ؟
- نعم ، إن أراد فسيستطيع أن يفهمنا ، طالما أنه يقرأ أدمغتنا .
- طبعاً ، أليس هذا أمر متوقع ؟
- كلا . أبداً . لقد استطاع أن يأخذ وصفة الانتاج ولا غير ، تلك الوصفة التي لا تتألف من كلمات . إنها تسجيل تحتفظ به الذاكرة ، أي البناء الزلالي الشبيه برأس الحيوان المنوي ، أو البيضة . لا يحوي المخ على أية مشاعر أو كلمات . أما ذاكرة الإنسان فما هي إلا شكل مسجل بلغة الأحماض النيكلونية على بلورات عدد كبير من الجزيئات اللامتزامة . لقد أخذ أكثر الأشياء المنقوشة ، والأشد انغلاقاً والأكثر منطقية بشكل كامل ، هل تفهم ؟ لكن ، ليس ضرورياً أن يفهم ، ما أهمية ذلك لنا وما يعنيه . الأمر شبيه كما لو أننا صنعنا متماثلة ورميناها في المحيط بعد أن عرفنا تصميمها وتقنياتها والمواد الداخلة في تركيبها ، لكننا لا نفهم الهدف منها ، ودون أن نعرف ما تشكله بالنسبة للمحيط ...
- هل هذا ممكن ؟ — تساءلت — نعم . إنه أمر جائز . هذا يعني أنه

- لا يستطيع ولا يرغب في الدوس علينا أو في اجتياحنا . — ربما . عن طريق .
الصدفة ولا غير ... ارتعشت شفتاي .
— كيلفن .
— نعم ، نعم . حسن . كل شيء على ما يرام . أنت طيب . وهو كذلك .
كلكم طيبون . لكن لماذا ؟ فسر لي . لماذا ؟ لماذا فعلت ذلك ؟ ما الذي قلته لها .
— الحقيقة .
— الحقيقة ، الحقيقة ؟ أية حقيقة ؟
— إنك تعرفها . لنذهب إلى حجرتي . سنعد تقريراً . هيا بنا .
— انتظر . ألا تقول لي ما تريد فعله ؟ لا أظنك باق طوال العمر في المحطة .
— نعم . أريد البقاء . أريده .

العجوز المقلد

. جلست قرب النافذة أنظر إلى المحيط . لم يكن لدي ما أفعله .
لقد تحول التقرير الذي أعدناه إلى حزمة من الأمواج المتسارعة عبر الفراغ في مكان ما وراء برج أريون . عند وصول هذه الحزمة إلى الضباب المغبر العاتم الذي يشغل حجماً قدره ثمانية تريلون كيلومتر مكعب ، هذا الضباب الكاتم للأشعة الضوئية ولكافة أنواع الإشارات ستصطدم الحزمة بمحطة التقوية الأولى من سلسلة المحطات المنتشرة بكثرة والتي تشكل طوقاً كبيراً . سنتنقل من محطة لأخرى بقفزات تقدر بمليارات الكيلومترات ، ستمر عبر قوس كبير ريثما تصل المحطة الأخيرة ، وهي عبارة عن كتلة معدنية ضخمة مليئة بالأجهزة الدقيقة المغلفة والمجهزة بهوائي موجه ضخم . تقوم هذه المحطة بإعادة تركيز الحزمة لآخر مرة وتطلقها نحو الأرض . بعد شهور سترسل الأرض بحزمة طاقة شبيهة بهذه الحزمة تماماً ، يمتد خلفها ثلث التشويه الضارب لحقل جاذبية المجرة ، تستصل هذه الحزمة إلى نهاية السحابة الفضائية وستنزل على طوق المحطات المنسقة لتتغذى منها ومن ثم لتندفع إلى شمسي سولاريس دون أن تخفف من سرعتها .

بدا المحيط تحت قرص الشمس الحمراء مظلماً أكثر من العادة ، وكانت عتمة حمراء تمزجه مع السماء . كان النهار خائفاً بشكل مذهل ، ينذر بحدوث عواصف شديدة هائجة لا يمكن وصفها ، أي من تلك العواصف النادرة التي يشهدها المحيط مرات معدودة خلال عام كامل . ويتشكل لدى المراقب انطباع

أن القاطن الوحيد لهذا الكوكب يشرف على الطقس ويتحكم بإرسال هذه العواصف .

بقي لي شهور قلائل أقضيها وراء هذه النوافذ أراقب من علو إشراقة الذهب الأبيض والقرمزي الممل اللذين ينعكسان في شكل من أشكال النفثات السائلة ، في الفقاعة الفضية للمتماثلة ، وأراقب حركة المتسارعات المشوقة المخنية من عصف الرياح . وألتقي بالمقلدين المضمحلين المغمورين . وفي يوم من الأيام الرائعة سيغمر الضوء شاشات الفيديو ، وسينتعش نظام الإشارة الإلكتروني الميت . سيمتلىء بالنبضات المرسله من على بعد مئات آلاف الكيلومترات مخبراً عن اقتراب عملاق معدني سيهبط فوق المحيط بجلجلة الجواذب الطويلة . سيكون مركبة « ويلس » أو « بروميشوس » ، أو أي طوافة أخرى من طوافات العوم للمسافات البعيدة . سيشاهد الناس الذين سينزلون على السلام من سطح المحطة صفوفاً من الناس الآلئين الضخام والمدرعين الذين لا يشاركون الإنسان خطيئته الأولى ، وهم بريئون لدرجة أنهم ينفذون أية أوامر تصدر لهم — تدمير أنفسهم وتدمير أي عائق يمكن له أن يقف في وجوههم . هذا ما سيحدث إن كانت ذاكرتهم البلورية مبرمجة بهذا الشكل . بعد ذلك سيرتفع عابر النجوم بأسرع من الصوت . سيصحو الناس من فكرة أنهم عائدون إلى البيت عندما يصل مخروط الجلجلة المتقطعة إلى ثمانية مقاطع صوتية ، إلى المحيط . لكن المسألة ، ليست مسألة بيت واحد . بل أرض بأكملها . وأنا أفكر بمدنها الكبيرة المكتظة والمليئة بالضجيج ، بتلك المدن التي أضيع فيها ، أختفي كما لو أنني فعلت ما أردت فعله في الليلة الثانية أو الثالثة من وصولي ، وهو أن أرمي نفسي في المحيط المتقلب بشدة في الأسفل . إني أغرق في الناس . سأكون صموتاً ومتنبهاً، سيمنني الرفاق لهذا السبب . سيكون لي كثير من المعارف والزلاء والنساء ، وربما امرأة واحدة . علي أن أبذل قصارى جهدي في المرحلة الأولى لأرسم ابتسامة على

شفتي وسأخني بتواضع ثم أقف منتصباً ، على مراعاة آلاف الدقائق والتفاصيل التي تتألف منها الحياة على الأرض . ثم يصبح الأمر عادياً . ستظهر اهتمامات أخرى ، أشغال أخرى ، لكنها لن تجذبني أبداً . لن يشدني أحد أو شيء بعد الآن . ربما سأنظر في الليل إلى السماء . إلى هناك إلى عتمة السحابة المغيرة الشبيهة بستارة سوداء تخفي خلفها بريق الشمس . سأتذكر كل شيء ، حتى ما أفكر به الآن . سأتذكر جنوبي وآمالي أيضا بابتسامة متسامحة فيها شيء من الأسف والكبرياء في نفس الوقت . لا أحسب نفسي أسوأ من كيلفن * ، ذاك الذي كان مستعداً لفعل أي شيء من أجل القضية المسماة بالاتصال . لن يستطيع أحد أن يؤنبني .

دخل سنوات إلى الحجرة ، تجول بعيني ورمقني بنظرة خاطفة . نهضت واقتربت من الطاولة . سأله :
 — أحتاج شيئاً ؟ .. أجاب غامراً بعينه :
 — أعتقد أنك تنوء من العطالة ... أستطيع إعطاءك بعض الحسابات ، والحقيقة أنها ليست مستعجلة ...
 ضحكت .
 — شكراً . لا داع لذلك .

نظر سنوات إلى النافذة وسألني :

— أوافق أنت ؟

— نعم . لقد فكرت في أشياء كثيرة و ...

قاطعتني سنوات بصوت خافت لا يشبه صوته :

— من الأفضل أن لا تفكر أيها المقلد .

* كيلفن يتحدث هنا عن نفسه كشخص آخر غير كيلفن .

ماذا ؟ آ . نعم . لقد شاهدته . إنه مقلد عجوز .

نظرنا إلى البعد المختلج بالعتمة الحمراء .
قلت فجأة :

— سأطير . خاصة أنني لم أخرج من قبل إلى الفضاء . وهذا باعث حقيقي .
سأعود بعد نصف ساعة .

أصبحت عينا سنات مستديرتين وقال :

— ما الذي جرى لك . تطير ؟ إلى أين ؟

— إلى هناك . — أشرت إلى الكتلة المتحركة في الضباب — لماذا لا أطيّر ؟
سأخذ حوامة صغيرة . سيكون مضحكاً أن أعترف للناس على الأرض بأنني
لم ألامس برجلي سطح سولاريس وأنا السولاريسي . اقتربت من الخزانة ،
وبحثت عن بذة مناسبة . بقي سنات يراقبني بصمت ، ثم قال :
— هذا لا يعجني .

التفت إليه واعتراضي هيجان فظيع لم أعان منه منذ فترة بعيدة .

— ماذا ؟ ماذا تقول ؟ الأوراق على الطاولة ! هل تخاف أن ... سخافة ؟!
أعطيك عهداً أنني لن أفعل . حتى أنني لم أفكر بذلك . لا ، الحقيقة أنني لم
أفكر .

— سأطير معك .

— شكراً . أرغب بالتحليق وحيداً . هذا شيء جديد . جديد كلياً . كنت
أحدث بسرعة وأنا أرتدي البذة الفضائية .

همهم سنات بكلمات أخرى لم أسمعها . كنت منشغلاً بالبحث عن
حاجياتي . وسألني بعدما ارتديت البذة :

— ألا يزال للعهد قيمة لديك ؟

— أوه : يا إلهي ! إنك تتحدث عن موضوع واحد . لا يزال وأنا أعطيك هذا العهد . أين هي الأسطوانات الاحتياطية ؟

عمت فوق المحيط وحدي لأول مرة . اتباني من جراء ذلك شعور جديد يختلف كلياً عما كنت أحس به وأنا أنظر إليه من خلف نوافذ المحطة . ربما كان الأمر متعلقاً بمدى ارتفاع التحليق عن سطح المحيط . عمت على ارتفاع لا يتجاوز عشرات الأمتار فوق الأمواج . أكد لي شعوري ما كنت أعرفه من أن الحدبات والمنحدرات الملونة واللامعة ببريق دهني والمنتشرة في لجة المحيط لا تتحرك كأمواج البحر أو السحب ، بل مثل حيوان . تبدو حركتها مثل ارتعاشات بطيئة للغاية وغير منقطعة فوق جسد أجرد معضل . كانت تضاريس الأمواج المتقلبة بنعاس ، تلتهب برغبة أرجوانية . وعندما استدرت لأسير بدقة على خط المقلد المنساب ببطء . سقط شعاع الشمس في عيني تماماً ، فلمعت أشعة الأمواج الدموية في الزجاج المحذب ، وأصبح لون المحيط أسود — كحلي مع ومضات نارية عاتمة .

ثبت سرعة الطائرة بما يتناسب وانسياب المقلد وبدأت أمبط متراً وراء آخر . لم يكن مقلداً كبيراً . طوله حوالي نصف كيلومتر وعرضه عدة مئات من الأمتار . ربما انفصل عن تشكيل يكبره بالكثير ، ويعد بمثابة قلعة صغيرة حسب مقاييس سولاريس ، استمرت والله أعلم كم من الأسابيع والشهور . وشاهدت وأنا أزحف فوق المحيط بين الدرنات المعروقة ما يشبه الشاطئ . كانت عشرات الأمتار منه تشكل منحدرًا شديدًا ، أما سطحه فكان شبه أملس ... وجهت الطائرة إليه . تبين أن عملية الهبوط أصعب بكثير مما توقعت . كادت طائرتي تعلق بلولب الجدار المتنامي أمام عيني . لكنني استطعت التخلص من ذلك . أطفأت المحرك وفتحت الغطاء . ثم تأكدت من عدم انزلاق المروحة

في المحيط . كانت أمواج المحيط تعلق حافة المقلد الخشنة على بعد خطوات من مكان هبوطي . لكنه بقي واقفاً بثقة تامة على زحافيه الواسعتين المتباعدتين .

قفزت إلى الأسفل ، وابتعدت قليلاً عن الطائرة . جلست على « أرض » خشنة متصدعة . زحفت موجة سوداء بتناقل نحو الشاطئء وتناثرت . أصبحت بدون لون ثم تراجعت مخلفة وراءها خيوط نخامية دقيقة . نزلت قليلاً ومددت يدي للموجة التالية . تكررت تلك الظاهرة التي شاهدها الناس منذ ما يقارب المائة عام — تأخرت الموجة وتراجعت قليلاً . أحاطت بيدي دون أن تلامسها . بحيث بقيت طبقة رقيقة من الهواء تحيط بيدي في العمق الفاصل بين سطح يدي والجدار الداخلي الذي بدل من كثافته وأصبح مطاطياً . رفعت يدي ببطء . قامت الموجة ، بالأحرى ، امتد لسانها الرفيع مع حركة يدي محيطاً راحة كفي بغلاف مضيء أخضر وسخ . توقفت لعدم استطاعتي رفع يدي أكثر من ذلك ، واشتدت قطعة من مادة هلامية وأصبحت مثل وتر مشدود . لم تنقطع . التصقت قاعدة الموجة المتناثرة بطرف الشاطئء قرب قدمي تماماً دون أن تلامسها . بدت مثل كائن عجيب ينتظر بصبر فارغ نهاية هذه الأبحاث التي تجرى عليه . تبين أن زهرة قد نمت على سطح المحيط وتلبدت قنياتها مثل أصابعي ، مكونة شكلاً يشبه يدي تماماً ، لكن بصورة سلبية (نيكاتيف) . تراجعت . اهتز عودها المرن المترنخ المتمايل وتراجع إلى الأسفل وارتفعت الموجة لتحضنه بصدرها ولتختفي فيما بعد وراء تضاريس الشاطئء . كررت اللعبة ، ومن جديد اقتربت موجة تالية تتدحرج بلا مبالاة كأنها ضجرت من مشاهدة هذه الأشياء ، أي كما حدث منذ مائة عام مضت . عدت لأجلس في مكاني من جديد ، لأني عرفت أن إيقاظ فضولها سيستغرق عدة ساعات . لقد غيرت الرؤية هذه في داخلي أشياء عديدة ، رغم معرفتي النظرية الجيدة لها مسبقاً . لن تستطيع أية نظرية أن تحل محل الإحساس الحقيقي .

لقد رافقت البراءة اللامرعبة والحذر ولادة ونمو وتطور هذا الشكل الحي في كل حركة من حركاته . كان يسعى بحماس واندفاع لإدراك ومعرفة الأشكال الجديدة والمباغتة القادمة للقائه ، لكنه أجبر على التراجع من منتصف الطريق عندما ظهرت الحاجة لخرق حدوده المرسومة بقانون خفي .
لم يُصب المقلد العملاق بعدوى الفضول واستمر ينسبط لامعاً في أفق السماء .

لم أشعر من قبل بحقيقته الجبارة وبغرابته وصمته المطبق كما شعرت بها الآن وبهذه القوة . وقفت مذهولاً مصعوقاً وإحساس بالضيق يتصاعد في داخلي . كنت التحم باندفاع مع هذا العملاق الأعشى السائل دون أن أمارس العنف على ذاتي . ساحت على كل شيء دون أن أوجه إليه أية كلمات أو أية أفكار . كان سلوكي لا مبالياً خلال الأسبوع الأخير ، لذلك كلت نظرات سنوات التشككة عن ملاحقتي . كنت أبدو هادئاً من الخارج ، وأنتظر شيئاً لا أعرفه في داخلي . ترى ما هو ؟ هل أنتظر عودتها ؟ كيف أستطيع ؟
إن كل منا يدرك أنه كائن مادي يخضع لقوانين الفيزياء والفيزياء البيولوجية ، ولن نستطيع مقارعة هذه القوانين ، حتى في حال توحيد كافة قوانا ومشاعرنا . كل ما نستطيع فعله هو أن نكرهها ولا شيء أكثر من ذلك .

إن إيمان العشاق والشعراء بقوة الحب الذي يعاني من الموت والقائل :
Finis vie non amour * ما هو إلا كذب يطاردنا عبر قرون طويلة . إنه مجرد كذب لا فائدة منه ، لكنه غير مضحك . وكأنك تصبح ساعة لقياس الزمن . تلك الساعة التي يفككونها تارة ، ويجمعونها تارة أخرى ، ويسيل منها اليأس والحب منذ تلك اللحظة التي يدخل فيها المصمم عجالات الحركة ، ومن خلالها

* تنهي الحياة ولا ينتهي الحب .

تعرف أنك تتدرب على العذاب الذي يتكرر بعمق أكثر ، ومن تكراره المستمر يصبح هزلاً ؟

والجنس البشري ، ألا يكرر نفسه مثل مقطوعة موسيقية يعيدها سكير ، وذلك بأن يرمي قطعة نقود معدنية في صندوق الموسيقى ؟

لم أصدق لحظة أن هذا العملاق الذي يحملني كذرة غبار دون أن يلاحظ ذلك سيتأثر من مأساة شخصين . وهو الذي هياً الموت في داخله لمئات من الناس ، وعبثاً سعى جنسي البشري طوال عشرات السنين لمد خيط من التفاهم معه . بيد أن أفعاله كانت منصبة على هدف ما . والحقيقة أنني لم أتيقن من ذلك تماماً .

وإن غادرته — فهذا يعني التخلي عن الفرصة الصغيرة الخفية والتي من الجائز أن لا تكون إلا فيّ خيالي ، وهي من تخفي عوالم المستقبل .

وهكذا أمضيت سنوات وسط الأدوات والأشياء التي لامسناها سوياً في الهواء ، تلك الأشياء التي تذكرني بأنفاسها ! من أجل أي شيء ؟ هل لدي أمل في عودتها ؟ كلا. كان آخر ما تبقى لي منها هو الانتظار الذي يعيش في داخلي . ما الذي كنت أنتظره ؟ شيء من السخرية وشيء من العذاب .

لا أعرف . لكنني آمنت بشدة أن زمن العجائب المرعبة لم يول بعد .

انتهت

في عالم بعيد عن عالمنا الأرضي، تجري أحداث هذه الرواية فكيكلفن بطل الرواية الذي صعد إلى كوكب بعيد ليلتحق بزملائه، ينتابه الرعب لما يجري هناك من أمور عجيبة وغريبة ويستسلمون لليأس. وبأحجية، تدخل الحبيبة التي كان قد افتقدها من سنين، تدخل المركبة التي يعمل فيها. كيف دخلت؟ أم هو حلم؟ وما الذي فعلته وسط الجذب والبؤس المسيطر. اخضلت الحياة وصار لها معنى. انتعش الأمل بحلول الدفء. يخطط للعودة إلى الأرض من جديد. لكن المفاجأة الثانية المثيرة تحدث، وينتج عنها تلك الصرخة الحزينة، الضائعة، الباحثة عن معنى الوجود.

«وهكذا أمضيت سنوات وسط الأدوات والأشياء التي لامسناها سوية في الهواء، تلك الأشياء التي تذكرني بأنفاسها! من أجل أي شيء؟ هل لدي أمل في عودتها؟ كلاً. كان آخر ما تبقى لي منها هو الانتظار الذي يعيش في داخلي. ما الذي كنت أنتظره؟ شيء من السخرية وشيء من العذاب.

لا أعرف لكنني آمنت بشدة أن زمن العجائب المربعة لم يُؤلَّ بعد.»